المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

يونيو 2014

401

فَنّان الاختْفاء

ثلاث روايات [illegible]رة

تأليف: [illegible]ساي

ترجمة: علي [illegible] صالح

مراجعة: مالك أحمد عسّاف

5.5 8.2

فَنَّان الاخْتفاء

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

فَنَّان الاخْتفاء

ثلاثُ رواياتٍ قصيرةٍ

تـــألـــيـــف: أنيتا ديساي

تـــرجـــمـــة: علي عبد الأمير صالح

مـــراجـــعـــة: مالك أحمد عسّاف

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. حنان عبدالمحسن مظفر
د. بدرية أحمد الحجي

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

رقم الإيداع: 2014/239
ردمك: 978-99906-0-422-1

• فَنّان الاخْتفاء
ثلاثُ رواياتٍ قصيرةٍ

العنوان الأصلي

Anita Desai

The Artist of Disappearance

Three Novellas

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014م

إبداعات عالمية - العدد 401

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الفهرس

المقدمة 1

الرواية الأولى: مُتْحَفُ الرّحلاتِ الأخيرةِ 17

الرواية الثانية: المُترجِمة مُترجَمَة 67

الرواية الثالثة: فَنّانُ الاخْتِفَاءِ 133

مقدمة

يُعدّ كتاب (فنان الاختفاء، 2012) أفضل ما أصدرته الكاتبة الهندية أنيتا ديساي منذ روايتها (صيام، ولائم، 1999)، ويشترك مع روايتها الاستثنائية (نار على الجبل، 1977) في الرؤية التشاؤمية إلى عالمنا المعاصر.

تميل أنيتا ديساي، وهي أعظم كاتبة هندية حيّة، دائماً إلى إخفاء انتقاداتها اللاذعة للوضع السائد في بلدها الهند تحت المظاهر البرّاقة التي تقدّمها في أعمالها السرديّة. وفي هذا الكتاب تحديداً يتجلى نقدها اللاذع للثقافة الاستهلاكية المعاصرة بشكل صريح وواضح، ولكنه بعيد عن الانفعال والمباشرة والارتجال والشعارات، فهي تعالج مواضيعها برويّة وبلاغة لغوية أسلوبية طالما عرفناهما في آثارها الإبداعية الغزيرة.

يضم كتابها الجديد (فنّان الاختفاء) ثلاث روايات قصيرة هي على التوالي: (متحف الرحلات الأخيرة) و(المترجِمة مترجَمة) و(فنّان الاختفاء)، حيث تجري أحداث هذه الروايات ضمن جغرافية الهند، البلد العريق متعدد القوميات والثقافات والأديان واللغات. أبطال وبطلات هذه الروايات أناس عاديون من عامة الشعب، لكنهم مبدعون ويمتلكون المواهب؛ إنهم يهوون الفن والأدب ويقرؤون الكتب، بل يكتبون أيضاً، وبعضهم يقيمون علاقات طيبة مع الآخرين، لكنهم سرعان ما يصطدمون بالواقع القاسي، فينكفئون وينزوون ويتوارون عن الأنظار، ويختارون العزلة والوحدة، ويعيشون بعيداً عن المجتمع المعاصر الذي

تسوده القيم المادية، وعن العالم الذي تستحوذ عليه الثقافة الاستهلاكية الفجّة، التي لا تكترث بالقيم الإنسانية، ولا تأبه بالثقافة الرفيعة والنبيلة التي دافع عنها شاعر الهند الأكبر طاغور.

ثمة قاسم مشترك يربط هذه الروايات القصيرة الثلاث بعضها ببعض، ألا وهو التعلق بالفنون، لكنها -أي الروايات- في الحقيقة، تصف ذواتنا؛ ذواتنا البشرية التي تجرؤ على التمني، والتي تطمح باستماتة لأن تكون مختلفة عن الذوات الأخرى، لكنها، بعد حين، تُصاب بخيبة الأمل، وتتراجع إلى الوراء، وتختفي عن الأنظار، وتبدأ بممارسة الحياة العادية، المألوفة، الأفقية، شأنها شأن السواد الأعظم من الناس.

بحسب النقاد فإن هذا الكتاب هو أحد أهم أعمال هذه الكاتبة الهندية التي تكتب بالإنجليزية، والتي عرفها جمهور القرّاء في شتى بلدان العالم منذ منتصف ستينيات القرن المنصرم، وهي تعود إلينا هذه المرة بصوت إنساني متميز، هو صوت الفنّان، الذي تشاركه اهتماماته وأحلامه، وهو أيضاً صوت لافت، ومثير للدهشة؛ أما الدهشة فناجمة عن محاور مشتركة تتناولها في كتابها الجديد، هي: الإنسان، المجتمع، العالم. لكنها تتناول هذه المحاور كلها من دون تزويق ولا زخرفة ولا رتوش، أو مظاهر خادعة وبرّاقة، ما يجعل السرد أكثر واقعية، وأكثر ارتباطاً بالحياة المعاصرة؛ وفي الوقت نفسه حافلاً بالدلالات والرموز والرؤى والأفكار المنبثقة من الوضع الراهن الذي تعيشه بلادها الهند، في ظل الفساد المالي والإداري للدولة، وجشع الشركات

التي لا تعرف سوى أفضل الوسائل التي من شأنها أن تزيد من عوائدها المالية، والإساءة للطبيعة والحط من قدرها، وتلويث البيئة، وعدم الاكتراث بالفنون والآداب. وخلال قراءتنا لهذا الكتاب نستشعر المرارة والحزن اللذين يعتملان في نفس الكاتبة، وهي تنظر بأسى إلى ما آل إليه العالم بأسره، ومنه وطنها الهند من دمار وخراب وتداعٍ واحتراب طائفي وعرقي ديني، وما يكابده البشر من انتهاكات لحقوقهم الإنسانية، وما تتعرض له الطبيعة من تجاوزات وحشية على نقائها ورعويتها وبهائها.

إن شخصيات الروايات الثلاث التي ترسمها ديساي بأسلوبها المألوف الذي يمزج السخرية بالعاطفة المرهفة هم أناس ينظرون إلى الصور واللوحات الفنية، ويقرؤون الكتب؛ الأثرياء الذين يجمعون الأعمال الفنية ويهملونها، الموظفون الحكوميون الذين يستحوذ عليهم الإحباط والملل والرتابة، المترجمون من اللغات الثانوية إلى اللغات الرئيسة، والنقاد والناشرون الذين يجتمعون حول الحافات، تعكر نقاشاتهم المتواصلة حدود تلك الحافات، وتطمس ملامحها. وفي الرواية الأخيرة في الكتاب (فنان الاختفاء)، تتناول ديساي ذلك الجزء السري من النفس البشرية، الجزء الذي يستطيع أن يبدع ويبتكر، بغض النظر عن الخراب الذي آلت إليه الظروف المحيطة به، الخراب الذي ذكره قسطنطين كفافي في قصيدته الشهيرة، وينصحنا بأن نبقى في المدينة التي نسكنها، وألا نبحث عن أرض أخرى ولا عن بحار أخرى، فكل الطرق ستؤدي بنا إلى المدينة ذاتها، «وكما خربت حياتك هنا، في هذه الزاوية، فهي خراب أنى ذهبت».

أجل، تقدّم لنا ديساي في روايتها الأخيرة هدية نفيسة، توحي لنا بأنه يجب علينا، ومهما كلف الأمر، ألا ننصاع للآلة الإعلامية الفجة والصاخبة والخاوية في القرن الحادي والعشرين، وألا نسمح لأحد أن ينتهك عزلتنا، وتوحدنا مع ذواتنا، وبحثنا عن كل ما هو جديد ومبتكر.

متحف الرحلات الأخيرة:

تأتي هذه الرواية القصيرة على لسان موظف إداري شاب يهوى الكتابة، آثرت الكاتبة ألا تمنحه اسماً معيناً، يسرد بسخط تام تفاصيل حياته الماضية والحاضرة. تلقّى هذا الشاب تعليمه بحسب التقاليد الموروثة عن الإمبراطورية البريطانية الغابرة، التي احتلت الهند، ولم تسحب جيوشها إلا بعد استقلال الهند سنة 1947. يُعيَّن الشاب في وظيفة حكومية في مقاطعة ريفية نائية ومعزولة في الهند. وبسبب الملل والرتابة والإحباط، وبسبب عدم وجود نادٍ رياضي يستطيع أن يمارس فيه لعبته الأثيرة (الكريكيت)، وأيضاً بسبب عدم توفر الشاي الإنجليزي المناسب الذي اعتاد أن يشربه عندما كان في المدينة، يغدو ساخطاً أكثر فأكثر لأنه لا يستطيع أن يحل مشكلات الناس في تلك البقعة المقفرة من العالم، عندما كانوا يأتون إليه يومياً حاملين طلباتهم، وشكاواهم العويصة التي لا يستطيع معالجتها أو حلها، لأنها خارجة عن إرادته؛ فبعضها يتعلق بملكية العقارات والأطيان، وهي مشكلات معقدة لا سبيل إلى حلها، وبخاصة أنه شاب غرّ وقليل التجربة في الوظيفة المدنيّة والحياة على

السواء. وحتى كتبه الأثيرة التي رافقته في رحلته إلى تلك البقعة النائية تصبح عديمة الطعم، وتتخلل وحدته وضجره إلى أعماقه، بحيث ينزلق إلى سبات غيرَ مبالٍ، إلى أن يوقظه زائر عجوز بقصص مغرية حول متحف غامض في مقاطعة مجاورة، عاشت في زمن مضى أيام مجدها وتألقها، لكنها الآن آلت إلى النسيان، ولم يعد يشير إليها أحد. ويجذب الوعد بمنتجع عجيب ذي جمال وترف واطمئنان هذا الموظف المدني الذي سئم الحياة في تلك المقاطعة النائية، وضاق بها ذرعاً، ويدعوه أمين المتحف العجوز إلى زيارة المتحف، فيذهب في سيارته (الجيب)، ويأخذه الرجل العجوز في رحلة مرهقة إلى حد اللهاث في أرجاء المتحف، عارضاً عليه التحف والمقتنيات التي أرسلها الابن الأخير للسلالة إلى قصر والديه السابق، في صناديق وعلب لا تعد ولا تحصى؛ تماثيل صغيرة لا تُقدر بثمن، مخطوطات ولفيفات من الورق دُوِّنت عليها الوثائق، قطع السيراميك، والخزف الصيني اللامع، والمراوح، والقبعات، والأقنعة، والحقائب.. هذه المقتنيات الثمينة والنادرة جمعها الابن الأصغر للأسرة خلال أسفاره في بلدان الشرق الأقصى، ومع أن الموظف الشاب يشعر بأن زيارة هذا المتحف نوع من التغيير وكسر للرتابة التي كان يعيشها، لكن الملل يتسلل إليه، حيث يسرد لنا قائلاً: «كانت أصوات وقع أقدامي على الأرضية الحجرية تؤكد ذلك الإحساس بالعبث واللاجدوى. أما مرشدي فكان ينتعل خفين لم يكن بمقدوره إلا أن يجرهما بتثاقل. ربما كنا، أنا وهو، شبحين ينتميان إلى ذلك المتحف الذي استحضره المالك في أحد أحلامه». ثم يضيف

قائلاً: «كان فضولي قد تضاءل كثيراً إلى درجة أنه غدا أشبه بشبح باهت لم يعد له وجود. وألفيتُ نفسي أغذ الخُطا وراء مرشدي، ولم أعد أتوقف لأبدي إعجابي أو أفكّ الطلاسم، بل كنت أتمنى فقط أن أنتهي من هذه الجولة بأسرع وقت ممكن».

كان السبب الرئيس للزيارة هو أن تتدخل الحكومة المحلية من خلال شخص الموظف الشاب في رعاية المتحف والمحافظة على المقتنيات والتحف النادرة والثمينة التي جمعها أصغر أبناء أسرة هندية أرستقراطية مهووس بالسفر وشراء القطع الفنية. وكان آخر ما أرسله ذلك الابن هو أنثى فيل ضخمة تحتاج إلى التغذية والرعاية باستمرار، لكن ذلك كان يتطلب مجهوداً بشرياً لم يعد أحد قادراً على القيام به، كما كان يتطلب إنفاق مال سيلتهم كل ما تبقى من ثروة الأسرة. ويخاطب المشرف على المتحف الموظف الشاب قائلاً بتوسل: «أرجوك يا سيدي، ساعدنا. من فضلك توسل نيابةً عنا إلى الحكومة، أو الحاكم المطلق، كي يأخذوا المتحف منا، ويضعوه في عهدتهم، وأن يتولوا أمرنا وأمر هذه الهدية الأخيرة التي أُرسلت إلينا. إنني أشعر بالعار يا سيدي، لكنني لم أعد قادراً على العناية بها بنفسي. سامحني على تضرّعي إليك».

يحتار الموظف الشاب ويرتبك، لا يدري ماذا يقول له، وكيف يلبي طلبه وحاجته الواضحة، وبعد ذلك يُنقل إلى مكان آخر، ومن ثم يتزوج وينجب الأولاد، وينسى الماضي، ولا يعود يفكر فيه، كما لم يتواصل مع حارس المتحف، ولم يعرف شيئاً عما جرى للمتحف، أو للحارس نفسه.

ويختتم الموظف الشاب حكايته بالقول: «في الواقع، أنا الآن غير متأكد ما إذا كان ذلك المتحف أو الرجل الذي أوجده أو والدته التي تلقت مقتنياته أو الحارس الذي حافظ عليه موجودين بالفعل، أم أن ذلك كان محض سراب تراءى لي، أو مجرد كتاب قرأته ذات مرة ولم أعد أتذكره إلا بصورة مبهمة».

المُترجِمة مترجَمة:

في هذه الرواية القصيرة يلتقي القارئ بسيدة منعزلة في منتصف العمر، تُدعى بريما جوشي، تعمل بتدريس اللغة الإنجليزية في إحدى الكليات ذات الإمكانات المادية المتواضعة، لا تخفي جنونها بلغتها الأم الأثيرة إلى قلبها (الأورية) لغة ولاية أوديشا الهندية، على الرغم من كونها لغة أقلية. ويكون حلمها في الحياة ترجمة أعمال أدبية مكتوبة بتلك اللغة لكي يعرفها الآخرون الذين يقرؤون بلغات أخرى كالإنجليزية التي تجيدها، قراءة وكتابة، كما تجيد الترجمة إليها. ولم يكن حلمها مستحيلاً بالنسبة لها، وعندما تلتقي بزميلتها في الدراسة الثانوية تارا التي حققت منجزات كبيرة من خلال كتابتها في صحف ومجلات محلية وعالمية، كما أنشأت داراً للنشر تُعنى بمؤلفات النساء، تكلفها تارا بترجمة مجموعة قصصية للكاتبة سوفارنا ديفي التي تكتب بلغتها الأم (الأورية)، وهي واحدة من اللغات الثانوية في الهند، إلى اللغة الإنجليزية، وتشعر بريما بالفخر عندما تُنشر الترجمة. لكن آمالها سرعان ما تتبدد عندما تنقل رواية كتبتها سوفارنا ديفي إلى الإنجليزية. تترجمها بريما بتصرف لكي تعوض عن افتقارها إلى

النضارة والحيوية، فيفشل الكتاب، وتعترض أسرة الكاتبة. وتطردها صديقتها الناشرة تارا، فتعود إلى التعليم، وهي تعرف أن طالباتها الجامعيات يجدنها مضجرة وعتيقة الطراز. تتابع الكاتبة ديفي الكتابة في قريتها النائية، وإذ تحاول بريما جوشي اقتحام عالم الكتابة، وهو العالم الذي تحبه ولا تخفي شغفها به، تجد أنها تكتب بصوت ليس لها، إنه صوت كاتبتها المفضلة سوفارنا ديفي.

تركز أنيتا ديساي في هذه القصة على التسلسل الهرمي الذي يفصل الكاتبة عن المترجمة، حيث تكون الأخيرة، وكما هو جلي، في مستوى أدنى من الكاتبة، وتُصاب بالإحباط الناجم عن ذلك، كما تسلط ديساي الضوء على ما سيحدث عندما تنتهك المترجمة ذلك النظام الهرمي، لكن عميدة الأدب الهندي تستخدم هذه الرواية القصيرة لأغراض ساخرة، ربما لكي تثأر من بعض القوميين الهنود في ميدان الأدب، ففي إحدى المرات تحضر المترجمة بريما جوشي وناشرتها تارا مؤتمراً أدبياً، حيث يرهبهما بالوعيد «رجل قصير وسمين يلبس بدلة ملطخة بالعرق»، ويسأل المترجمة بإلحاح عن هدفها من الترجمة، قائلاً: «ما الشيء الذي جعلك تقررين ترجمة هذه القصص إلى لغة استعمارية هي المسؤولة عن تدمير اللغة الأصلية؟».

في نهاية الرواية تكتشف بريما جوشي أن حلمها يتقاطع على نحو جذري مع ما تفرضه عليها مهنتها كمترجمة رسمية من مبادئ وقيم استهلاكية لا تروقها. وكما في رواية (متحف الرحلات الأخيرة) تلوذ بالفرار وتنزوي وتتوارى عن الأنظار في جملة من التحديات لإثبات الذات المبدعة.

فنان الاختفاء:

في هذه الرواية نتعرف إلى الناسك رافي الذي يسكن في منزل يقوم على تل يقع عند سفوح جبال الهملايا. كان أبواه اللذان تبنياه يتركانه في كل صيف ليقضيا موسمهما في أوروبا، بينما يجد رافي راحته مع أسراب النمل والجداجد والأشجار، بحيث أصبحت الطبيعة الغذاء الوحيد الذي يتوق إليه. وبعد أن يتوفى والداه، تتسبب الآنسة ويلكنسون التي كانت تعمل كرفيقة لوالدته أثناء مرضها بإحراق المنزل بسبب إصابتها بالعمى، وتتركه وحيداً كي «يخلق» الفن من مواد الطبيعة التي لا تُقدر بثمن. ويخترق فريق تلفزيوني قادم من دلهي عزلة رافي وسلامه وطمأنينته، عندما يأتون إلى المنطقة التي يسكنها رافي ليصوروا فيلماً وثائقياً عن تردي الوضع البيئي، وفجأة يعثرون على مبتكراته وإبداعاته، فقد كان رافي يصمم «حديقة سرية» في فسحة خالية من الشجر في الغابة، إنها، كما يقول تشاند رئيس فريق التصوير، «حديقة من نوع ما؛ حديقة خاصة جداً؛ لا أحد يعرف عنها شيئاً، لكننا إذا ما استطعنا أن نتعرف على الشخص الذي صمَّمها أو يقوم بتصميمها فربما سيشكل ذلك خاتمة جميلة للفيلم». إنهم يودون اللقاء به، فهو شخص مختلف عن سائر البشر الآخرين، شخص لا يخرب الأرض، ولا يهين الطبيعة، بل كان يصنع ويبتكر شيئاً جميلاً وسط الغابة التي وجد فيها ملاذاً، وصومعة له، بعيداً عن صخب العالم وضوضائه وثقافته الاستهلاكية وإعلامه الفارغ.

وعندما يعلم رافي، الذي كان يمقت الأضواء ويكره الإعلام، بأنهم يريدون اللقاء به وإجراء حوار معه، يقرر مغادرة صومعته

والذهاب للسكنى في بيت أحد أبناء الخدم السابقين ممن عملوا في منزل الأسرة. وحتى عندما ينتقل إلى هناك لا يخفي ولعه بالفن والإبداع، حيث يعثر على علبة كبريت فارغة، فيلتقطها ويمضي بها إلى الهواء الطلق: «كانت تلك طريقته في مراقبة الأشياء وتأملها، جلس على زند الخشب في زاويته المألوفة ثم فتح تلك العلبة المُهلهَلَة وتفحص فراغها بتركيزه المعهود، ربما كانت سريراً أو مهداً، إنما لمن؟ تطلَّع من حوله باحثاً عن شيء يكون حجمه صغيراً بشكلٍ كافٍ ليتناسب معها، فوجد شظية من لحاء الشجر وقطعة صغيرة من الطحلب، لكنهما تركتا حيزاً لمزيد من الأشياء. وعلى الأرض عند قدميه، لمح قطعة صغيرة جداً من الكوارتز يُمكن إضافتها إلى محتويات العلبة. أغلق العلبة ووضعها في جيب قميصه العميق. طوال النهار كان يمد يده إليها ليتلمسها، وقد وجد فيها مصدراً لراحة البال والتساؤل حول أنواع المجموعات الأخرى التي يمكن تشكيلها».

إن الناسك رافي في رواية (فنان الاختفاء) جريح الحياة المعاصرة السائر على قدمين، وهو لا يشعر بالراحة في صحبة الآخرين الذين يسيئون إلى الطبيعة ويحفرون المناجم بصورة غير مشروعة، إنه إنسان فريد من نوعه، يمارس طقوسه في عزلة تامة، بعيداً عن فضول سائر الناس، لا يجد راحته إلا في أحضان الطبيعة، وحتى بعد أن يحترق منزل الأسرة يواصل الإقامة في الحطام المتبقي منه، وخلال ذلك يبدع حديقته الخاصة «فردوسه المفقود» في فضاء سري بعيد عن أنظار الناس. يمارس رافي نوعاً من الاختفاء، وهو عندما يعتني بحديقته السرية

فهو في الواقع يصمم الفردوس المفقود في حياتنا المعاصرة التي تفتقد إلى الوئام والمحبة والطمأنينة والسلام الداخلي والإيثار والتضحية ونكران الذات، حيث صارت النزعة الاستهلاكية والارتجال والأنانية وحب الشهوات والجشع والنزعة المادية هي السمات الغالبة على مجتمعنا المعاصر.

يقدم اختفاء رافي بعد موت والديه ورحيل الآنسة ويلكنسون أسلوباً جديداً في الحياة، فناً قصير الأمد، يختاره بطل القصة بعد أن تغيَّرت الحياة، وغرق العالم في الفوضى والعنجهية والأنانية.

تجري أحداث هذه الرواية، التي يجمع النقاد على أنها أفضل الروايات الثلاث في (ميسوري)، وهي منتجع في سفوح جبال الهملايا، الواقعة في شمال دلهي، كما أنها مسقط رأس الكاتبة أنيتا ديساي نفسها.

وخلاصة القول: تقدم لنا ديساي في كتابها (فنّان الاختفاء) عرضاً مصغراً وذكياً للثقافة المعاصرة التي تصل دوماً إلى نهاية لا ترحم. ففي ظل الرأسمالية، جميع الأشياء يجب أن تُجمع، تُباع، أو تُدمر، مع أن «جميعنا، وكل واحد منا»، كما تقول بريما جوشي في رواية (المُترجِمة مُتَرجَمة)، «مرت بحياتنا لحظة انفتحت خلالها نافذة أمامنا، ولمحنا من خلالها ذلك العالم الرحب المغمور بأشعة الشمس. لكننا جميعاً، نحن الجالسين في هذه الحافلة، أغلقنا تلك النافذة وأبقيناها مغلقة».

علي عبد الأمير صالح

إهداء المؤلِّفة

إلى أخي دينو مازومدار
الذي أَدين له بالكثير

«ثمَّةَ شيءٌ واحدٌ لا وجودَ لهُ.. إنَّهُ النِّسيانُ»
قصيدة (الأبدية) لخورخي لويس بورخيس

ترجمة: ألاستير ريد

مُتْحَفُ الرّحلاتِ الأخيرةِ

سِرْنا بالسيارة، قاطعين أميالاً لا نهاية لها عبر ما بدا ضفة طينية أكثر من كونه طريقاً يمرّ بين حقول شديدة الاخضرار:

- هل هي حقول قنّب، أم أنها حقول أرز؟ ماذا كانت تنتج هذه المنطقة النائية التي دهمها الليل؟

كان يلزمني أن أعرف ذلك، لكنّ الدوار الذي أصاب رأسي من جرّاء حرارة الطقس والشمس والإعياء جعلني غير قادر على فهم ما كان يقوله لي السائق ردّاً على أسئلتي المتوالية.

كانت الشمس تغيب ضمن ظلمة كئيبة من الرماد والجمر على امتداد الأفق، عندما انعطف السائق بسيارته الجيب صوب الطريق الدائري، الذي يشكل مدخلاً لمنزل ريفي أبيض ذي سقف منخفض. كان هذا المنزل دار الضيافة التي يجب عليَّ الإقامة فيها ريثما أجد مكاناً خاصاً بي، وبما أنني موظف صغير جداً، حيث إنني مجرد مسؤول عن قسم صغير في سلك حكومي مَهيب، فقد مثّلت تلك الدار أقصى ما أستطيع أن أتوقّعه، وهو مأوى مؤقت لأحد الموظفين الصغار. لا يوجد شيء من حولنا باستثناء الحقول والطرقات الترابية والغبار، ولم يكنْ بوسعنا رؤية أية مصابيح أو لافتات تدل على مدينةٍ ما. لاحظ السائق

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

خيبة أملي وترددي، عندما وقع بصري لأول مرة على مكان إقامتي الجديد:

- إلى أين جئنا؟

بادر إلى الترجُّل من السيارة، ورفع حقائبي منها، ثم صعد أمامي على السلم العريض المؤدي إلى شرفةٍ طويلة ثُبِّتتْ على أبوابها حواجز منخلية لا يستطيع المرء أن يرى شيئاً من خلالها، صفّق بيديه، وصاح: «كوي هاي؟»، لم يُخيَّل لي أنه ما يزال هناك أحد يستخدم ذلك الإعلان المتعجرف عن الوصول، والذي يعود إلى أيام الراج:

- هل يوجد أحد هناك؟

لكن ربما في هذا المكان، الذي هو نفسه من بقايا الإمبراطورية، لم يكن الأمر بهذه الغرابة على الإطلاق، فضلاً عن ذلك، ليس هناك جرس، كما أنه ليس بمقدور المرء أن يقرع باباً مصنوعاً من المُنخل.

لم اتصور أن أحداً سمع نداءه، إذ لم تتم إضاءة أي مصباح كهربائي، ولم يكنْ هناك صوت لأي وقع أقدام، لكن بعد هنيهة أقبل إلينا شخصٌ من الجزء الخلفي للبيت، وهو المكان الذي يُفترض أن يحتوي على الأكواخ أو المساكن الخاصة بالخدم.

- لقد أحضرتُ الموظف الحكومي الجديد.

بادر السائق إلى القول، وكان يرتدي زيّاً رسمياً رديء النوع خاكي اللون، نُقِشتْ على جيب قميصه حروفٌ باللون الأحمر، وكان ذلك بمثابة تفويض له، ثم أردف قائلاً:

- هلّا فتحت له غرفة، وأشعلت بعض المصابيح فيها؟

- لا توجد مصابيح.

ردَّ الرجل بوقار، ولم يكن يلبس زيّاً رسميّاً، بل مجرد ملابس فضفاضة، كما أنه حافي القدمين، بيد أنه مستقيم الظهر، ما أعطى انطباعاً بأنه يمتلك نفوذاً ما، ثم أضاف:

- التيار الكهربائي مقطوع.

فردَّ عليه السائق بنبرة حادة:

- أحضر فانوساً إذن.

كان واضحاً أن السائق يستمتع بإعطاء الأوامر.

أما أنا فلم أحبِّذ ذلك، وشعرت بالارتياح عندما تسلّم الحارس حقائبي، فقد بدا جلياً أنه الحارس، مع أنه لا يرتدي زياً رسمياً، وهمَّ بالمغادرة.

كان الليل قد حلَّ، وعندما شاهدتُ المصابيح الأمامية لسيارة الجيب وهي تغمر بأضوائها أوراق النباتات الداكنة التي تحتشد حول الدار وتكسو طريق المدخل الخاص به، ثم تستدير، بحيث يمكن رؤية أضواء مصابيحها الخلفية تتضاءل رويداً رويداً، لتتلاشى نهائياً بعد ذلك، عندها فقط أحسستُ بانقباض في صدري. لم أشأ المكوث في هذا المكان المهجور، بل وددتُ أن أجري وراء سيارة الجيب، وألقي بنفسي في جوفها، لأعود بعدها إلى ذلك المشهد الذي ألفتُه؛ فقد اعتدتُ حياةَ المدينة، وتنافرَ أصوات حركة المرور فيها، وتآلفتُ مع صخب الأصوات البشرية وضجيجها ونشازها؛ كما تعودتُ على تدافع حشود البشر؛ كل هذا لم يكن له وجود هنا.

وبينما أنا واقف في الشرفة أنتظر وصول فانوس كي يتم

إرشادي إلى غرفتي، رحتُ أنصتُ إلى خشخشة سعف النخيل على السطح، وإلى نقيق الضفادع التي تبعث تحذيراتها بصوتٍ خفيض من بركة غير مرئية أو من مستنقع خفيٍّ في الجوار، كانت تلك الأصوات مزعجةً أكثر من السكون المخيِّم على المكان.

وأخيراً جيء بفانوس مُضاء، حيثُ تبعتُ وهجَه الشبحيَّ، ومررتُ بقطع أثاث كبيرة تبعث على الخشية، حتى وصلتُ إلى الحجرة التي فتحها لي الحارس. كانت تفوح من الحجرة رائحة رطوبة شديدة ناتجة عن عفن، وكأنها رائحة خزانة ثياب فُتحتْ بعد ردح طويل من الزمن، وتشير إلى موت شخصٍ أو اثنين.

خطَر لي أن هذا حتماً ليس فصلاً من فصول حياتي؛ بل هو فصل من فصول تلك الروايات التي اعتدتُ قراءتها خلال أيام الدراسة، رواية من روايات روبرت لويس ستيفنسون أو آرثر كانون دويل أو ويلكي كولينز. كنتُ قارئاً نهماً يومئذ، حيث إنني أطمح سرّاً إلى أن أصبح كاتباً، وتذكرتُ أيضاً الصوت الكريه الذي كان يطلقه معلّم التمارين الرياضية في المدرسة، وهو يهتف بنا:

- شدّوا أجسامكم الآن، أيها الصبيان، شدّوا أجسامكم!

وكدتُ أضحك ضحكة مريرة.

جميع الأفعال التي يقوم بها المرء بصورة آلية واعتيادية في العالم الواقعي، أي العالم المضاء - من استحمام ولبس الثياب وتناول وجبات الطعام - يجب أن يؤديها هنا بشكلٍ أشبه بحركة بطيئة ومتوانية إلى حدٍّ ما.

أخذتُ الفانوس معي، ودخلتُ إلى الحمام، وبدلاً من أن يبعث الفانوس ضوءاً نشر ظلالاً راحت تتأرجح بغرابة، وهو ما

جعل الجدران المتسخة والأرضية القذرة تتلألأ بصورة خطيرة، وتدبرتُ أمري بالوسائل المتاحة مستخدماً دلواً بدائياً مملوءاً بالماء وإبريقاً من القصدير، ولكي أرتدي طقماً نظيفاً من الثياب، في الوقت الذي لم يكن باستطاعتي أن أكتشف ما الذي أخرجتُه من حقيبتي المحشوة بصورة تنم عن سوء الذوق، أهي ربطة عنق؟ متى يمكنني أن ألبس ربطة عنق في هذه الحفرة؟ ومن ثم أتخذ طريقي صوب غرفة الطعام، وأجلس لأتناول وجبة طعام وُضعت أمامي، لم أستطع أن أميزها على وجه الدقة؛ أهو صحن عدس أم عصيدة خضار؟ وهل هذه البركة الصغيرة المائلة إلى البياض أرز أم ماذا؟ جميع هذه الأفعال ليست سوى مناورات يجب عليّ القيام بها بتروٍّ بطيء إلى الحد الذي بدتْ فيه غير جديرة بالاهتمام، بل هي مجرد عادات تنتمي إلى عالم آخر وزمن آخر يواصل طريقه بوهن. كان يتردد من جميع الجهات المحيطة بي الطنين العالي للبعوض، وكنتُ أصفع أشباحها غير المرئية بحنَقٍ.

بعد ذلك عاد التيار الكهربائي، محدثاً ما يشبه صوت انفجار طفيف، وتوهجت المصابيح توهجاً شديداً إلى درجة أنني جفلت. حصل تغيّرٌ مفاجئٌ؛ حجرة الطعام في دار الضيافة، الطاسات والصحون المعدنية المصفوفة على مائدة الطعام، قطع الأثاث الثقيلة، وبقع البهار الهندي الأصفر على غطاء المائدة.. هذه كلها ظهرت للعيان بوضوح موجع، بينما تلاشى طنين البعوض بخيبة أمل، وتسلَّلت الآن حشراتُ نملٍ كبيرةُ الحجم ومجنَّحة، شاقة طريقها عبر الحواجز السلكية، وألقتْ بنفسها بعنف على

مصباح الكهرباء المعلّق فوق رأسي؛ فسقط بعضها في صحني، حيث غطست في صلصة مرق اللحم، وانفصلت أجنحتُها عن التروس اللولبية الصغيرة المتخبِّطة لأجسامها.

دفعتُ مقعدي إلى الوراء وانتصبتُ واقفاً بتهور شديد، ما جعل الحارس يهرع إليّ ليرى ما المشكلة. في الحقيقة، لم أجد مسوِّغاً لأخبره بأنّ كلّ شيء ليس على ما يرام، وبعدما طلبتُ منه بفظاظة أن يحضر لي الشاي في تمام الساعة السادسة من صباح الغد، عدتُ إلى غرفتي. بدا وكأنَّ رحمةً نزلتْ عليّ عندما أطفأتُ المصباح الكهربائي الوقح المعلّق بحبل فوق سريري، وتهيأتُ لأن ألقيَ نفسي في الفراش لتمضية تلك الليلة.

لم آخذ الناموسية التي كانت تغطي السرير في الحسبان، كان يتحتم عليّ في البداية أن أفتش عن فتحة أتسلل منها إلى الداخل، وبعدها أعيد تثبيت الناموسية كي أبعد البعوض، أخفقتُ في هذا الأمر، وراحت تلك الحشرات، التي تسللت معي إلى داخل الناموسية، تلسع بغضب كل سطح مكشوف استطاعت العثور عليه من جسمي، والأنكى من ذلك أن الناموسية منعتْ وصول أي نسمة هواء إليّ من المروحة المعلقة فوق رأسي، والتي كانت تدور ببطء شديد.

طوال الليل، ظلت الأصوات ترنُّ في رأسي مراراً وتكراراً:

- هل سأتمكن من الاستمرار في التدريب حتى النهاية في تلك النقطة الحدودية النائية، حيث من المفترض أن أصبح مهيئاً بعد ذلك للقيام بأعمال مهمة في السلك الحكومي؟ هل ينبغي عليّ الاستسلام من الآن قبل أن يعرف الجميع أنني منيتُ

بالفشل وجلّلني العار؟ هل كان يمكنني طلب المساعدة من أي شخص، من مرشدٍ موثوق به، مثلاً، أو ربما من والدي، الذي تقاعد عن العمل في هذا السلك تحديداً دون أن يفرِّط بسمعته وكبريائه، حيث بقيا نظيفين مثلما كانا قبل بدئه بالعمل؟

عبر الغابة، أو المستنقع، أو أي شيء آخر كان يحيط بهذا المنزل المنعزل، تناهت إلى سمعي أصوات كلاب (شار بي الصينية)[1] من القرى والمساكن المتناثرة والمتباعدة، وراحت تلك الأصوات تتردد في رأسي، بعضها شكّاكة وكئيبة، وبعضها الآخر يتّسم بالعنف والتحدي.

لو لم أتمرس على «الصلابة» في المدرسة، أو على يد والدي، لربما كنت سأسفح دمعة أو دمعتين على وسادتي الرمادية المسطحة. أوشكت أن أفعل ذلك، لكنّ ابتلاج الفجر أنقذني.

* * *

قررتُ البحث عن مكان آخر أكثر راحة لأتخذه مسكناً لي أثناء خدمتي الوظيفية هنا، لكنني سَرعان ما اقتنعت بأن فرصة العثور على مكان كهذا تكاد تكون مستحيلة، فلم تكن المدينة، إذا جاز لي أن أطلق عليها هذا الاسم، من النوع الذي يشيّد فيه الناس المنازل كي يعرضوها للبيع أو يؤجروها من أجل الكسب المادي؛ لا، ليست كذلك، فقد شيّد مواطنوها المنازل لإيواء عائلاتهم إلى أن يحين أوان تداعيها. لقد بوشر ببناء منازل كثيرة استناداً إلى تلك العملية العنيدة، حيث كان هناك تزايدٌ في عدد الأُسر كبيرة الحجم التي تُحشر في مساحات ضيقة في

(1) كلاب شار بي الصينية: سلالة نادرة جدا من الكلاب، تتميز بكثرة التجاعيد في وجهها، وأذنابها العالية، وآذانها الصغيرة المثلثة، وألسنتها الملونة بالأسود والأزرق.

وقت تنهار فيه الأسطح وتتصدع الجدران، ولم تكن هذه الأُسر تشدُّ الرحال حتى عندما تُجبر على السكن في الشرفات أو في المراحيض الخارجية.. كانت المدينة بأسرها تبدو أشبه بخرائب.

لا بد أن المدينة مرّت بعهد مزدهر في الماضي، عندما كان نبات القنّب، الذي ينمو بكثافة وقوة في الحقول المجاورة، سبباً لازدهار التجارة والأعمال، أما الآن فقد حلّت مكانه صناعة الألياف الكيميائية والبلاستيك والبوليستر، حيث كانت منتجات هذه الصناعات - من حقائب ومواد غسيل ودلاء وأحواض تتدلى من واجهات المخازن - تفترش الشوارع المغبرّة، وهناك سَرعان ما تبهتُ ألوانها الصارخة.

كنتُ أذهب يومياً إلى المحكمة، وهي بناءٌ متداعٍ من الآجرِّ الأحمرِ ينتصب في حقل ترعى فيه الماشية، وينشرُ فيه عمالُ الغسيلِ الملابسَ التي يغسلونها، واعتدتُ أن أجلس هناك وراء مكتبٍ فوق منصة مرتفعة قليلاً لأستمع إلى القضايا المعروضة عليّ، حيث تتركز تلك القضايا بشكل أساسي على نزاعات الملكية. قد لا يخطر ببال أحد أن الممتلكات المحلية أمرٌ يستحق النزاع، لكن مواطني هذه المقاطعة كانوا مولعين برفع القضايا بشكلٍ لا تجد نظيراً له في أي منطقة أخرى مأهولة بالسكان. جدارٍ منهار أو شجرتا جوز هند لم تحملا ثماراً منذ أمد بعيد لا يتذكره أحد، حتى أشياء كهذه كانت تثير ولع التملك، وبدأتُ أنظر إلى الأمر بوصفه التجارة المحلية الوحيدة، آخذ الملفات معي من الدائرة الحكومية لأقرأها خلال المساء، وأنا جالس في شرفة دار الضيافة عندما لا يكون هناك انقطاع للتيار الكهربائي.

في غرفة مكتبي الواقعة في المباني الإدارية، كنت معنياً بأمور أكثر إلحاحاً مثل الطاقة الكهربائية وشبكات المياه وانقطاعاتهما المتكررة، كما كنت مهتماً بقضايا الطرق والمرور وجهاز الشرطة -جهاز الشرطة مسألة جوهرية جداً- والاتصالات والأمن والتجارة والصناعة. كان أصحاب الدعاوى، وبخاصة محاميهم، يرغبون دوماً بأن يتم تأجيل النظر في دعاواهم من جلسة استماع للشهادات إلى جلسة قادمة. كان سكرتيري يأتيني حاملاً الملفات المربوطة بشريط أحمر، وأتسلى برؤية هذه الأمور بكل ما للكلمة من معنى، ويُدخل إليّ زائرين يحملون طلباتهم واحتياجاتهم وشكاواهم، أطلب الشاي لهم، وأبذل قصارى جهدي كي أقدم الشاي والسكر والحليب في أوانٍ منفصلة كما كانت تفعل أمي، لكنني لم أستطع؛ فقد كانت هذه المواد تصل دوماً ممزوجة في الأكواب، ولسببٍ ما كان هذا الأمر يزعجني كثيراً، ولم أكف عن التذمر بشأنه.

لا بد أنني أتذمر من هذا الأمر أيضاً في الرسائل التي أبعثها إلى أمي، التي كانت قلقة عليّ لأنني لا أحظى بالرعاية اللازمة مثلما كنتُ في بيتنا، حتى إنها سعت لتجد عروساً لي، لأنها باتت مقتنعة بأن ما أحتاج إليه هو زوجة صالحة؛ امرأة تنظم حياتي وتُدخل إليها الراحة والسرور. كنت أشعر بالوحدة بما يكفي كي لا أثنيها عن مساعيها، مع أن فكرة دخول شخص غريب إلى حياتي بهذه الطريقة الحميمة أفزعتني نوعاً ما، لكنّ أمراً كهذا لم يحدث على أية حال. وعندما اكتشف أبي أنها كانت تلتقي العازبات من بنات صديقاتها ومعارفها وبنات إخوانهن

وأخواتهن، وتعرض متباهية منزلتي في السلك المدني وإمكانات ترقيتي إلى مناصب حكومية أعلى وأهم في المستقبل بوصفها حوافز للزواج، وضع أبي حدّاً لكل تلك المكائد:

- لن يتم الزواج ما لم يكمل مدة تدريبه، ويتم تثبيته في الخدمة المدنية.

وخلال مدة قصيرة جداً أصبحت وتيرة حياتي العملية ثقيلة الوطأة. عندما التحقتُ بالسلك المدني كان يُخيَّل لي أنها مغامرة بلا حدود، وأن كل يوم سيجلب معه تحديات جديدة تتطلب حلولاً جديدة، طمأنني أبي وزملائي الموظفون الأعلى مني منصباً بأن الأمر سيكون كذلك، وتحدثوا عن مغامراتهم كإطلاق النار على آكلي لحوم البشر الذين روَّعوا السكان المحليين وسرقوا ماشيتهم، والتصدي لعصابات اللصوص التي تسلب المسافرين في الطرق السريعة، ومطاردة العناصر الإجرامية التي تعمل في تهريب البضائع أو المشروبات الكحولية المحظورة، والأخطر من ذلك كله تعقّب المحرّضين على العصيان السياسي بشتى أشكاله. بالنسبة لي بقيت هذه الأمور مجرد شائعات وخرافات، بل بدأتُ أشكّ في أنهم كانوا يسخرون مني، وبدا أن النشاط الأكثر إجهاداً بالنسبة لي يتمثل في أن أستخدم مضرب الذباب، وأن أمسح وجهي الذي يتصبب عرقاً من جراء الرطوبة العالية التي تلتصق بي مثل غطاء نديٍّ، إلى درجة أنني كنتُ أشعر بوهن شديد.

كان يزور دار الضيافة بين حينٍ وآخر موظفٌ آخرُ يقوم بجولة رسمية؛ يقضي ليلة واحدة قبل أن يستأنف جولته المتعلقة بتفتيش مشاريع المياه أو معامل الصرف الصحي، أو العيادة

الطبية أو المدرسة اللتين تديرهما الحكومة، أو تفتيش كل ما يقع في نطاق مسؤوليته، ثم يغادر في اليوم التالي بعدما يكون قد منَّ عليَّ بصحبة لا تستمر لأكثر من ليلة واحدة. وبما أن محور أحاديثنا المتبادلة هو العمل الذي نحن بصدد إنجازه، فإن تلك الزيارات لم تمنحني التسلية التي أهفو إليها كثيراً.

الخلاص الوحيد بالنسبة لي تمثل في إيجاد مبرِّر للقيام بـ«رحلة»، فأقوم باستدعاء سيارة الجيب والسائق، وأنطلق إلى الأطراف البعيدة للمقاطعة، ففي الحافة الشمالية منها توجد أراضٍ ريفية يُزرع فيها الشاي. منظر طبيعي أنيق لشجيرات الشاي والأشجار وارفة الظلال المزروعة في الهضاب المتموّجة قليلاً، والتي ترتفع تدريجياً لتتحول في نهاية المطاف إلى ما يُعرف بسلسلة الجبال الزرقاء، كم هو مؤسف أنه لم يتم تعييني في تلك المنطقة، كانت هذه الرؤية تنعشني، مثلما ينعشني شرب جرعة ماء باردة.

كنتُ أجلس على قطع أثاث رحبة من الخيزران في الشرفة الواسعة للمنزل الريفي العائد لمدير عزبة الشاي المحظوظ، وأحتسي مشروبي الخاص، ولم يكنْ بوسعي أن أمنع نفسي من إطلاق تنهيدة ارتياح مشوبة بالكآبة، لأن هذا المكان الصحي ليس ملكاً لي، ولأنه يجب عليّ أن أعود بسرعة إلى وظيفتي الباعثة على الحزن في الأسفل.

سألني مضيفي:

- كيف تسير الأمور؟

أعترف بأنني أخبرته الحقيقة بصراحة وحزن طلباً للشفقة، فردَّ علي قائلاً:

- إنني أعرف المدينة، إذ يتعين علي أن أزورها بين حين وآخر، فهي تفتقر حتى إلى ناد رياضي، أليس كذلك؟

- بلى! كم أتمنى أن يوجد فيها نادٍ رياضي، حيث يمكنني أن أمارس فيه لعبة التنس بعد ساعات عملي.

زفرتُ تنهيدة أخرى، وأنا أكتشف تعاطفه الجلي:

- وهي تخلو أيضاً من الحياة الاجتماعية، صحيح؟

- لا يوجد أحد يمكنني أن أتحاور معه بأي شيء ما خلا العمل، فليس هناك مكتبة ولا قرّاء، لقد نفدت كتبي، أيضاً.

نهض مضيفي ليصب لي جرعة شراب أخرى من المكان المشيَّد من الخيزران في الطرف الآخر للشرفة الواسعة، لاحقتُه بنظراتي، وأنا أبدي إعجابي بالأرضية الملساء، وبآنية السرخس الفخارية التي تزيِّن درجات السلّم، وبأزهار السحلبية الموضوعة في سلال معلقة فوقها.

وعندما رجع إلى كرسيّه، ناولني كأسي، ثم قال:

- في الماضي كانت هناك دوماً عائلات ثرية من كلكتا تمتلك الأرض المحيطة بهذا المكان، يأتون لزيارتها من حين إلى آخر، ويقيمون الحفلات الصاخبة، وينظمون حملات القنص والصيد. بالطبع، لقد ولى ذلك الزمن، ولا بد أن ممتلكاتهم قد آلت الآن إلى الدمار والخراب.

وأطلنا الحديث نوعاً ما حول بعض الأمور المتفرقة، إلى أن حان موعد مغادرتي، وعندما مشيت مارّاً بالباب المفتوح المؤدّي إلى درجات السلّم، ووقفت في انتظار وصول سيارة الجيب التي كان يجب أن تستدير لتصل إلى واجهة المبنى، وقع بصري على

شيئين صغيرين موضوعين فوق منضدة الردهة؛ إنهما تمثالان صغيران لشخصين صينيين، كل واحد منهما يرتدي رداء رومانياً طويلاً مزيّناً بالرسوم الزهرية، وينتعل خُفّاً أسود، ويحملان بينهما ما يشبه المحفّة[2]. كان ذلك الشيء استثنائياً وجميلاً في الوقت عينه، فنظرتُ إليه عن كثب، تفاصيله متقنة ورائعة، وله لمعان كالذي تراه في أجود أنواع الخزف الصيني. شاهدني مضيفي وأنا أتريّث في تمعّنه وفحصه، فقال لي:

- آه، هذا أحد الأشياء التي يصادفها المرء في هذه المناطق، والتي تعود إلى تلك المنازل القديمة التي حدّثتُك عنها، وحتى إن أحد تلك المنازل كان يحتوي على متحف في يوم من الأيام؛ ولعل هذا الشيء جيء به من هناك، أخذتْهُ زوجتي، فهي مولعة بأشياء من هذا الطراز، قلتُ لها إنها لا تستحقّ الثمنَ الذي دفعتْهُ من أجلها، إنها مجرد لعبةٍ تتحرك بعد تعبئة نابضها، وقد ضاع مفتاحُها.

فصرختُ متعجباً:

- لعبة تعمل بعد تعبئتها! إنها تبدو أسمى من ذلك، هل هي قديمة جداً؟

- لا يمكنني أن أجيب عن سؤالك هذا، لأنني لا أعرف شيئاً عنها، من المؤسف أن زوجتي تقيم الآن في شيلونغ، فبناتنا يدرسن في إحدى المدارس الموجودة هناك، لعلها كانت تستطيع أن تخبرك بالمزيد عنها.

---

(2) المحفّة هي فئة من المركبات غير المزودة بعجلات، وتكون على شكل كرسي أو سرير محمول على عارضتين طويلتين تُحملان على أكتاف أو بأيدي رجلين أو أكثر. وقد استُخدمت أشكال مختلفة من هذا النوع في روما القديمة والصين وإنجلترا والهند وباكستان وتركيا.

فقلتُ:

- إنها جميلة.

وغادرتُ المبنى على مضض.

لا أستطيع القول إن ذلك الشيء الجميل أو منشأه قد شغلا من تفكيري حيزاً أكبر بعد ذلك، إنما من المؤكد أنني أصبحتُ أكثر انهماكاً في عملي، وكان ينبغي عليّ أن أنتهي من مشاريع عدة بدأتُ العمل فيها، فضلاً عن الروتين اليومي المتمثل بالحضور إلى المحكمة كي أستمع إلى قضايا غدت مألوفة بصورة تبعث على الحزن، وأنقّب في أكوام الملفّات التي لا حصر لها في مكتبي، وحتى إنني توقفتُ عن المطالبة بإحضار الحليب والسكر على نحوٍ منفصل لأحتسي كوب الشاي، وعوَّدْتُ نفسي على تناول ذلك المشروب الكثيف والعَكِر الذي يقدمونه لي.

أصبحتُ متصالحاً جداً مع حالة اللامبالاة التي أعيشها، كانت أشبه بعدوى انتقلت إليّ من المحيطين بي، إلى حد أنني أحسست بانزعاج شديد عندما انتشلني حارس دار الضيافة منها في مساء أحد الأيام بينما كنت أجلس مسترخياً في الكرسيّ المائل إلى الوراء تحت المروحة التي تدور في حجرتي، منتظراً حلول الظلام ودعوته لي لتناول وجبة العشاء.

لكنه لم يفعل ذلك، بل باغتني بالقول:

- سيدي، ثمة شخص يريد أن يراك.

- من هو؟

خاطبتُه بسرعة وفظاظة، ثم أضفتُ:

- قل له أن يأتي إلى زيارتي غداً في مكتبي، فأنا لا أستقبل الزوار في هذا المكان.

- هذا صحيح يا سيدي.

أجاب الحارس معبراً عن صحة رأيي، وتابع:

- لكنه قدم من مكان ناءٍ، ويقول إنها قضية تحتاج إلى مناقشة على انفراد.

- أي قضية؟

قلتُ بسرعة وفظاظة مرة أخرى، لقد اكتسبت هذه الطريقة الاعتيادية في التخاطب مع من هم أدنى مرتبة، كالخدم ومقدمي العرائض والمتضرعين؛ ووجدتُ أن هذا الأمر كان متوقَّعاً مني، فهو يتماشى مع طبيعة هذه المهنة.

بطبيعة الحال، ليس بمقدور الحارس أن يعرف طبيعة القضية أو يخبرني بها، كان يقف هناك ينتظر ردَّ فعلٍ معيّناً مني، لذلك رميتُ بفظاظة الصحيفةَ التي كانت مفتوحةً على صفحة الكلمات المتقاطعة، والتي تظاهرتُ بالرغبة في حلها، ثم خرجتُ إلى الشرفة، حيث يقف الزائر هناك بانتظاري؛ كان رجلاً طاعناً في السنّ، مقوّسَ الجذع إلى حدٍّ ما، تظهرُ من تحت قبعته خصلات من الشعر الأبيض شبيهة بالريش، يضع على وجهه نظارات كبيرة ذات عدسات سميكة وإطارات ثقيلة مربوطة بخيط، ويرتدي سترة من القماش الأسود الباهت وسروالاً أبيض ضيّقاً؛ ربما كان هذا زيَّه الخاصَّ عندما كان كاتباً في دائرة حكومية قبل إحالته على التقاعد، إذ تبدو عليه هيئة الخنوع التي يتسم بها أولئك الموظفون.

لكن طريقة التعامل التي تبنيّتُها، والتي اتسمت بالتعالي النَّزِق، بدأ يظهر فيها أثرٌ من تنشئتي المنزلية، فقد كانت أمي تظهر بين الفينة والفينة، من وراء ظل أبي الذي يلوح من بعيد، لتراقبني بصورة طافحة بالأمل ومفعمة بالثقة. أومأتُ للزائر بأن يجلس، واستدعيتُ الحارس ليجلب لنا الماء.

عقد ذلك الشخص، الذي كان موظفاً حكومياً في ماضي الأيام، ذراعيه، وطلب مني ألا أُزعج نفسي:

- إنني متأسف جداً على إزعاجك.

قال بصوتٍ لا يعلو إلا قليلاً على طنين بعوضة، ولعله كان أقرب إلى صوت جدجدٍ صغير.

وجدتُ أن شعوري الاعتيادي بالانزعاج قد بدأ يعاودني، فقلتُ بحدة:

- ما الذي يمكن أن أقدمه لك؟

- سيدي، لقد جئتُ من عزبة موخرجي التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً عن هذا المكان.

أفصح الرجل المسكين، وكأنه شعر بالإحراج لأنه تلفَّظ بعبارة قد تشي بالتباهي.

- وعلامَ هذا التباهي؟

تساءلت في سرّي، وانتظرتُ.

- لقد خدمت الأسرة خمسين سنة.

تابع حديثه بنبرة أعلى قليلاً من الهمس، ثم ظلّ يلمس بتوتر لحيته الصغيرة البيضاء الشبيهة بلحية معزاة، كانت عبارة عن عثنون.

قلتُ له:

- لا أعرف ذلك المكان.

- سيدي، هذه أكبر عزبة في المقاطعة.

قال متوسلاً، وقد أدرك أنني لست مقتنعاً، وتابع:

- كانت الأسرة تمتلك حقول القنب والأرز وحتى الشاي والكينا في الشمال، وكذلك مناجم الفحم، وتعود إليهم ممتلكات كثيرة في المقاطعة، كانت هذه الممتلكات مؤجرة للآخرين، وواجبي أن أمسك حسابات هذه الممتلكات كلها. في تلكم الأيام كان لديّ مساعدون كثر، إذ ليس بوسعي أن أدير هذه الأمور بمفردي، لقد عمل أبي قبلي، كما استعانت تلك الأسرة بخدماتي وأنا لا أزال صبيّاً يافعاً، كانوا يثقون بأسرتي، وتركوا الأمور كلها في عهدتي.

أدركتُ أن هذه ستكون قصة طويلة إذا سمحت لزائري بأن يكشف عنها بهذا الإسهاب المطوّل، وربما نحتاج إلى العودة لأجيالٍ عدّة عفّى عليها الزمن، حيث تختفي شيئاً فشيئاً أشباح باهتة في ليل الماضي المعتم، فمتى سنصل إلى ضوء نهار الحاضر؟ تساءلت في سري، وأنا أنتفض لأعتدل في جلستي كي أتناول كأساً من الماء أحضرها لي الحارس، آملاً من خلال حركتي السريعة هذه أن أوحي بأن وقتي ثمين، وأنه بدأ ينفد.

لكن، كما البعوضة التي تتسلل إلى داخل ناموسيتك ويتعذّر عليك طردها، تابع ذلك القزم الخرافيّ الهرم تمتمته، وكانت الحكاية الموجودة في جعبته هي بالضبط ما كنتُ أخشاه؛ إذ هي عبارة عن واحدة من تلك الملاحم البطولية المعهودة لإحدى العائلات الثرية التي تدهورت حالتها رأساً على عقب، ولم تعد

تملك من الدنيا شروى نقير، حيث بدأت ممتلكاتُها تتبعثر مع تخاصم جيل من أبنائها وإصرارهم على إجراء تقسيمات غير موفّقة، وهو ما أدى إلى التبدّد التدريجي لثرواتهم عندما لم يتمكن الفلاحون الذين يستأجرون أراضيهم من تسديد الأجور، ولم تسفر المقاضاة الناجمة عن ذلك عن أي حل من الحلول، بل أطالت سكرات الموت الذي بات مصير هذه الأسرة العريقة. وحتى المنزلُ عينُه، الذي سكنته العائلة بينما كان عدد أفرادها آخذاً في التضاعف، راح يتداعى ويتصدّع رويداً رويداً، وبسبب ارتفاع تكاليف الترميم والصيانة صار دماره النهائي أمراً محتوماً.

إنها واحدة من القصص المألوفة عن إقطاعيي الزمن الغابر الذين تتداول أخبارَهمُ الرواياتُ. كان يمكنني أن أتلوَ العديدَ من هذه القصص على مسامع هذا العجوز المسكين صاحب الصوت الهامس، الذي بدا وكأنه يعتقد بأن قصته فريدة من نوعها، لكنني في لحظة ما، ربما غلبني النعاس برهة وجيزة، وبعدها أفقْتُ، بدأتُ أسمع ما يقوله، كان لكلمة «متحف» التي نطقها وقعٌ أشبه بالأثر الذي تخلّفه لسعة بعوضة بعد مدة طويلة من الطنطنة الرتيبة.

- أسست المتحف سريماتي ساريتا موخرجي التي تزوجت من سيدي سنة ألف وتسعمئة و... وهي في ربيعها الثالث عشر، بينما كان هو في الستين من عمره، كانت زوجة سري بوبين موخرجي الثانية، الذي ورث الثروة من أبيه ديبابراتا موخرجي سنة ألف وتسعمئة و... ولم يكن لديه أولاد من زيجته الأولى. تنتمي سريماتي ساريتا ديفي إلى عائلة سينها التي تقيم في

سيرامبور، كانت أسرتها موسرة، لذلك أحضرتْ معها مَهْراً هائلاً. ليس لأسرتها أملاك كبيرة، لكنها كانت تكنز الذهب والأحجار الكريمة، وعُرفت بحبها للفن والأدب، ونشأت سريماتي في محيط يضم رجالاً ونساءً على قدر رفيع من الثقافة والعلم، وحتى هي نفسها نالت قدراً من التعليم.

لم يكن من السهل عليها أن تتكيف مع الحياة في عزبتنا، التي لم تكن تبعد مسافة كبيرة عن منزل أسرتها وحسب، بل كانت أيضاً بعيدة عن أي عزبة أخرى في مقاطعتنا. ولأن سري بوبين موخرجي هو الابن الوحيد، لذلك ليس له أزواجُ أخواتٍ أو زوجاتُ إخوةٍ ممن يستطيعون أن يرافقوها ويقيموا معها علاقات طيبة، وكان من الطبيعي أن تعيش سنوات كثيرة موحشة لكونها السيدة الوحيدة في المنزل. وبعدما أصبحت في سن التاسعة عشرة أنجبت ابناً حمل اسم سري جيبان موخرجي، وقد منحنا هذا الابن سعادة قصوى لأنه الوريث الطبيعي، وكنا نأمل كثيراً أن يحافظ هذا الابن عندما يشتد عوده على العزبة، ويجعلها تزدهر من جديد، لكن من المحزن أن سري بوبين موخرجي لم يعش طويلاً، لذلك لم يتمكن من التباهي بوريثه سوى سنوات قلائل، قبل أن يرحل عن عالمنا. وهكذا أصبحت مهمتي واضحة جداً بالنسبة لي، وهي ضمان أن يكون الميراث الذي سيؤول إلى الغلام الصغير سخياً، وألّا يحتاج الفتى وأمُّه إلى أيِّ شيء على الإطلاق.

عند هذه النقطة اكتشفتُ أن ركبتي بدأتْ تهتز لا إرادياً، صعوداً ونزولاً، كنت متيقناً من أن سبب ذلك يعود إلى كوني بدأتُ أتلهّف لمعرفة هل أقامت متحفاً؟ هل يوجد متحف بالفعل؟

بعد ذلك، مرّت علينا سنوات عجاف متلاحقة لم تهطل خلالها الأمطار، وتلفت الغلال، وواجهت مناجم الفحم العائدة لنا كوارث متلاحقة، وهو ما اضطرنا إلى أن نهجرها، وطوال سنوات عدة لم تدر علينا العزبة عوائد مالية على الإطلاق؛ لم نجنِ منها سوى الخسائر، ولم تكن لدينا سيولة مالية ننفقها على أعمال الترميم والصيانة، وكنا مجبرين على أخذ قروض بفوائد للمحافظة على هذا المكان، فغرقنا بالديون.

- بعد ذلك تحسنّت ظروفنا، ولكن مهما بلغت عائداتنا المالية كان يتحتم علينا أن ننفقها لنسدد ديوننا. من المحزن أن نرى وجه سريماتي ساريتا ديفي وقد أنهكته الهموم والأعباء، ونشاهد الشيب يغزو شعرها قبل الأوان. كانت ترزح تحت وطأة قلق شديد، ليس بسبب الأمور المالية وحسب، بل أيضاً بسبب تنشئة ابنها سري جيبان وتعليمه، حيث اضطلعت وحدها بهاتين المسؤوليتين بعد رحيل أبيه.

عند هذه النقطة توقف الراوي، لقد بدا محطّماً بسبب الحزن الكامن في ثنايا القصة التي هو بصدد سردها، واكتشفتُ أنني أصبحت مستغرقاً في حكايته رغماً عني، لذلك تعين عليّ أن أدعه يكشف تفاصيلها وفقاً للوتيرة التي دأب عليها، والتي كانت بطيئة، لكنها مستمرة. وبما أنه لم يعد لدي كتب لأقرأها، فإنّه حتى قصة تافهة ومألوفة كهذه التي أستمع إليها الآن، كان فيها من الإثارة ما يكفي ليجعلني أُحْجِم عن طرد هذا الزائر الذي بدا أشبه بحشرة غير مرغوب فيها.

- يؤسفني أن أقول إنه تحتَّم عليها أن تبيع مصوغاتها الذهبية ومجوهراتها قطعةً إثر قطعة كي تسدد تكاليف تعليمه، طالما أن العزبة نفسها لم يكن بوسعها أن تغطي تلك النفقات، وقد بذلت ما بوسعها كي يتم إرساله إلى أفضل مدرسة في كلكتا، وهي مدرسة يديرها آباء يسوعيون، ومن ثم إلى الجامعة في إنجلترا، كما كان يتمنى والده. كانت لدينا آمال كبيرة بأنه حين يعود حاملاً شهادة في القانون سينطلق في مشروعه الناجح كمحام في المحاكم العليا بحيث يستطيع إعالة والدته بالشكل الذي يليق بمقامها.

انخفض صوت زائري إلى درجة أنه بدا أشبه بالغسق الذي غمر دار الضيافة وشرفتها والقفر المحيط بها، تاركاً كلينا وسط الظلمة، وطوال مدة من الزمن لم يعد بوسعي أن أسمعَ حديثه، وربما يعود ذلك إلى مجيء الحارس وبيده سلك موصل ملفوف خاص بالبعوض، حيث أضاءه ليطرد البعوض الذي بدأ بالاحتشاد، ومن ثم ذهب إلى الداخل ليشغِّل مضخة مبيد البعوض للغرض عينِه، وفي النهاية أشعل المصابيح الكهربائية، كما سعل مراراً بطريقة مصطنعة على نحوٍ فاضح، كي يلمِّح إلى أن وقت مغادرة الرجل الذي جاء لزيارتي قد حان، حتى يستطيع أن يقدّم لي طعام العشاء ويرتاح بعد ذلك. كنتُ أستطيع تفسير كل هذه الإشارات بعد إقامتي المطوّلة في دار الضيافة، لكن زائري تجاهله، ثم تابع سرد حكايته بعدما أطلق بضع تنهيدات مطوَّلة:

- لسوء الحظ، بعدما عاش سري جيبان سنوات طويلة خارج الهند لم يعد قادراً على التأقلم مع عزبتنا، أو حتى مع كلكتا،

كما لم يعد لديه ولعٌ بشؤون العزبة، وترك الأمور كلَّها على عاتق أمّه لتتولى الاهتمام بها كما في السابق. انتظرنا لنرى ما خططه المستقبلية، من الطبيعي أنه لا يوليني ثقته، لكنني في أحد الأيام رأيته يحزم حقائبه، وسمعته يطلب عربة طنجة[3] لتقله إلى أقرب محطة للسكك الحديد، بكتْ أمُّه عندما رأتْهُ يرحل، ولما حاولتُ أنْ أواسيَها بالقول إنه سَرعان ما يعود، ردت عليّ قائلة إنها لا تظنّ ذلك، لأنه يخطط للقيام برحلة بحرية طويلة إلى بلدان الشرق. ذُهلتُ عندما سمعت هذه المعلومة لأنني لم أكن أعلم كيف سيموِّل رحلة بحرية تنطوي على هذا القدْر من الطموح، كما لم أكن أعلم الهدف منها. بعد ذلك علمتُ أن أمه باعت آخر قطعة من مجوهراتها كي تموِّل رغبته في السفر.

رحتُ أتساءل في سري عن السبب الذي جعل هذا الزائر يطلعني على أسرار الأسرة التي عمل لديها، كان بوسعي أن أنهض وأقف على قدميّ كي أوضح له أن الوقت الذي خصصتُه له انتهى، لكنّ شيئاً ما في ملامحه التي تنمُّ عن إحساس عميق بالانسحاق هو الذي منعني من القيام بذلك، حيث كانت يداه معقودتين معاً كمن يشكو ألماً قاتلاً، في حين إن رأسه الهرم والأشيب يرتعش فوق عنقه الضعيف، وبصراحة كنتُ أيضاً أودّ معرفة كيف ستتطور أحداث هذه القصة.

وما أثار دهشتي هو أنه عندما رفع رأسه، بحيث تمكنتُ من رؤية ملامحه بوضوح أكثر بفعل الضوء المسلّط علينا من الحجرات المضاءة في الداخل، وجدتُ أنه كان هادئاً جداً وسعيداً إلى حدٍّ ما.

---

(3) الطنجة: عربة بعجلتين يجرها حصان.

- وبعد ذلك بدأت الصناديق بالوصول، فقد جاءت من بورما وتايلند وإندونيسيا والمالايو وكمبوديا والفلبين، ومن الصين واليابان أيضاً؛ وكانت تحتوي في داخلها على أشياء لا وجود لها في مناطقنا! وصار الناس يُقبلون من قراهم التي تبعد عنا أميالاً عدة إلى بوابات منزلنا ليشاهدوا العربات التي تجرها الثيران، حيث إنهم رأوها وهي تنقل هذه الصناديق إلى بابنا، وقد دارت أحاديث كثيرة فيما بينهم عما يحتمل أن تحتويه في داخلها.

هنا أطلق الرجل ضحكة في الحقيقة، وكان في حنجرته حشرجة جافة كتلك التي يبعثها طائر أو حشرة عندما يكونان بين الأشجار، يمكن أن نطلق عليها نوعاً من القوقأة.

- الناس هنا بسطاء، ولا يعرفون شيئاً عن العالم والبلدان التي زارها سيدنا الشاب، لكنهم عندما شاهدوا حجم الصناديق، خُيّل لهم أنه يعمل في التجارة، وأنه جمع ثروة طائلة إلى درجة أنه بات بمقدوره أن يبعث إلى أمه كنوزاً على شكل أقمشة حرير وجواهر وبضائع نفيسة أخرى.

هنا أخذ يهز رأسه حيال حماقة قومه وسذاجتهم:

- كانوا يظنون أن السيد الشاب سيعود إلينا رجلاً واسع الثراء، ويعيد مجد عزبتنا.

وانتهت ضحكته هنا بفواق طفيف:

- فتحنا الصناديق حالما وصلت إلينا، وذُهلنا لما وجدناه في داخلها! لم يبعث إلينا إلا برسائل قليلة، ولذلك لم يكن أمامنا سوى إطلاق التخمينات حول الأماكن التي زارها أو وجد فيها أو ابتاع منها هذه البضائع الموجودة أمامنا.

- وماذا بعد؟

- امتلأت غرف المنزل، الواحدة بعد الأخرى، بهذه الأشياء. استدعينا نجارين ليصنعوا لنا خزائن زجاج، وينصبوا رفوفاً نعرض فيها تلك الحاجيات، وقد شغلتْ محتوياتُ كلِّ صندوقِ غرفةً منفصلةً، بعدما ظلّتْ تلك الغرف خاوية لأمد طويل جداً، فقد كنا نبيع قطع الأثاث والمقتنيات الأخرى منذ أن بدأت تواجهنا ظروفٌ معيشية صعبة، وها هي تمتلئ من جديد. كان الزوار يأتون إلى ذلك المنزل فتصيبهم الدهشة مما يرون، حتى إن المرء لَيتمنى لو أنه يقوم بوضع فهرس وينشره بهدف التعريف بتلك المجموعة من المقتنيات. لم يكن بمقدور سريماتي ساريتا ديفي أن تتحدث بأي شيء إلى الزوار عن تلك المقتنيات، أو عن المكان الذي أحضرها منه ابنها، مع أنها مَنحتها عزاء كبيراً لكونها مكّنتها من مرافقته في أسفاره، أما أنا فكنتُ الوحيدَ الذي تملّكه القلق؛ إذ لم أفهم مقدار فائدة هذه الحاجيات، ومع أنها جميلة ومبهرةً واستثنائية، لكن ما الفائدة من جمعها؟ لم أفهم جدوى ذلك، أما سريماتي ساريتا ديفي فقد فهمت الغاية من وراء جمعها وحفظها، وقد أخبرتني بذلك قائلة:

- اسمع يا بيجان، إننا نقيم متحفاً كبيراً، إن مقتنيات ابني تشكّل متحفاً سيسمع به القاصي والداني في بلدنا، وسيأتون من أبعد القرى والمدن ليشاهدوا محتوياته.

آه، إذن كان هناك متحف! وقد ابتهجتُ عندما سمعتُ أن هذا الأمر ليس مجرد شائعة أو حكاية شعبية، بل كان شيئاً موجوداً

على أرض الواقع، حتى إنني سألته عما إذا كان بمقدوري المجيء لزيارة المتحف.

وعندما سمع مني هذا السؤال، أغمض عينيه في بادئ الأمر، كما لو أنه يعاني من الضجر والسأم، لكنه فتحهما بعد ذلك على مصراعيهما لتنبعث منهما نظرة متألقة، ثم هتف قائلاً:

- سيدي، هذه أعز أمنياتي! تعال، أرجوك تعال زرنا، وأرشدْني ماذا أفعل! لقد بلغتُ من العمر عتياً، كما ترى، ولا أدري ماذا سيكون مصير المتحف عندما أغادر هذا العالم، فقد بدأ بعض الأشخاص من الزائرين، وربما من بعض العاملين لدينا ممن عرفوا أنه ليس هناك حراس ولا رجال أمن، بسرقة بعض المقتنيات الصغيرة، وقد رأيتُ بأمّ عيني تلك الحاجيات في الأسواق المحلية، هنا وهناك، ولكي أحافظ على تلك الحاجيات وأحميها من السلب والنهب ليس أمامي إلا طريقة واحدة، وهي أن أقدّم طلباً إلى الحكومة أو الحاكم المطلق كي يتولوا أمر المتحف ويقوموا بصيانته، وإذا أتيت بنفسك ورأيته فستدرك مدى حاجتنا إلى توفير الأمن والدعم المادي والمعنوي، فمن دون هذه الأشياء..

هنا توقَّفَ عن الكلام، كما لو أن البديل لا مجال للتفكير فيه، ومسح وجهه بقطعة قماش استلَّها من جيبه.

- لكن، هل فعلاً ليس هناك بديل آخر؟ ألم يعد الابن الضال إلى ممتلكات أجداده؟ وماذا بشأن أمه سريماتي ساريتا ديفي؟ ما أمنياتها فيما يتعلق بهذه المسألة؟

حاولتُ أن أستكشف الأمر بطريقة لائقة.

اعترف الرجل الحزين قائلاً:

- سيدي، لقد رحلتْ عنّا من دون أن تعطينا أي تعليمات.

بدا لي الأمر غامضاً وملتبساً؛ هل توفيت، ورحلت عنا إلى العالم الآخر، كما يقولون في أعمدة الصحف اليومية الخاصة بالوفيات؟ أم أنها انتقلت للعيش خارج ذلك المبنى الضخم، الذي تم تحويله إلى متحف، وتركته تحت تصرفه؟ من الغريب أنه غير راغبٍ في الإفصاح عن هذا الأمر. وصل إلى نهاية حكايته، ولم يكن في جعبته، كما بدا لي، أكثر من ذلك، فكل ما بقي في نهاية المطاف هو «مجموعة المقتنيات».

أصاب حماستي توقُّفٌ مفاجئٌ، كما لو أنها اصطدمت بحاجز أدى إلى تراجع وتيرتها، وبدأتُ أرى بجلاء تامّ مأزق المسائل القانونية الذي ينتظرني، وهي لم تكن كما تخيّلتُها على الإطلاق، مع أنه ينبغي عليّ أن أفعل ذلك. شعرتُ بالخذلان عندما أدركت أن الأمور كلها ترجع إلى النواحي العملية القانونية منها والإدارية؛ كما لو أنه ينقصني المزيد منها، فبينما الآخرون يحلمون أحلامهم ويعيشون حياة الخيال والمغامرات، كان دوري يقتصر على أن أتولى الاهتمام بالفوضى التي يخلفونها وراءهم.

وسرعان ما بدأ فضولي حيال المتحف ورغبتي في رؤيته بالتبخر، ولكن في حال منحوني استراحة من العمل الروتيني اليومي في المكتب وقاعة المحكمة في هذه البقعة النائية التي تصيبني بضيق في الصدر نظراً لصغر حجمها، فلمَ لا أقبل دعوته لزيارة المتحف؟ أخبرتُه أنني سأطلب من سائقي أن يقلّني إلى هناك، ثم سألتُه عن الاتجاهات، وحدَّدْتُ تاريخاً

مناسباً للقيام بتلك الزيارة، وبلغ امتنانُه حدّاً أنه انحنى أمامي فعلاً، وفي ذلك إظهارٌ للخنوع الذي يفوق قدرتي على التحمل. استدرتُ على عقبيّ، ودخلتُ لتناول عشائي، تاركاً إياه ليشق طريقه بنفسه إلى الخارج.

يُفترض عليّ أن أكون أكثر حكمة بدلاً من أن أتوقع العثور على منتجع عجيب ذي جمال وترف واطمئنان لا يحدّه حد، وبينما كانت سيارتي الجيب تتخبط صعوداً ونزولاً ثم تثب فجأة، وهي تشق مسارها على امتداد الضفة الطينية التي تُستخدم كطريق يمتد بين حقول مستوية من الجذامة[4]، ما أضفى على هذا المكان رتابة لم يكن يكسرها سوى مصادفة شجرة جوز هند أو بستان موز إلى جانب بركة راكدة بين الحين والآخر، كانت آمالي تتضاءل وتصبح أكثر واقعية. الجزء الأخير من الطريق انتهى عند قوس بوابة كان بلا شك مهيباً يوماً ما، لكنه يتألف الآن من عمودين من الآجرّ نبتتْ بين شقوقهما أشجار طفيلية، ولم يبقَ سوى مفاصل صدئة لتكشف الموضع الذي كانت تُعلَّق فيه البوابات المصنوعة من الحديد المطاوع.

كان يمتد أمامنا على الأرجح الطريق الذي كان في السابق يصل المبنى بالطريق العام، لكنه أصبح الآن حقلاً معشوشباً ترعى فيه بقرات ضامرات أشبه بالهياكل العظمية، يراقبها راعٍ يحمل بيده عصا. كان الراعي يقف ويسند إحدى قدميه على ركبة الساق الأخرى كطائر نُحام[5] لوَّحتْه أشعة الشمس الساطعة، لاحتْ على سيماء وجهه مسحةٌ من الدهشة عندما

(4) الجذامة: ما يبقى من الزرع بعد الحصاد.
(5) النُّحام: طائر مائي طويل العنق والرجلين.

رأى عربة ذات محرك تشق طريقها عبر الحشائش النامية، لكنه باستثناء ذلك لم يُبد أي ردّة فعل تجاه اقتحامنا ذلك المكان. ولم تفعل الأبقار شيئاً سوى أنها حرَّكتْ ذيولها ونفضتْ آذانها لحظة مرورنا، فجفلت طيور بلشون الماشية التي كانت رابضة على خواصرها، وشَرَعتْ أجنحتها تخفق بتكاسل.

وبعدما اجتزنا الحقل من بدايته حتى نهايته، وصلنا إلى ما كان حتماً «القصر»، وهو الذي قطعتُ هذه المسافةَ كلَّها لأراه. ماذا كنت أتوقع أن أرى؟ هناك مجموعة واسعة من السلالم تنبت الحشائش بين أحجارها اللوحية، وتكمن وراءها الآثار الحزينة لما قيل لي إنه كان في يوم من الأيام المنزل الأضخم في المقاطعة. وللوهلة الأولى لم أتمكن من اكتشاف أية ملامح معمارية في تلك البقايا المسودَّة والمتداعية.. لم يكن هناك سوى آثار الزمن والتحلُّل.

وهنا جاء الشخص الذي تعرّفت إليه سابقاً، الموظف الحكومي (الوكيل)، الذي راح يهبط درجات السلم غير النظامية بسرعة وتهور، بينما كان يثبِّت قبعته على رأسه، ويحكم إغلاق أزرار سترة القماش الطويلة السوداء التي يرتديها، وكأن هذا يمنحه هويته ومنزلته الاجتماعية، ومع ذلك كان أسلوبه في استقبالي مهذباً ولطيفاً بصورة لا يمكننا إلا أن نطلق عليها «مثقفة» أو حتى «أرستقراطية»، وشعرتُ بوخزة خجل عندما تذكرتُ الطريقة الفظَّة التي صرفتُه بها، وعندما شرع في كلامه المعسول الذي عبَّر فيه عن امتنانه لقدومي وسروره برؤيتي، وأن ذلك يشرِّفه مثلما يشرِّف المنزل الذي يقوم بخدمته، لم أستطع منع نفسي

من مقاطعته ومعاملته بفظاظةٍ من جديد، واقترحتُ أن نبدأ القيام بجولتنا.

لكنه أصرَّ على أن آخذ قسطاً من الراحة وأتناول بعض المرطبات. كان على الشرفة الواسعة، التي تمتد حول الحجرات كما لو أنها حضن يلفها، مائدة ذات سماط من قماش مطرَّز وصينيةُ فضّةٍ فقدتْ بريقَها، عليها إبريق مغطى بقطعة مربَّعة من شبكة ذات حوافَّ من الخرز، وبعض الكؤوس المعدنية الطويلة. ظهر غلام خادم من مكان ما، ربما من منجم فحم، هذا ما دار في ذهني، ليسقينا عصيراً ملوّناً لم يكن بوسعي أن أرفضه.

- أحضر المفاتيح.

أمره مضيفي الموظف الحكومي، متقمِّصاً شخصية من يحق له أن يصدر الأوامر، وانتصب باستقامة وثبات أمام عينيّ، ما يزال ضئيل البدن بالطبع، لكن قامته منتصبة وفمه مرسوم بشكلٍ ينم عن الحزم، وعيناه حادتان ويقظتان، في حين كانت حركاته تنضح بشيءٍ من الغطرسة. وفكرت في سرّي:

- هو ذا شخص أكثر قدرة مني على إصدار الأوامر.

راقبتُه وراقبتُ الطريقة التي أخذ فيها حلقة المفاتيح من الغلام الخادم كما لو أنها مفاتيح قلعة؛ قلعته هو. بعد ذلك، ويا لَدهشتي، حملها بيد واحدة خلف ظهره، وباليد الأخرى أومأ لي أن أمرَّ قبله عبر باب مفتوح، فهل كانت تلك المفاتيح مجرد جزءٍ من تمثيلية حزّورات[6]؟

(6) تمثيلية الحزورات: لعبة قوامها مشهد تمثيلي يصور مقاطع كلمة معينة يطلب إلى المشترك في اللعبة أن يحزرها - م.

دخلنا إلى ردهة هذا المبنى، الذي كان في الماضي قصراً، من بين تمثالين من الرخام أو من السيراميك المصقول جداً يمثلان عبدين يحملان مصابيح مكسوّة بالغبار والفراشات الميتة؛ وكانت عيون التمثالين، التي جحظت بصورة بشعة وغريبة من رأسيهما، مصمَّمة من العقيق اليماني.

أما الحجرة نفسها فكانت خاوية إلا من منضدة صغيرة، سطحها من المرمر، تقف على سيقان مزخرفة نُحتت بهيئة تنّين، وإلى الأسفل منها شيء يشبه مبولة من الخزف الصيني توضع عادة في غرفة النوم «هل يجوز ذلك؟» ربما خُيّل لي، أو لعلي أسأتُ الفهم، وما إلى ذلك، وعلى الجدران حائلة اللون والمرقشة عُلقت بورتريهات بحبال طويلة ومسامير ضخمة، مائلة إلى الأمام، وكأنها تحدّق إلينا، كانت صوراً فوتوغرافية في الأصل، لكنها لُوِّنت بصورة خفيفة لكي تبدو شبيهة بالرسوم، وهي تقنية غريبة يُفرض فيها فنّ على فنّ آخر، حيث جعلت سطوح البورتريهات غامضة بصورة غريبة، كان أحدها لرجل ضئيل البدن يرتدي عباءة واسعة يقف أمام نمرٍ ميت يفتح فمه مزمجراً، وهناك بورتريه آخر لرجل ضخم الجسم ذي شوارب خشنة وغليظة أشبه بشوارب النمر، يجلس على كرسي مطلي بالذهب، وهناك أيضاً بورتريه، ربما للرجل نفسه، وهو يقف على فيل قتله توّاً، يحمل بيده بندقية، وثمة طابور من الخدم أو لعلهم مثيرو الطرائد من مكامنها لا يكادون يلبسون شيئاً، يطوقونه من الجهتين.

وهناك أيضاً بورتريه لامرأة، بالكاد تجاوزت عتبة الطفولة، رشيقة، ووجنتاها مطليتان باللون الوردي، وتطوّق عنقها قلائد

مجدولة من اللآلئ، تتدلى منها جوهرة كبيرة خضراء اللون. كانت المرأة تلبس بلوزة قديمة الطراز، ذات كُمَّيْنِ طويلين منفوخين، ينتهيان بالدانتيلا عند الرسغين، وساريّ يتهدل بطيات مُشكَّلة فنّياً من كتفيها حتى قدميها المحشورتين في خُفَّين؛ أما حافته الفضّية فكانت مثنية فوق رأسها، حيث كان شعرها مفروقاً إلى جزأين ينسدلان فوق عينيها المتباعدتين، كان هذا هو البورتريه الأنثوي الوحيد، وحين مررنا به سمعتُ الموظف الحكومي يهمس قائلاً:

- هي ذي سريماتي ساريتا ديفي.

أو ربما خُيِّل لي ذلك، حيث تمنيتُ أن يكون ذلك البورتريه لها، تلك العروس الصغيرة، وبما أنه لم يقل «سريماتي الراحلة»، فإني كنتُ لا أزال أجهل ما إذا كانت حية تقيم في مكان ما في أعماق هذا القصر الآخذ في التلاشي، وما إذا كان سيأخذني لألتقي بها، أم أنها باتت الراحلة سريماتي ساريتا، فقد التزم مرافقي الصمت فيما يتعلق بهذه المسألة.

بعد ذلك أخذني لأرى الحجرة المتاخمة، حيث كانت تُحنَّط الحيوانات التي تذبحها الأسرة لتبدو شبيهة بالحيوانات الحيّة، أو أنهم كانوا يسلخون جلودها ويفرشونها على الجدران تحت غابة من قرون الوعول والرؤوس المثبَّتة في حواضن، والتي تعود لأيائل ذات عيون زجاجية. حاولتُ أن أتحاشى النظر إليها، لم يكن يروقني الإحساس بكوني مُراقَباً، هكذا فكرتُ.

- كان رجال هذه العائلة صيادين مهرة.

قال مرشدي، كما لو أن تفسيره كان ضرورياً، وليس بوسعي أن أكتشف الاعتذار ولا الزهو في نبرة صوته لأنه حافظ على نبرته

الخفيضة، كما لو أننا داخل ضريح. واعتبرتُ أن ذلك لمجرد إضفاء مسحة من الوقار، لذلك حاولتُ بدوري أن أبدو وقوراً، لكن محاولتي باءت بالفشل حتماً؛ فقد كان والدي صياداً أيضاً خلال سنوات حياته، ولم أكن أؤثر النظر إلى غنائمه، أو أن أسمع بمآثره التي بدت جديرة بالفخر، مع أنها كانت تجعل والدتي تنكمش خوفاً. ربما بدوتُ مشدوهاً وأنا أنظر إلى الجلود ذات النتوءات المدوَّرة والمليئة بالحراشف، والتي تعود إما لتماسيح وإما لثعابين كبيرة جداً، فقد كانت مرقَّشة وتشبه الفراشات، وفي حين كان بعضها أقرب إلى كُسارة الحجارة، فإن بعضها الآخر أشبه بشبكة حائلة اللون. التفتُّ إلى الموظف الحكومي، الذي يشبّك يديه وراء ظهره، ويرفع رأسه للنظر إلى هذه النماذج التي هو معنيٌّ بحراستها والمحافظة عليها، وأوضحتُ له أنني أود أن أسرع، لكن قبل مغادرة حجرة الموت هذه، كان لا بد لي من المرور بشيء كبير أشبه بالقِدْر، على مقربة من الباب، ومن خلال ثنياته وتجاعيده والأظفار المسطَّحة كبيرة الحجم، أدركتُ أنها قدم فيل، وفي حال عجزتُ عن فهم الغرض من هذا البتر لقدم الفيل، فإن المظلات التي غُرستْ فيها، والتي كانت أغطيتها القماشية مهترئة ودعاماتها القصديرية مكشوفة، كافية لكي أفهم ذلك.

كانت الحجرة التالية، لسوء الحظ، مخصصة للطيور المحنَّطة، التي بدورها لم تستطع أن تحسِّن مزاجي، وإن كان من شيءٍ يمكن قوله في هذا الصدد، فإن العيون الزجاجية التي حُشرت في المحاجر الرمادية تنطوي على مزيد من الاتهام،

وكنت متأكداً من أن كائناتٍ طفيليةً كانت تدب في ريشها القزحيّ الباهت.

أما العناكب فهي الكائنات الحية الوحيدة التي كانت واضحة للعيان في تلك الحجرات، وكانت تنسج شباكها كي تصنع حُجُباً تُبعدها عن الطيور والوزغات التي قد تتغذى عليها. رأيت سحلية ملتصقة بالجدار وعديمة الحركة، وكان نبضها يخفق تحت جلدها شبه الشفاف، الأمر الذي يكشف أنها تنتظر مغادرتنا وحلول الليل، كي تبدأ حياتها مجدداً. وفي أحد المداخل، هناك وزغة عالقة بسبب إغلاق الباب عليها، فانبسط هيكلها العظمي على كلس الحائط مثل شبكة حاكتها إحدى العناكب، كي يبقى هناك إلى أن يتقشر.

سألته:

- هل هذه هي مقتنيات السيد الشاب؟

وإذا كان ثمة تهكم وسخرية في نبرة صوتي، فإن ذلك كان متعمَّداً.

ولكي يثبت دليلي أنه مطلّع على الأمر، ردّ علي بعجالة:

- لا، لا، لا، لا، فهذه المقتنيات خلّفها له أجداده، سنذهب الآن إلى مقتنياته هو.

وكم غمرتني راحة كبيرة حينما خرجنا إلى رواق خالٍ تماماً من تذكارات الصيد، ينفتح أحد جانبيه على فناء، حيث ينتصب تمثال إلهةٍ من المرمر في حوض نافورة خاليةٍ من الماء؛ كان الحوض ضحلاً، وأطراف التمثال مكسورة عند المفاصل، والطحالب زحفت على القدمين اللتين تنتعلان خفَّين، وتجاوزتهما لتصل إلى حاشية الرداء. هذا الامتداد من المرمر يؤدي بصورة جلية إلى الجناح الذي

يضم المواد التي أرسلها السيد المتخفي ضمن حاويات إلى العزبة، والتي خلقت قدراً كبيراً من الإثارة في المقاطعة، كما أوجدت إرثاً للوارثين، إذا كان ثمة وارثون.

وهنا، أظهر مرشدي حلقة المفاتيح من وراء ظهره، لأننا وصلنا إلى باب مغلق، واختار من الحلقة مفتاحاً طويلاً جداً، وأدخله في القفل، ثم أداره بإحساس درامي كبير، وعندما دخل تبعتُه بشيء من الذعر ونفاد الصبر؛ فكم بقي من تذكارات الصيد والطرائد المقتولة التي لم أرها حتى الآن، والتي كان مرشدي يحرص على أن يريَني إياها؟ كانت حرارة النهار تشتد في تلك الحجرات المغلقة والمحتبسة الهواء، ومع أن الوقت كان ظهراً لكن ليس هناك إلا ضوء شحيح جداً.

أما الذي أذهلني فهو أنه إلى جانب ذلك الضوء كانت هناك أشعة تصدر عن تلك المجموعة من المقتنيات، فهي مكسوّة ومفروشة ومزدانة بسجاجيد ذات ألوان بهية تدل على النبل -لون الخوخ والنبيذ والتوت والرمان- وقد حيكت في تصاميم معقَّدة. ترددتُ في المشي على واحدة من تلك السجاجيد، فهي بالتأكيد نفيسة، ويبدو أنها منذ دهور لم تمسسها يد، ناهيك عن أن تكون قد وطِئَتها قدم إنسان. ربما اتكأ أمير هندي على واحدة منها مع زوجته، بينما هما ينصتان إلى موسيقى منبعثة من السيتار[7] والسارود[8] والطبلة والطنبورة. كان بوسعي

(7) السيتار: آلة موسيقية هندية شبيهة بالعود، تمتاز بصوتها العذب، وتكثر في ألحانها النغمات التوافقية.

(8) السارود: آلة موسيقية تشبه العود، تمتاز بأنغامها الاستبطانية والعميقة، ولها أوتار عاطفية مما يجعل الأصوات المنبعثة منها رنانة، ومرجعة للصدى. وتُعد من أكثر الآلات الموسيقية شيوعا في الموسيقى الهندوستانية الكلاسيكية - م.

أن أتخيّل هؤلاء الملوك والباشوات غير المرئيين وهم يحملون الأقداح في أيديهم المزينة بالخواتم، أو بالأحرى، يمسكون بفم نرجيلة فضّي مُزين بالنقوش. لا بد أن الأشخاص الذين عاشوا في مكان كهذا كانوا من النبلاء والمُترفين، ولا يمتون بصلة إلى هذه الأرض الفقيرة المستنزفة لجهود العاملين عليها، والتي تحيط بنا من كل الأرجاء.

لم أتمكن من رؤية ما تخفيه تلك الألوان الملكية، إلا عندما خفضتُ بصري لأتفحص تلك السجاجيد عن كثب؛ بقع باهتة اللون ورثّة، حتى إن بعضها كان قد رُتق وأُصلح بصورة غير متقنة.

لاحظ مُرشدي ردود فعلي التي ارتسمت على محياي، إنني متيقن من أن التعابير البادية على وجهي فضحتني، وبدا مسروراً بذلك، حيث بسطت ابتسامةٌ طفيفةٌ زوايا شفتيه المزمومتين، لكنه قادني إلى الحجرة التالية قبل أن أنحني لأتفحص عن كثب هذه الكنوز الفارسية والتركية والأفغانية والمغربية والكشميرية.

كانت هذه الحجرة مجزية أكثر، حيث عُلّقت على جدرانها منمنماتٌ من تركيا وبلاد فارس والهند المغولية وراجستان وكنغرا. لم أكن خبيراً بما يكفي كي أحدد هويتها، وقد أحتاج إلى أيام عدة، وحتى إلى عمر كامل، كي أتفحص كل منمنمة على حدة، وكي أدرس مفاتيح الألغاز التي تنطوي عليها الحافات المطلية بالذهب. كان فيها صور تزيينية أشبه بالجواهر تمثّل حياة النباتات والطيور، إلى جانب تماثيل متناهية الصغر تعتلي صهوات أحصنة رشيقة تطارد الأُسود والغزلان، أو تركع أمام

أولياء ملتحين في كهوف جبلية. لمحتُ غرنوقين يؤديان رقصة الزواج على رابية معشوشبة قبل أن نتخطاهما إلى عذراء شابة تحاور ببغاءها المدلل المحبوس داخل قفص، وثمة عذراء أخرى تكتب رسالة إلى عشيقها البعيد، وهكذا حتى وصلنا إلى شاب ماكر يسترق النظر من وراء شجرة إلى مجموعة من الفتيات اللاتي يستحممن في أحد الأنهار بملابسهن الشفافة. كما يوجد في هذه الحجرة فيَلة ذوات هوادج مذهّبة، تحمل على ظهورها نبلاء، وتشقُّ طريقها عبر تلال جرداء متجهة صوب القمم، حيث الحصون المزودة بشرفات مفرَّجة، والآن ظهرت سحب زرقاء تنبئ بحدوث عاصفة، تسوق أمامها طيور البلشون الأبيض؛ وثمة فتاة تؤدي رقصتها في فناء محاط بالجدران؛ وأمير يتخذ وضعاً مُعيّناً، يحمل بيده وردة قرنفل، وأمير آخر يعرض متباهياً صقراً يقف على رسغ يده، وهناك كلاب صيد تتقاطر بأعداد كبيرة وراء الأيائل في إحدى الغابات، وثمة صياد يتبعها وفي يده قوس وسهم، سفينةٌ تنطلق في رحلتها، سماءٌ تبرق، سطورٌ من مخطوطة مشغولة بعناية ومتجعدة الأطراف تسمّي أسماءها، وتروي حكاياتها.

لم أتمكن من قراءة تلك السطور، والسبب يعود في جزءٍ منه إلى كون الأبجديات المستخدَمة في كتابتها غير مألوفة، كما يعود إلى أن الزجاج الذي يفصل هذه العوالم المدهشة عن عين المُشاهد كان مكسوّاً بطبقة من الغبار. لم تمسَّ تلك العوالم يدٌ منذ أن وُضعت في الأُطر وعُلّقت على الجدران، كما لم يأتِ زائرون ليبدوا إعجابهم بها، كان هناك فقط ذلك الوكيل العجوز

الـذي بدا مزهوّاً أكثر من كونـه ذكياً، ولم يكن بمقدوري أن أقول شيئاً باستثناء:

- آه.. آآآه..

لو لم أرَ سوى هاتين الغرفتين، لكنتُ شعرتُ بالرضا، وأيقنتُ قيمة هذه المقتنيات، لكننا لم نتوقف هنا. كان الوكيل وهو ينحني قليلاً يأخذني عبر الباب إلى حجرة أخرى مليئة بالمراوح اليدوية وأثواب الكيمونو، ومع أن النساء اللاتي كنَّ يستخدمن هذه الأشياء لم يعدن موجودات، فإنها لا تزال قادرة، بطريقة أو بأخرى، على ممارسة الغواية والغزل. كان من السهل أن يتخيل المرء الأصابع الجميلة مستدقة الأطراف التي تطوِّق هذه المراوح المصنوعة من العاج المزخرف والحرير المطوي الذي رُسمت عليه مناظر طبيعية مؤلفة من حدائق واحتفالات، أو الأجساد الرشيقة التي ترتدي تلك الأثواب الحريرية الوافرة والمتقنة ذات الأكمام الممتدة والحواشي المتدلية على الأرض التي اصطبغت بلون النيلة والزنجار والبرونز واليشب والجمشت واللازورد. لقد بدت وكأنها تتوسل كي تُفتح لها الصناديق الزجاجية لتتمكن من الخروج من تلك المشاهد المجمّدة وممارسة أدوار الملكات والمحظيات، وهي الأدوار التي وُلدت من أجلها.

لكن إخراجها من تلك الصناديق بهذا الشكل ربما كان سيكشف أنها مجرد أشباح، إذ إن نفحة هواء لا غير كفيلة بتحويلها إلى غبار، فلا الأكمام تحتوي على أذرع، ولا الحواشي يوجد في نهايتها أخفاف[9] أو أقدام، أما المراوح فلا تحرِّك الهواء

(9) أخفاف: جمع خف (أي ما يشبه النعل).

قيد أنملة، وخطر في بالي أن ذلك الشيء الشبيه بالألعوبة، الذي لفت انتباهي في منزل صديقي صاحب عزبة الشاي، ربما كان ذات يوم موجوداً بين هذه الأشياء كوسيلة تسلية لها، قبل أن يتم اختطافه من قبل أحد الزوار البارعين في النشل، ولهذا السبب لم يكن لديهم وسيلة نقل، ولا حتى محفّة صغيرة الحجم.

ألفيتُ نفسي وقد تملّكتني كآبة شاعرية، وتمنيتُ أن أمكث وقتاً أطول، متخيّلاً نفسي شخصاً يتمتع بامتيازات يقوم بزيارة عالم من الزمن الغابر، لكن الوكيل سعل سعالاً تحذيرياً ليذكّرني بحضوره وبالغرض من وجودنا في هذا المكان؛ التفتُّ فرأيته يفتح باباً آخر يفضي إلى غرفة أخرى.

وهكذا تبعتُه، ودخلت غرفة تعجُّ بأقنعة من الخشب والقش والجلد والفخار، أقنعة مصبوغة ومزينة بالعظام والأصداف والحلقات والخيوط والفراء، أقنعة كانت تتوعد أو تهزأ أو تبث الرعب، وبعد ذلك دخلت غرفة تمتلئ بالمنسوجات؛ منسوجات محيكة ومصبوغة ومبيَّضة ومزيَّنة بالتصاميم، إلى جانب منسوجات أخرى مصنوعة من الشاش والموصلين والحرير والقماش المقصَّب، لأنتقل بعد ذلك إلى غرفة تمتلئ بالأحذية، بعضها غريب الأطوار وبعضها مضحك وبعضها الآخر مسرف في الأناقة، وأعقبتها غرفة أغطية الرأس، حيث القبعات والقلنسوات المصنوعة من المخمل والقش والقماش الشبكي واللباد. أي نوع من المسافرين هذا الذي كان يشتهي ويقتني حاجيات تخص بلدان الشعوب الأخرى وحياتها؟ ولماذا فعل ذلك؟ وكيف وصلت كل هذه الأشياء إلى هنا لتتشكل منها هذه المجموعة الأسطورية؟

لم يكن مرشدي، وهو يرسم على ثغره ابتسامة مبهمة، ليعطيني أي مفتاح لحل هذه الألغاز، وراح يريني صناديق تعج بأسلحة الحرب؛ سيوف مقوّسة وخناجر غليظة نُقشت على مقابضها أشكال زخرفية أخفت نواياها الإجرامية. بعد ذلك شرع يتطلع إليّ ليرى ردة فعلي على معروضات الخزف الصيني والسيراميك، وهي عبارة عن أوانٍ هشَّة رُسمت على بعضها جسورٌ مقنطرة وبساتين صفصاف وجبال وشلالات، وعلى بعضها الآخر أشكال تجريدية في غاية التعقيد بألوان جريئة وبراقة.

شعرتُ بالتخمة، وودتُ أن أحتج، إذ لم أعد قادراً على مشاهدة المزيد من هذه العجائب والمعجزات، لكنني اكتشفتُ نوعاً من القسوة لدى مرشدي الذي كان يفتح باباً إثر آخر، ويأخذني المرة تلو المرة إلى أبعد ما أود الذهاب إليه. كنت أظنه كبير السن وضعيف الصحة، لكنّ زهوه وإصراره على أن يترك لديَّ انطباعاً جيداً منحاه قوة وقدرة على التحمل لم يُخيّل لي أنهما موجودتان، وكنت أنا من أصابه الإعياء، فقد أنهكتني حرارة الجو، وتوقفتُ مراراً لأمسح العرق الذي تصبب من مسامات وجهي، وحتى إنني تعثرت، لكنني على الرغم من ذلك لم أشأ أن أعترف بهزيمتي، وأن أترك ما بدأت به من دون أن أكمله.

بين الفينة والأخرى كنا نمر بغرفةٍ أودُّ لو أمكث فيها بعض الوقت، فقد كنتُ أتمنى، على سبيل المثال، أن أتفحص غرفة المخطوطات ولفائف الورق، وأنظر إليها عن كثب، فهل كانت لفيفة الورق هذه صينية أم يابانية أم كورية؟ وما الذي تقوله تلك الحروف التي دُوِّنتْ عليها بمنتهى الأناقة، والتي هي أشبه

بالنحل واليعاسيب المنطلقة في أرجاء تلك الأوراق المصفرَّة ونصف الملفوفة، وقد مُهِرتْ بأختام باهتة أشبه بالورود المضغوطة المتناثرة هنا وهناك بوصفها الشعار المميز لمالكيها السابقين؟ فهل هناك دول وبلدان وحكومات تصدر وثائق الزواج والملكية، أو هناك قضايا تُعرض في المحكمة بتلك الحِرفية العالية كعمل تسويات للوصايا والنزاعات، وربما إصدار المراسيم والقوانين وبلاغات الحرب والسلام؟ ماذا كانت مضامينها؟ أجريتُ مقارنة في ذهني بينها وبين تلك الملفات الرثّة التي تتكدّس أكواماً فوق منضدتي، فأصابتني الدهشة، لكن الحشرات وحدها هي التي كانت تعاين هذه الوثائق، حيث تقضم منها شاقة طريقها عبر المتاهات الورقية، لترسم مسارات معقَّدة قبل أن تتلاشى عن الأنظار، مخلِّفةً وراءها شبكاتٍ من القنوات الباهتة الملونة بلون الشاي أو الصدأ، وأكداساً صغيرة من البراز رمادي اللون.

عوالم بأكملها مدفونة هنا! نظرتُ إلى مرشدي ليوضح لي الأمر، لكنه لم يفعل شيئاً باستثناء أنه رفع كتفيه قليلاً، وكأن لسان حاله يقول: وماذا يهم؟ لقد جمعها السيد الشاب، وهذا ما يجعلها نفيسة.

كان أمامنا المزيد مما تجب رؤيته؛ صناديق تحتوي على كل أنواع مواد الكتابة بأحبار تحوّلت إلى مسحوق في قعر العلب الزجاجية، أقلام وريَشٌ لن يستخدمها أحد مرة أخرى، وأختام لم تعد صالحة لأن يُدمغ بها، وحجرة خاصة بالساعات، حيث الساعات الرملية التي لم يعد يتسرب منها الرمل، والساعات المائية التي تبخّر الماء منها منذ أمد طويل، والأجراس التي

توقفّت عن القرع، وطيور الوقواق التي سكتت عن التغريد، والأجساد الراقصة التي أصابها الشلل، لقد توقف الزمن، بانتظار مجيء ساحر يجعله ينطلق من جديد.

أصوات وقع قدميّ على الأرضية الحجرية كانت تؤكد ذلك الإحساس بالعبث واللاجدوى، أما مرشدي فكان ينتعل خفّيَن لم يكن بمقدوره إلا أن يجرهما بتثاقل. ربما كنا، أنا وهو، شبحين ينتميان إلى ذلك المتحف الذي استحضره المالك في أحد أحلامه.

كان فضولي قد تضاءل كثيراً، إلى درجة أنه غدا أشبه بشبح باهت لم يعد له وجود، وألفيتُ نفسي أغذُّ الخُطا وراء مرشدي، ولم أعد أتوقف لأبدي إعجابي أو أفك الطلاسم، بل صرت أتمنى فقط أن أنتهي من هذه الجولة بأسرع وقت ممكن.

لكننا توقفنا في حجرة تتفوق على جميع الحجرات الأخرى من حيث تراكم الغبار وانتشار الفوضى فيها، كما لو أن أسفار الرحّالة قد جُمعت وحُفظت فيها لأجل غير مسمى، كانت هذه الغرفة تحتوي على ملحقات السفر نفسه؛ حقائب سفر جلدية لا تزال معلّقة عليها بطاقات تعريف متقشّرة تخص فنادق ذائعة الصيت، وتحمل جداول مواعيد القطارات وشحن البضائع التي مرّت عليها عقود من الزمن وأصبحت أثرية، وهناك سلال مربوط بعضها ببعض بوساطة حبل، ولفائف فراش مصنوعة من الكنفى ذات أربطة جلدية ممزقة وأبازيم صدئة، وحقائب غلادستون[10] متشققة ومتهرئة مثل رجال أقعدتهم سنوات

(10) حقيبة غلادستون: حقيبة سفر تتفتح من وسطها إلى قسمين متساويين.

العمـر، وأكداس من بطاقـات تذاكر الحافلات والعبّارات وسـكك الحديـد التـي احتفظ بها شـخص غير سـوي، وأيضـاً بطاقات الدخول إلى القصور والمتاحف والقلاع وقاعات الفن التشـكيلي، وهـي أشـياء تشـكّل في مجملهـا ذكريات عـن تجارب لا بـد أنها بـدت في يـوم ما ثرية ومجزيـة، وعلى الجـدران هناك ملصقات متقشّـرة لبلدان ذات شواطئ ذهبية وأشجار نخيل محمَّلة بثمار جـوز الهنـد وبواخر جوالة تعوم في أعالي البحار وأعلام ترفرف، ليـس بالإمكان التعـرف إلى ألوانها الأصليـة، وعلى منضدة في وسط الحجرة هناك مُجسَّمٌ عتيق لكرة أرضية مستديرة كإبريق شـاي، رُسـمت عليها خارطة تعود إلى عصور غابرة، تُظهر قارات تزحزحـت من مواضعها أو اضمحلت تماماً، ومحيطات توسـعت أو انكمشـت، وتقـدم صورة عـن الحياة البحريـة؛ حيتان منبثقة من اليمّ، وأسـماك طائرة، فضلاً عن كائنات أسـطورية من أمثال السيرانات[11] وحوريات الماء[12]، وجميعها كان لسان حالها يقول: تعال، تعال وانظر!

ربمـا كان هـذا الأمر منبع الإلهام بالنسـبة لذلك الشـاب الذي لا يهدأ، أما بالنسـبة لي فـإن كل الرغبات التي راودتني من قبل لخوض المغامرات تلاشـت بعد مشـاهدتي تلك الآثار التـي خلّفهـا وراءه، وذلـك المخـزن الكئيب بأشـيائه المهجورة والمهملة والبالية، لقد غمرني سحر عِتْقِها، ووددتُ أن أتخلّص منه وأهرب.

---

(11) السيرانات: جمع سيرانة وهي: واحدة من مجموعة كائنات بحرية أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نساء وأجساد طيور، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

(12) حورية الماء: مخلوقة بحرية خرافية لها جسد امرأة وذيل سمكة.

غير أن مرشدي كان لديه شيء آخر يودّ أن يريَني إياه؛ أشار بإصبعه إلى صندوق طويل ومسطّح قليلاً، تُرك مفتوحاً إزاء أحد الجدران، وقال لي:

- هذا آخر صندوق تلقيناه. كان فارغاً، وقد عرفت سريماتي ساريتا ديفي أنه الأخير. قالت لي: (لن يكون هناك صندوق آخر).

- وهل حقاً لم يكن هناك صندوق آخر؟

سألتُه وأنا غير متيقن مما إذا كان يُفترض بي أن أفهم ذلك على أنه نوعٌ من الإلهام الإعجازي الناجم عن علاقة الأم بابنها، أم أنه سيمهِّد الطريق إلى حكاية أخرى.

- نعم، ليس هناك صناديق إضافية.

هزَّ رأسه، كما لو أنه أراد أن يتحاشى إظهار انفعالاته، ثم التفتَ جانباً، وفتح آخر باب ثقيل.

وعلى حين غرّة، ألفينا أنفسنا وقد ابتعدنا عن الظلام والكآبة، وخرجنا إلى درجات سُلَّم عريضة ومفتوحة على ضوء النهار الأبيض. حاولتُ أن أعوِّد عينيّ على التباين الفظ، وأن أفكر في شيء أقوله، لكن فمي كان جافاً وفاقداً للمرونة، ويحتاج إلى جرعة ماء. التفتُّ إلى مضيفي كي أستأذنه لأغادر، ولكن أصابني الهلع حينما اكتشفتُ أنه لا يرغب البتة في أن يتركني وشأني، وبدلاً من ذلك، راح يسرع نازلاً درجات السلم متجهاً صوب مجاز مغبرّ وغير جذاب في الأسفل.

لم يعد ذلك الموظف الحكومي الخنوع المتذلل الذي جاء ليقدم لي التماساً في دار الضيافة، ولا أمين المتحف الفخور

بنفسه الذي كان من الواضح أنه يرى نفسه مسؤولاً عن جزء ثمين من الملكية، بل مجرد رجل ضئيل البنية وقوي العزيمة يؤدي واجباته بعناد حتى النهاية.

- إلى أين نحن متجهون الآن؟

سألتُه محتجّاً، وأنا أتبعه على مضض إلى أسفل الدرج.

التفت إليّ، وفجأة فتح مظلة، ارتفعت قبة سوداء كبيرة فوق قضبانها الشعاعية الصدئة، لا بد أنه أخذها من قدم الفيل عاثر الحظ من دون أن ألاحظ ذلك، وخاطبني قائلاً:

- من هنا، أرجوك، من هنا، لديّ هدية إضافية، وهي الأخيرة، أود أن أريك إياها.

ثم باشر بعبور المجاز، رافعاً تلك المظلة البدائية فوق رأسي كي يوفر لي الظل. وصلنا إلى ما كان من الواضح أنه نهاية ذلك المجمع الضخم، حيث كان هناك جدار من الآجرّ أو بقايا جدار تظهر عند أعلى قمته مجموعة من قضبان الخيزران التي تصدر صوت حفيف، وقد بهت لونها من فرط تعرضها لأشعة الشمس.

قادني عبر مدخل، كان في الحقيقة ثغرة في الجدار وبلا باب، وفجأة أصبحنا في بستان الخيزران الذي لمحته من الخارج، وهنا وسط الخشخشات والطقطقات التي تصدرها الأوراق اليابسة حادّة الرأس، التي طرحتها سيقان الخيزران، تبدّى لنا في الظل المخطط مثل سحابة رياح موسمية مرتطمة بالأرض، وهو يتنقل بقلق من قدم غليظة إلى أخرى، وكأنه يتذمّر من وضعه في الأسر؛ إنه فيل يقف مقيّداً بالسلاسل، كان خرطومه يتأرجح باتجاه الأسفل كما لو أنه ذوى من شدة الحرارة المرتفعة، ويطلق

تنهيدات عميقة وطويلة تحرِّك الغبار المتكدس على الأرض، ومع أن ذلك الحيوان نظر إلينا من تحت رموشه التي تشبه الأشواك، وبعينين صغيرتين وثاقبتين وجذابتين، فإنه لم تظهر عليه أية علامة من علامات الفضول أو الذعر، ربما كانت تلك ملامح التعب والضجر، وهذا هو كل ما في الأمر.

من قلب ذلك المكان المغمور بالظل، نهض رجل عارٍ، لفَّ خصره بمزقة قماش صغيرة حائلة اللون، حيث كان يجلس القرفصاء بجانب بعض الدلاء والأحواض المائية المليئة بورق الشجر، ثم تقدم ليرحِّب بنا بضجر يضاهي ضجر الفيل الموجود في عهدته، على ما أظن.

وذُهلتُ حينما صعد مضيفي ضئيل البدن والخَوَّاف على جانب الفيل، الذي كان أشبه بجدارٍ رمادي ضخم، ثم وضع يده عليه، كما لو أن الفيل ملكٌ له. كان ذلك الكائن يقف متوانياً، تسري في خاصرته رعشة طفيفة جداً وكأنه انزعج من ذبابة ما، كان هناك الكثير من الذباب، كما أن هناك أكداساً من الروث لكي يتغذى عليها الذباب.

تحدث الرجلان إلى بعضهما بإحدى اللهجات المحلية المجهولة بالنسبة لي. لم يكلف الرجل الذي يرتدي مزقة القماش نفسه أن يُخرج من فمه السويق الذي يلوكه، وكان الموظف الحكومي (أمين المتحف) يعطيه ما يشبه التعليمات، كما بدا لي. هزَّ حارس الفيل كتفيه بلا مبالاة، وقال شيئاً مقتضباً من زاوية فمه، ثم هرش الشعيرات المتناثرة على صدره. لقد كان هذا الرجل والفيل الموجود في عهدته، بالرغم من صغر حجم

الأول وضخامة الثاني، يتقاسمان عدداً مدهشاً من التقلصات اللا إرادية والسلوكيات المميزة.

التفت الموظف الحكومي (أمين المتحف) إليّ، وقد بدا وجهه الهرم، بلحيته الصغيرة البيضاء، مرهقاً وأكبر سنّاً مما ظهر عليه فيما مضى.

- كانت أنثى الفيل هذه آخر هدية أرسلها سري جيبان إلى أمه، لقد سافرت إلينا عبر الحدود قادمة من بورما، كانت رحلة طويلة سيراً على الأقدام، وكان هذا المكان وجهتها النهائية. لم يحضر لنا حارسها أي رسالة، كما لم يقدم لنا أي تفسير باستثناء أنها أُرسلت لنا من قبل السيد الشاب، وقد تولينا العناية بها وإطعامها منذ ذلك الحين، ومضت سنوات عدة على ذلك. وقد اهتمت بها سريماتي ساريتا ديفي طالما كانت تملك الطاقة والوسائل المتاحة لذلك، ثم تركتها في عهدتي لأضطلع أنا بهذه المسؤولية، لقد أعطتني كل ما بقي بحوزتها، وبعد ذلك رحلتُ متجهة إلى فاراناسي، وأقامت هناك منذ ذلك الوقت، لم تتواصل معي بعد ذلك على الإطلاق، لعلها فارقت الحياة. كما ترى، لقد رحلت إلى هناك كي تموت.

رأيتُه يضع يده على خاصرة تلك الدابة الضخمة برقّة شديدة، لعلها أشبه بلمسة أب يسبغها على ابنه المعتوه أو ابنته المجنونة أو زوجته العاجزة، كانت لمسة وديعة ويائسة، لأنها هي بدورها (أي الدابة) منحت حياته هدفاً وغاية.

- إذا عاشت مدة أطول (قال هامساً) وكانت تحتاج إلى مزيد

من التغذية، فعندئذ يجب عليّ أن أشرع بتفكيك المتحف، وأتخلّص منه قطعة بعد قطعة، فالمتحف هو ميراثها الوحيد.

ليس لديّ أدنى فكرة عما ينبغي لي أن أقوم به أو أقوله، وبقيتُ هناك في ظل تلك السحابة الهائلة، أنظر إلى الذباب والأقدام الغليظة التي تتناوب الحركة، وإلى الغبار الذي تثيره، بعيداً عن الرَّجُلين ضئيلَي البدن والهزيلين، اللذين لم يكونا فقط أكبر مني سناً وأقصر مني، كما رأيت الآن، بل كانا كذلك هزيلي البنية، ولعلهما يفتقران إلى التغذية والضرورات الأساسية للحياة؛ أما الدابة التي يحرسانها فقد استمرت في الحياة وفي الحصول على الغذاء.

بعد ذلك شبك الموظف الحكومي يديه والتفت إليّ، قائلاً بتوسل:

- أرجوك يا سيدي ساعدنا، من فضلك توسّل نيابة عنا إلى الحكومة، أو الحاكم المطلق، كي يأخذوا المتحف منا، ويضعوه في عهدتهم، وأن يتولوا أمرنا وأمر هذه الهدية الأخيرة التي أُرسلت إلينا. إنني أشعر بالعار يا سيدي، لكنني لم أعد قادراً على العناية بها بنفسي، سامحني على تضرّعي إليك.

لم أعرف ماذا أقوله له، وكيف ألبّي طلبه وحاجته الواضحة. تمتمتُ ببعض الكلمات حول أن الوقت تأخر، وأنه يتحتم علي العودة، وأنني سأفكر فيما يمكنني القيام به، وحول كيف سأُعلمه حالما، حالما..

مرَّ زمن طويل على سنتي التدريبية تلك في الخدمة الوظيفية، ومنذ ذلك الحين تبوأتُ على مدى سنوات عدة مناصب وظيفية

عليا، غالبيتها في العاصمة، كما أنني تنقلتُ بين عدة وزارات، وتعاملتُ بالأمور المالية والقانون والنظام والزراعة والمناجم والمعادن والرعاية الصحية والتعليم.. يمكنك أن تسميها مسيرة وظيفية طويلة ومجزية، حتى إنه يمكنني القول إن والدي كان فخوراً بها إلى حدٍّ ما. بالطبع لم أعد ذلك العازب الذي لا رفيق له مثلما كنتُ عندما أرسلوني للمرة الأولى إلى المناطق النائية، وأجبروني على المكوث في دار الضيافة تلك التي أدركها الليل؛ فقد تمكنت والدتي من ترتيب زيجةٍ لي، واختارت لي زوجة تناسبني وتناسب حياتي من جميع النواحي، وأنا الآن رب أسرة، ويوجد لديّ أبناء وبنات ناضجون. في الحقيقة، قلما تعود بي الذاكرة الآن إلى ذلك الزمن البعيد.

يُخجلني أن أقول إنني ما إن نُقلت إلى العاصمة حتى توقفت عن تذكر التجارب الماضية بكل ما فيها، فلم أتواصل مع المسؤول عن المتحف، ولم أتبين أبداً ما الذي جرى له أو للمتحف، كان ينطبق علينا ذلك المثل الذي يتحدث عن السفن التي تعبر ليلاً[13]، ألا توجد نسخة برّية من هذا المثل، كأن نقول: القوافل التي تسير في الصحراء، أو الأفيال التي تمشي في الغابة؟

الأفيال، باتت هذه الكائنات تورثني القلق وعدم الارتياح. بطبيعة الحال قلما أصادف فيلاً، وحتى عندما كان أولادي صغار السن، كنتُ أتحاشى حدائق الحيوانات وملاعب السيرك

---

(13) السفن التي تعبر ليلا: مقولة في اللغة الإنجليزية تطلق مجازا لوصف شخصين يلتقيان لفترة وجيزة ويتبادلان بضع كلمات ثم يفترقان وينقطع التواصل فيما بينهما، أي مثل سفينتين تلتقيان وهما تمخران عباب المحيط ليلا، فتسلط كل واحدة منهما أضواءها على الأخرى، لتخطرها بمكان وجودها، أو، كما يرى البعض، كنوعٍ من تبادل التحية، ثم تفترقان.

وأي مكان آخر يمكنني أن أشاهد فيه فيلاً، لأنني أخشى من مواجهة تلك النظرة الحزينة الحادة، التي ما إن تقِسْ حجمي حتى تجدني دون المستوى المطلوب.

ذات مرة راودني كابوس، حصل ذلك عندما كنت لا أزال في تلك المقاطعة، ولم يتكرر بعد ذلك، كما أنه لم يفارق ذاكرتي، حيث رأيتُ هذا الحيوان وهو يلتهم غابة بأكملها نصلاً إثر نصل، وورقة بعد ورقة، حتى باتت أرضاً مقفرة، وبعد ذلك رفع الفيل خرطومه، ثم سار صوب الشجرة التي كنت مختبئاً خلفها، كي يعرّي.. ماذا؟ لا أعرف لأن مثل هذه الكوابيس لا يكون لها نهايات عادة، ويهرب منها المرء عبر الاستيقاظ من النوم.

وفي يقظتي كنتُ أنظر إلى ذلك الكائن الضخم بوصفه بريئاً وبلا حماية، فقد ظل يذوي ويضمر نتيجة الإهمال إلى أن استلقى على الأرض في نهاية المطاف، دون أي أمل في معاودة النهوض من جديد. عندما يكون الميت بهذه الضخامة، يصبح الموتُ عصياً على الفهم. إن هذا الأمر يؤرِّقني، وأنا أحاول تناسيه كي لا يثقل كاهلي، أعرف أنه ثمة علامة استفهام تطل برأسها من خلفه لتقول: أكان بوسعي أن أفعل المزيد؟ لكن ليس مطلوباً منا أن نفعل كل شيء لكل فرد، وفي النهاية كانت سمعتي في العمل جيدة وخالية من العيوب، ماذا كان يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟

في الواقع، أنا الآن غير متأكد مما إذا كان ذلك المتحف أو الرجل الذي أوجده أو والدته التي تلقت مقتنياته أو الحارس الذي حافظ عليه.. موجودين بالفعل، أم أن ذلك كان محض

سـراب تراءى لـي، أو مجرد كتاب قرأته ذات مـرة ولم أعد أتذكره إلا بصـورة مبهمـة، نظراً لافتقـاره إلى الواقعيـة والوجود المادي اللذين تمتاز بهما الأشياء والبشر والحيوانات.

بين الفينة والأخرى، يبزغ مشهد من ذلك المتحف من أعماق لا شـعوري وأنـا على وشـك الاستسـلام للنـوم، بعد ذلك ينسـلُّ مبتعداً.

المُترجِمة مُترجَمَة

لم تلتقِ السيدتان وجهاً لوجه مذ كانتا في المدرسة سويّاً، في ذلك الوقت بالكاد كانت هناك علاقة تجمع بينهما. هكذا هو الحال بالطبع عندما تكون إحداهما قيادية بالولادة، ومتفوقة في التمارين الرياضية والدروس، ورئيسة لعدد لا حصر له من الجمعيات، وقدوة للفتيات ضعيفات الأداء اللاتي يفتقرن إلى الحماس ويتمتعن بقدرات متواضعة، ولا يستطعن الارتقاء إلى مستواها، كما يشعرن حيالها بمزيج من الغيرة والإعجاب؛ تياران يسيران في اتجاهين متناقضين ثم يلتفان ليتحولا إلى دوّامات غادرة ومثيرة للقلق. أما الأخرى فتنتمي إلى الفئة الثانية، وهي فتاة غير متفوقة لا في مظهرها الخارجي ولا في قدراتها الذهنية، كما أنها من النوع الذي يجد الآخرون صعوبة في تذكر أنه موجود أساساً.

ومع ذلك، في حفل عيد المؤسس الذي أُقيم في مدرستهما القديمة في إحدى السنوات، حضرت الاثنتان ضمن المجموعة الصغيرة التي حضرت من بين خريجات الثانوية، ووجدت بريما، التي بلغت الآن منتصف العمر، أو حتى يمكننا القول إنها هرمت قبل الأوان، نفسها في حضرة امرأة كانت معجبة بها عن بعد

منذ وقتٍ طويل. ما كان يخطر ببالها أن تدنو من المرأة فارعة الطول الأنيقة، التي لها خصلة شعر بيضاء تشع كمقولةٍ منضدةٍ بحرف طباعي ثخين وسط الضفائر السوداء الناعمة التي تتأرجح حول كتفيها. كانت تلك السيدة تلبس نظارات سوداء كبيرة الحجم، تُدعى عادة «نظارات الوقاية»، ولم تكن ترفعها عن عينيها إلا لتقرأ فقرات برنامج الحفل، لكن لا بد أنها نظرت من حولها لتشاهد ما هو أكثر من ذلك، حيث أدارت كرسيها نصف دورة كي تصبح وجهاً لوجه مع بريما التي كانت جالسة خلفها، لتقول لها بمنتهى العفوية وعدم التكلف:

- كنا في الصف الدراسي نفسه، أليس كذلك؟ أتذكرين؟

كان على بريما أن تتظاهر بأنها حائرة ومشوشة الذهن ومندهشة، قبل أن تتذكر زميلتها القديمة، كما لو أنها لم تنسها أبداً.

دُهشت بريما عندما عرفتها زميلتُها، وعقدت تلك الدهشةُ لسانها، فحينما كانت طالبة في المدرسة لم يحدث أن تجرأت وخاطبت تارا، إذ ليست هناك مناسبة لتفعل ذلك. مرة واحدة فقط حصل اتصال مباشر بينهما، وهي عندما رمت بريما كرة عبر ملعب كرة السلة بقوة غير معهودة، حتى إنها مصحوبة بصرخة ألم، ووثبت تارا لتمسك بها، فانحسرت تنورتها القصيرة ذات الثنيّات، والتفّت حول ردفيها، ومن دون جهد، وبحركة تشبه حركات الباليه، رفعت الكرة نحو الشبكة، ما أثار موجات عارمة من التهليل والتشجيع. لم تجد بريما الآن شيئاً لتقوله لها، كم تمنت لو أن حادثة قذف الكرة والإمساك بها بتلك الروعة تتكرر

من جديد. أخيراً تلعثمت قائلة:

- مضى على ذلك زمن طويل.

كانت تتمنى لو أنها لبست ثياباً أفضل من هذه التي لبستها اليوم، وأحضرت معها حقيبتها اليدوية الجديدة بدلاً من حقيبة القماش التي حشرت فيها الكتب والأوراق وكل شيء، وذلك بطريقة ما كانت لتفعلها إلا تلك الفئة من المدرّسات اللاتي لا يسايرن الموضة، ولا يحظين بأي تقدير على الإطلاق.

- نحن لا نشعر بمرور الزمن عندما نعود مجدداً إلى هذا المكان، لم يطرأ سوى تغيّر طفيف جداً.

قالت تارا بارتياح.

- بالطبع، غادرت الآنسة دوتْ الحفل، أتمنى لو أنني أتيت مبكراً، عندئذ كنت سأحظى برؤيتها ثانية.

الآنسة دوتْ، التنّينة؟ تتمنى لو أنها رأتها ثانية؟ نظرت بريما بدهشة إلى زميلتها؛ كانت نظرتها هذه تكشف مقدار الاختلاف بين العالمين اللذين تعيشان فيهما. من وجهة نظر بريما لم تكن الآنسة دوت تمثل إلا البلاء والرعب؛ فما تزال تتذكر نظرة الاحتقار التي كانت تلقيها على حذاء بريما البالي وغير الملمَّع والمتسخ والغليظ.

- مشاغل المرء كثيرة.

قالت أخيراً بطريقة تفتقر إلى اللباقة.

- فمن أين لنا الوقت؟

ينبغي عليها ألّا تقول ذلك؛ إذ سألتها تارا في الحال:

- ماذا كنتِ تفعلين طوال هذه السنوات؟

وهذا بالطبع كَشَفَ خُلُوَّ كلمات بريما من المعنى، فما الشيء الذي كانت تفعله ويستحق الحديث عنه، مقارنة بمنجزات تارا التي يعرفها الجميع؟

كانت بريما على اطّلاع بمسيرة تارا؛ فكيف لا يعرف عنها المرء عندما كانت وسائل الإعلام تأتي على ذكرها كثيراً؟ وهي واحدة من أوائل المتدرِّبات اللاتي تبنتْهُنّ صحيفة قومية، وأصبحت لاحقاً مشاركة في تحرير مجلة عالمية تتمتع بشعبية خاصة في المنطقة التي تقيمان فيها، ثم وصل بها الأمر إلى أن يكون لها عمود صحفي خاص يُنشر في عدة صحف ومجلات في وقت واحد، وقد أثارت شيئاً من الاستغراب والدهشة حينما تخلت عن مسيرتها الصحفية، وتبنّت بدلاً منها مهنة النشر في وقتٍ لم تكن فيه هذه المهنة جذّابة على نحو ما أصبحت عليه في يومنا هذا. لقد أسست أول دار نشر نسائية في البلاد، وجعلت منها مشروعاً بارزاً وناجحاً بشكلٍ لا يتوقعه أحد، كما يُنشر لها، مرة في الأسبوع على الأقل، صورة في إحدى الصحف أو المجلات وهي تحضر مؤتمراً، أو تتحدث في حلقة نقاشية. وكيف يمكن لتارا أن تطّلع على نشاط بريما، أو عدم نشاطها؟ بالطبع، غير ممكن العثور على أي خبر حول ذلك الأمر في أي مكان.

أما الآن فهناك فورة من النشاط على خشبة المسرح خلف صف أشجار النخيل المزروعة في آنية فخارية، وبينما كان المايكروفون يُزحزَح ثم يُثبَّت في موضعه، كان هناك أشخاص يأتون ويتوارون عن الأنظار، وتبيَّن أن الفقرة التالية من برنامج الحفل غير جاهزة تماماً، وبدا أن تارا ترغب حقاً في

مواصلة ذلك الحوار العبثي الذي كانت بريما تتمنى لو أنها لم تبدأ به.

ومن ثم بمشيئة العناية الإلهية انسلَّ كتابٌ صغير ومتَّسخ ذو غلاف ورقي من الحقيبة المدرسية الغليظة والمحشوة حتى الامتلاء، والتي كانت بريما تحاول جاهدة ألا تسقط من حضنها، وحينما حاولت أن تعيده إلى الحقيبة قبل أن تتبعه أشياء أخرى وتتدحرج إلى الخارج، سألتها تارا التي تتابع حديثها بلا اكتراث طالما يبدو أنه ليس ثمة شيء يحدث:

- ما هذا الكتاب الذي تطالعينه؟

كان على بريما أن تقدِّمه لها كي تلقي نظرة عليه حتى لا تبدو متكتمة بشكلٍ غير لائق، وكلها ثقة بأن تارا لن تتمكن من قراءة أبجدية اللغة المستخدمة فيه، كما أنه كان بعيداً كل البعد عن الحياة هنا في العاصمة، لكنها، وهي تفعل ذلك، مرّ في خاطرها بسرعة خاطفة، كذبابة غير متوقعة، فكرة مفادها أن تارا قد تكون مهتمة حقاً بما أنها ناشرة وفي مجال متخصص جداً. أدركت بريما أن هناك، على أي حال، شيئاً ربما تستطيعان أن تتناقشا بشأنه.

- إنه باللغة الأورية.

قالت بريما، وهي تسلِّمها تلك النسخة المتسخة، مع شعور بالندم لكونها استخدمتها بصورة سيئة، حيث قامت بثني زوايا صفحاتها، كما خربشت على هوامشها، وحتى إنها وضعت أكواب الشاي على غلافها، وهو ما جعل الصورة زاهية الألوان لحريق الغابة والكوخ المشتعل والمرأة الهاربة تكتسب حواف بنية اللون.

- إنه كتاب جيد جداً.

سارعت لتطمئن تارا على الرغم من أن شكل الكتاب كان يشي بشيء معاكس:

- إنه مؤثر جداً.

- من مؤلفه؟ وهل تستطيعين المطالعة بالأورية؟.

بحركةٍ عصبية ثبَّتت بريما نظاراتها على قصبة أنفها مع شعورٍ بالارتباك، بدا مضاعفاً بصورة غريبة من خلال العدستين:

- إنها اللغة التي تعلمتُها إبان طفولتي، وقد ألَّفت الكتابَ امرأةٌ تنتمي إلى المنطقة عينها التي عاشت فيها أمي. إنها كاتبة تحظى بتقدير عالٍ جداً هناك، حتى وإن لم يسمع بها أحد هنا.

استمرت تارا في حمل الكتاب، وراحت تقلّب أوراقه كما لو أنها يمكن أن تفشي لها شيئاً ما، وعلى خشبة المسرح اصطفت طالبات المدرسة، يلبسن الزي المدرسي المؤلف من تنورات لها ثنيات وبلوزات بيضاء اللون وأربطة عنق مُحاكة وجوارب مترهلة وأحذية رياضية كانت في يوم ما بيضاء، لينشدن أغنية، إنما يبدو أن الكتاب أثار اهتمامها أكثر، مع أنه ليس بمقدورها قراءة حرف واحد من تلك الأبجدية. وعندما انتهت الأغنية المقدَّمة على المسرح، والتي كانت نغماتها تتصاعد تدريجياً بشكلٍ يجعل الاستمرار فيها متعذِّراً، وهو ما حصل بالفعل، أعادت الكتاب إلى بريما، قائلة لها:

- أتمنى لو كنتُ أستطيع قراءته، إنني أفكر بإنشاء قسم جديد في دار النشر العائدة لي، لقد نشرنا نصوصاً بالإنجليزية، لكنني أود أن أفتتح فرعاً للترجمة الآن، وأنشر مؤلفات لكتّاب

مشهورين في مناطقهم، لكنهم غير معروفين خارجها، وهذا أمر مخجل، فما رأيك؟

في البداية لم يكن بوسع بريما العاجزة عن الإفصاح أن ترد على تارا، علماً أن نظاراتها عكستْ حماسة الرد الذي لم تتفوه به، بيد أنها، وقبيل البدء بإذاعة كلمة مديرة المدرسة عبر مضخِّم الصوت الذي أخذ يردد أصداء كلماتها بشكلٍ متموِّج، تمكنت من القول بمنتهى الحماسة:

- إنها فكرة رائعة، هذا ما نحتاج إليه بالضبط.

بعد ذلك كانت المديرة قد انطلقت في إلقاء كلمتها، حيث بدا كما لو أن ما تتمتع به من نفوذ وسلطة أدى إلى ترويض المايكروفون، ولم يكن هناك بديل سوى الإنصات والتزام الصمت. وفي نهاية الكلمة قامت بعض النسوة، اللاتي كنَّ يدرسن معهما في نفس الصف، حيث تعرفن إلى تارا، مع أنه بدا واضحاً أنهن لم يتعرفن إلى بريما، بالانقضاض على تارا بالصرخات وصيحات الابتهاج، فحملت بريما حقيبتها المدرسية وانسحبت، فموعد شرب الشاي قد أزف.

حينما عادت بريما إلى المنزل بالحافلة، وصعدت درجات السلّم إلى شقتها الكائنة على سطح المبنى، حيث لم تقم - كالعادة- القذرة خادمة صاحبة المبنى بتنظيف درجات السلم، وكان عليها أن تشكو من ذلك ثانية.

بدأ النهار يغطس في ضبابه الكثيف الناجم عن الغبار المصطبغ بالنيكوتين، وكانت السيارات المحمَّلة بالناس العائدين إلى منازلهم تتدفق في الشارع الواقع في الأسفل، كما يتدفق

الزيت الأزرق الداكن عند حدوث تسرب، وأما الغربان التي أمضت نهارها تتأرجح على أسلاك الكهرباء والهاتف، وتتشاجر مع بعضها، فقد نزلت واستقرت بين الأفنان الخشنة للشجرة المشذبة في الأسفل، وراحت تطلق صيحاتها المنهَكَة. هل ستسمح بريما لنفسها بأن تغمرها الكآبة الناجمة عن ذلك كله مرة أخرى؟ رفعتِ الحقيبة القماشية عن كتفها، والتي باتت متدلية بشكلٍ دائم بسبب الوزن الذي اعتادت على حمله، وعزمتْ ألا تدع الكآبة تتملكها، ثم تركت الكتاب الذي شاهدته تارا معها ولفتَ انتباهها بشكلٍ لا يُصدَّق يندلق تلقائياً من الحقيبة، ومرَّرت أصابعها برقة على غلافه المبقَّع وغير الواضح، لأن تارا مررت أصابعها عليه في ذلك الموضع تحديداً، وبعد ذلك فتحت الكتاب على الطاولة التي كانت تستخدمها للعمل والأكل والكتابة، كما أنها ترتب كتبها وأوراقها وأقلامها عليها. ومن دون حتى أن تحضر لنفسها كأس ماء أو أن تجلس لتأخذ قسطاً من الراحة، طالعت السطور القليلة الأولى مع نفسها، ومرة أخرى أثارت المقاطع اللفظية لتلك اللغة في ذهنها صور ذلك العالم البعيد الذي كان يربطها بتلك الكاتبة.

كان ذاك هو المكان الذي تم فيه تعيين أبيها لفترة وجيزة كموظف صغير في السلك الحكومي، وفي المكان عينه تعرَّف والدها على والدتها وتزوَّج منها، وهي ابنة صاحبة المبنى الذي أقام فيه، الأمر الذي أثار فزع عائلته ورعبها، حيث لم تتخيل أبداً شيئاً كهذا، لكونه زواجاً من طبقة اجتماعية أخرى يتجاوز تقاليد طبقتهم الصارمة، كما أثار حزن وتشاؤم عائلة والدتها،

التي تتمسك بالقدر نفسه من التقاليد الصارمة، ومن ثم أحضرها معه إلى المدينة. كانت في ربيع عمرها، عندما بدأ يزداد باضطراد شعورها بالبعد والنأي المغلّف بالحنين إلى موطنها الأصلي، وهي الفترة التي كانت فيها بريما تنصت إلى أمها وهي تحدثها وتنشد لها الأغاني بلغتها. لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا في الأوقات التي لا يكون فيها أبوها حاضراً؛ إذ إنه لا يطيق ذلك عندما يعود من المكان الذي ينتمي إليه في العاصمة، لكن بعد وفاة أمها المبكرة - وقد تنبأت أسرتها بذلك تماماً- فقدتْ بريما التواصل مع ما كان يُعتبر لغتها الأم، وبعد ذلك استعادت هذه اللغة عندما اختارت دراستها في دورة تعليمية مسائية للكبار خلال حقبة قليلة النشاط من حياتها، وذلك بعدما حازت شهادتها في الأدب الإنجليزي، وهي مؤهل جدير بالاحترام مع أنه واسع الانتشار.

لم تكن ترضى بالتوقف عند هذا الحد، فهي لسبب من الأسباب لم تستطع أن تشرح لأبيها أو لأفراد أسرتها السبب الكامن وراء ذلك، حيث إنهم يعتبرون ذلك انحرافاً عما هو سويّ وشيئاً يتعذر فهمه لدى شخص مُنح الحرية الكاملة في اختيار أي فرع من فروع الدراسة في أي كلية من الكليات، ولذلك اعتبرتْ بريما أن زيارة المنطقة التي تشكّل الأوريّة فيها اللغة المحكية والحيّة أمراً ملحاً، ولا مجال لاجتنابه، وعندما تم الاستماع إلى خطتها من قبل معلمها، المعروف بدماثته ولطفه البالغين، إلى جانب انطوائه الزائد ونحافته المفرطة، ابتسم ابتسامة حائرة أكدتْ لها أن لا أحد من تلامذته السابقين

تجاوب بهذه الطريقة مع الدروس الليلية التي كان يلقيها بقدرٍ بالغ من الحياء والتردد في قاعة دراسية تكاد تكون خالية، تم تأمينها في مدرسة محلية تعاني نقصاً في التمويل، وذلك على مسامع أشخاص يشعرون بنفس القدر من الضياع الذي تشعر به بريما. إنه غير متيقنٍ مما إذا كان يجدر به أن يهنئها على هذا الاختيار أم يحذّرها منه.

تذكرتُ حجم الذعر الذي انتابها وهي ترتب استعداداتها للسفر، هذا إذا جاز للمرء أن يطلق مصطلح (استعداد) على مثل هذه الرحلة العشوائية التي اشتملت على تغييرات كثيرة من سكة حديد عريضة المقاس إلى أخرى ضيقة، لتنتقل بعد ذلك إلى ركوب حافلات الريف، وفي نهاية المطاف سيتعين عليها الاختيار بين عربات الطنجة وعربات الجنركشة[14] المربوطة إلى دراجة هوائية، كما تذكرتُ مقدار الاحتراس الذي جابهت به الفترة التي أمضتها بسكن الطالبات في إحدى الكليات المحلية، والذي لم يكن أكثر من ثكنة مبعثرة مشيدة من الآجر في حقل مغبرّ. كان هناك كشك للشاي تحت شجرة نيم[15] متدلية الأغصان، وقد تمكنت بريما من البقاء على قيد الحياة بتناولها الشاي والبسكويت طوال أيام مُضجرة وخانقة تعيَّن عليها أن تقضيها هناك قبل أن تنعتق اللغة من بين صفحات كتابها الدراسي وتتخذ مرة أخرى ما كانت تمثله لها في السابق من قدرة على

---

(14) الجنركشة: عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص واحد عادة ويجرها رجل واحد.

(15) شجرة النيم: وهي شجرة (الأزدرخت الهندي) تتميز بكونها سريعة النمو وكثيفة الظل ودائمة الاخضرار، تنمو بكثافة. يُطلق عليها في الهند اسم (صيدلية القرية)، وهي معروفة هناك منذ مدة طويلة، وتتميز بقدرتها على تنقية التربة من الأملاح.

الحركة ورشاقة عفوية، وقد دُهشتْ إلى حدٍّ ما عندما بدأت شيئاً فشيئاً تفهم تلك اللغة من خلال حديث صاحب كشك الشاي وسائق دراجة الجنركشة والنساء المقيمات في سكن الطالبات، اللاتي كانت تتشارك معهن الحمّام، وهو صف من الأكشاك الموجودة ضمن ردهة رطبة ترشح منها قطرات الماء بشكلٍ دائم، وتصادفهن في طريقها بعد انتهاء الدروس، حيث يتعين عليها تمضية أمسيات تخلو من أي نشاط تقتل فيه وقتها.

وبينما هي تقلّب صفحات ذلك الكتاب المترهل الصغير ذي الغلاف الورقي، وتمرر عينيها فوق النص المكتوب، تذكرتْ بنوعٍ من الحنين الآثم ذلك التوق الذي كانت تشعر به نحو المدينة، أوَ بالأحرى نحو وسائل الراحة والفرص المناسبة التي تتوفر فيها، كما تذكرتْ كيف أنها اكتشفت، حالما تمكّنت من التحدث ثانية بتلك اللغة، أن النساء الأخريات كن يعانين نفس القدر من التوق إلى الأرياف والقرى الصغيرة التي أقبلن منها ليكملن «تعليمهن العالي». وبعدما عرَّفنها بأسماء قراهن، مع أنها لم يسبق لها أن رأتها على الخارطة، شرعت توجه لهنَّ أسئلة متلاحقة، متخيلة صورة أمها إبان صباها، وهي تسكن في مكان مثل ذاك الذي كنَّ يصفنه.

وذات يوم في القاعة الدراسية، ذكرتْ مُدرِّستها اسم تلك الكاتبة التي كان كتابها مفتوحاً أمامها -وهي سوفارنا ديفي- حيث تحدثتْ عنها بوصفها البطلة غير المحتفى بها في الأدب الأوري، وأخبرتْ بريما، التي كانت أكثر الطلاب الذين عرفتهم حماسة، بأنّ تعلّم هذه اللغة أمر جدير بالاهتمام حتى ولو

كان الهدف من ذلك هو فقط قراءة أعمال سوفارنا ديفي، ثم أضافتْ:

- هذه الكاتبة لا تكشف لكِ حلاوة اللغة فحسب، بل تفتح عينيكِ أيضاً على أشياء لا تعرفينها موجودة هنا.

لذلك توقفت بريما في البازار وهي في طريق عودتها إلى سكن الطالبات، وعثرتْ على هذا الكتاب ذي الغلاف الورقي وسط مجموعة من المجلات والتقاويم وبطاقات التهنئة، التي كانت تشكِّل السلع الرئيسة التي تعتمد عليها المكتبة. وعندما قامت بإطلاع النساء المقيمات في سكن الطالبات على تلك اللُّقية النفيسة، أعربن عن دهشتهنَّ لكونها لم تسمع بهذه الكاتبة من قبل؛ فقد كان مطلوباً منهن قراءة قصصها القصيرة في المدرسة، إنما لم يكنَّ يشعرن دائماً بالإجلال تجاه الكاتبة كما بدا لها. وقالت إحداهن، وهي تختلف عن الأخريات بكونها جعلت شعرها قصيراً في الجانب الذي تحتفظ فيه كل النسوة الأخريات بضفائر طويلة أو بكعكات شعر مشدودة بقوة ومثبَّتة بالدبابيس بعناية، لا بل حتى إنها تلبس البنطلون عندما لا تكون ذاهبة إلى قاعة الدرس:

- لماذا تريدين أن تضيعي وقتك بمطالعة سوفارنا ديفي؟ لن تحصلي على وظيفة في الجامعة إن فعلتِ ذلك. أنتِ تحتاجين إلى قراءة جين أوستن وجورج إليوت وسيمون دي بوفوار، ما من جامعة ستهتم بكِ إن لم تكوني قرأت كتاب (الجنس الثاني)، انسِي سوفارنا ديفي، واقرئي للكاتبات اللاتي يدافعن عن حقوق المرأة، اقرئي سيمون دي بوفوار.

هذا الكلام جعل النساء الأخريات يستسلمن لموجة من الضحك الجامح؛ فقد حاولن أن ينطقن ذلك الاسم الأجنبي بطرائق شتى، لكن جميع محاولاتهن باءت بالفشل.

لم تطالع بريما مجموعة سوفارنا ديفي القصصية وحسب، بل رجعت أيضاً إلى المكتبة كي ترى ما إذا كان فيها عمل آخر لهذه الكاتبة. لم تجد، لكنها في مكتبة الكلية عثرت بالمصادفة على دفتر يوميات دوَّنته الكاتبة خلال إقامتها في المناطق القبلية الواقعة إلى الجنوب؛ كان ذلك الدفتر مجلّداً بالريكسين[16] الأخضر، والطرف المطوي الخاص بالمكتبة الموجود في مؤخرة الدفتر يشير إلى أنه تمت استعارته مرتين فقط خلال السنوات السبع الأخيرة. استعارته بريما وأخذته معها كي تقرأه في سكن الطالبات، حيث وجدت أن كثيراً من مواده ذات طبيعة أنثروبولوجية، وأن الملاحظات المتوفرة فيه عن الحياة القروية في الغابة هي بمثابة خلفية لأحداث القصة الخيالية التي كانت قد قرأتها من قبل، لكنها ملاحظات جافة بصورة تثير الإحباط. لم يكن لدى بريما اهتمام كبير بالطبيعة أو بطقوس المجتمع القبلي ومراسمها بحد ذاتها، ووجدت أن الملاحظات تفتقر إلى الشخصيات والأحداث التي جعلت تلك القصص القصيرة نابضة بالحيوية وجذابة.

سألت رفيقاتها في سكن الطالبات ما إذا كنَّ يعرفن أي شيء عن حياة المؤلفة، التي كانت توزع اهتمامها بصورة غريبة بين الأدب والأنثروبولوجيا، فقلن لها:

---

(16) الريكسين: جلد صناعي يُستخدم لتجليد الكتب وتنجيد قطع الأثاث – م.

- آه، إنها تذهب إلى تلك المناطق برفقة زوجها، هو يعمل طبيباً، ولديه عيادات هناك. من يرغب بالقراءة عن أمور كهذه؟.

وفجأة خطر ببال بريما أن الكاتبة قد تكون مقيمة في هذه المدينة تحديداً، فقلن لها، بصورة لا مبالية، إنهن يعتقدن أنها فعلاً تسكن في هذه المدينة. هتفت بريما:

- أين؟ هل يمكنكنَّ أن تخبرنني أين؟

ثم سرحت بأفكارها بعيداً إلى ذلك الهدف الثمين الذي يوجد عادة لدى أي طالب جاد، وهو الظفر بمقابلة شخصية مع الكاتبة، فضلاً عن ذلك، من شأن مثل هذا اللقاء أن يقيم لها صلة أخرى بعالم أمها. ليس أمامها سوى وقت قصير، حيث يتعين عليها أن تعود إلى دلهي في غضون أسبوع، وأخبرتها إحداهن في أي جزء من المدينة كان يمارس فيه زوج سوفارنا ديفي مهنة الطب، لكنه ليس بمقدور أي منهن إعطاؤها عنواناً محدداً، كن يعرفن أعمال سوفارنا ديفي من خلال المنهاج الدراسي فقط، بيد أن ذلك لم يجعل منها شخصية مشهورة محلياً؛ بل جعلها واحدة منهن لا غير.

ذات يوم ذهبت بريما سيراً على الأقدام إلى هناك بعد انتهاء دوامها، لترى ما إذا كان يمكنها أن تعثر على العنوان بنفسها. كان الحي أشبه بضاحية من ضواحي دلهي البعيدة، حيث تتلاشى المدينة لتغدو أراضي منبسطة ومغبرة وخليطاً من البيوت الريفية التي لم تعد جديدة على الإطلاق، حيث يوجد على مداخل عددٍ كبير منها لوحاتٌ تشير إلى أن ساكنيها ينتمون إلى الطبقة الوسطى؛ أطباء وخبراء قانون ومحامون

وأطبـاء متخصصـون بالأمـراض النسـائية والتوليـد والمعالجة المثلية[17] والآيورفيدا[18] والمسالك البولية، كما أن هناك المدارس التي تعطي دروساً مسائية في الطباعة والاختزال والخياطة.

ونظراً لعدم معرفتها بالعنوان على وجه الدقة، ولكثرة تشابه وتكـرار الألقـاب التي عثرت عليها في طريقهـا، فقد توقفت عن البحـث بعدمـا أدركت فجـأة أن هناك غباراً يحتشـد بين أصابع قدميهـا ويغـزو طيات عنقهـا ومرفقيها؛ كان غبـاراً لزجاً ورملياً في آن، لم يعد بوسـعها الاستمرار في المشـي بتثاقل ذهاباً وإياباً ضمن متاهة الشـوارع الصغيرة، حيث الكلاب التي تنبح بوجهها من وراء البوابات المغلقة، والرجال الذين يحدّقون إليها من داخل ورش إصـلاح الدراجـات الهوائيـة وأجهزة الراديـو ومن محطات الحافلات الإسمنتية التي تظللها أشجار مشذبة ومُقزَّمة، فعادت إلى سكن الطالبات وهي تشعر بالخيبة والخذلان.

لا يهـم، قالت لنفسـها وهي تجهِّز حقائبها اسـتعداداً لرحلة العـودة الطويلـة إلى العاصمة؛ لقـد عثرتُ علـى الموضوع الذي سـتجري عليـه دراسـتها، وهذا أهـم ما فـي الأمر بالنسـبة لها، فكيف كان يمكنها العودة من دون ذلك؟

قَبِل المشـرف علـى أطروحتها بالموضوع الـذي اختارته على مضـض شـديد؛ لم يكن جزءاً من الخطـة الاعتيادية للمنهاج الدراسـي، وكان من الصعب رؤية كيف يمكن جعل هذا الموضوع

(17) المعالجة المثلية: معالجة الداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة من دواء لو أُعطي لشـخص سليم لأحدث عنده مثل أعراض المرض المعالَج.

(18) الآيورفيدا: نوع من الطب التقليدي في شـبه القارة الهندية، يُعد شـكلا من أشكال الطب البديل، وقد أنشأ ممارسو هذا الطب نوعا من العلاجات الطبية ومن الطرائق الجراحية لمعالجة أنواع مختلفة من الأمراض.

متوافقاً مع تلك الخطة، لكن بعد ذلك أظهرت بريما أن بوسعها أن تصبح عنيدة متى أرادت ذلك، لم يكن موضوعها اللغة بحد ذاتها، بل المؤلفة وكيف ينتمي عملها الأدبي إلى العالم الأرحب، كتبت الأطروحة وتم قَبولها، وهو ما أثار دهشة مشرفها إلى حدٍّ ما.

ربما كانت تتوقع ما جرى لاحقاً، فبعد سنوات طويلة جداً من الاعتقاد بأن هذا الأمر سيشكل ذروة حياتها، اكتشفت أن الجميع كانوا يتوقعون منها أن تتابع مسيرتها كما لو أنه لم تكن هناك ذروة كهذه، فما الخطوة التالية؟ هكذا كانت تُسأل باستمرار من قبل أفراد أسرتها وأصدقائها: ما الخطوة التالية؟

وبعد انتظار دام سنوات طويلة مليئة بالشقاء والإحباط، حيث شكّل ظهور أولى الشعرات البيضاء المتناثرة في رأسها لحظة فاصلة في حياتها، قبلتْ بمنصب بسيط في كلية صغيرة للبنات تقع في حي كئيب وبعيد من المدينة. وحتى في مكان كهذا لم تحظَ أطروحتها بأية قيمةٍ تُذكر، حيث لسان حال الجميع يقول: يا له من موضوع غريب، مؤلفة تكتب باللغة الأورية؟ ما السبب الذي جعلها تختار مثل هذا التخصص غير الواعد؟ لمَ لمْ تذهب إلى جامعة جواهر لال نهرو لدراسة اللغة الفرنسية أو الروسية أو الصينية؟ ما الفائدة التي قدمتها هذه الكاتبة الريفية، التي تكتب بلغة ريفية، لها أو لأي شخصٍ هنا؟ ولذلك وجدت بريما نفسها في قسم الأدب الإنجليزي، تدرِّس جين أوستن وجورج إليوت، مع أنها لم تدرِّس سيمون دي بوفوار.

خلَّف هذا الأمر حُرقة صغيرة كامنة في أعماق روحها، هكذا حدَّدت هي مكانها، وما من أحد سيفعل ذلك، حيث أطلقتْ رائحة مطاط محترق، مهدِّدة بتدمير أي سبيل قد تسلكه للحصول على السعادة أو الرضا، لقد أحدثت تلك الحرقة أخدودين عميقين عبر جبينها كما لو أنهما أُحرقا بعود من الفحم النباتي، بالإضافة إلى أخدودين آخرين يمتدان من زاويتي منخريها إلى حافتي فمها، وأحياناً عندما تمر بواجهة متجر مليء بفساتين الساري المزيّنة بالنثار المعدني اللامع الذي يشجع على التأمل، أو تلمح نفسها في المرآة الصغيرة الباليـة الموجودة فوق حوض حمّامها، كانت ترتعب من كآبة ملامحها. ليس غريباً أنها قلّما دُعيت للخروج في نزهة أو كانت جزءاً من تجمّع يُقام بهدف الاحتفال أو المتعة، كانت تنصرف من دوامها، وتمشي مجهدة نحو محطة وقوف الحافلات، بينما حقيبة الكتب تُثقِلُ كتفَها الأيسر. إنها تكرِّس نفسها للعمل خلال ساعات العمل الضرورية، حيث تلتقي زميلاتها في غرفة المدرِّسين خلال ساعة الغداء التي كنّ جميعاً يغتنمنها للتعبير عن تذمرهنّ من عبء العمل وغدر عميدة الكلية ورئيسات الأقسام، ومن الطالبات اللاتي يطغى على سلوكهن قلة الاحترام والصخب والجموح، وفي آخر النهار تعود مثقلة الخُطا، يغمرها إحباط يفوق ذلك الذي شعرتْ به حينما انطلقت في بداية النهار. بات ذلك هو الوقت الذي تتساءل فيه عما إذا كانت حياتها تختلف أيما اختلاف عن حياة الغربان التي توزع وقتها، بقدرٍ من الفوضى والمشاكسة المتساويتين في

فظاظتهما، بين الوقوف على أسلاك الهاتف والشجرة المتهالكة الكائنة في الشارع الذي تقطنه.

هذا هو السبب الذي دعاها لتلبية دعوة يوم المؤسس في مدرستها القديمة، فأيام الدراسة لم تكن تشكل بالنسبة لها حقبة سعيدة جداً من حياتها، وقد سبق أن ظهرت لديها مؤشرات تدل على حياتها الفاشلة هناك، على ما يبدو، وهذا أمرٌ لا يجذب الأصدقاء، لكن على الأقل كان ذلك في الماضي البعيد الذي بوسعها أن تنظر إليه الآن بصورةٍ تتسم بالتسامح، بل وبالرِّقة إلى حدٍّ ما.

ومن ثم سمحت الظروف بأن تتحول الأمور نحو الأحسن، فهي لم تلتقِ فقط تارا، الفتاة التي كانت محبوبة من الجميع في مدرستها القديمة، وذلك بعد سنوات طويلة جداً من مواصلة الأخيرة مسيرتها المثيرة للإعجاب في دنيا الصحافة، بل إن تارا هي التي تعرّفت إليها ومنحتها إيماءة مفعمَة بالأمل عبر إبداء اهتمامها بالكتاب الذي سقط بقدرة العناية الإلهية من حقيبتها.

كانت تلك الإيماءة بادرة صغيرة وغير واضحة، لكنها الشيء الذي تنتظره بريما، كما تبيَّن لها الآن. إنها الإيماءة التي لم يشأ أحد منحها إياها من قبل، لا بد أنها الإشارة التي تحتاج إليها، لأنها الآن، وهي تجلس أمام الطبق الفارغ الذي تناولت منه وجبة طعامها -بضع شرائح من الخبز مع المخللات- بينما كان ذلك الكتاب متكئاً على حافته بجوار حافظة المخللات وعلبة السكر الفخارية وقنينة الحبوب المضادة للحموضة،

بـدأت تراودهـا أفكار كان يجـب أن تخطر ببالها في وقت سـابق؛ أفكار وخطط أشبه بمجموعة من أوراق الشدة التي وُزعت إليها، وكانت جديرة بالتأمل.

بـدأتْ تومـئ لنفسـها، بصـورة غير واعيـة إنما مشـجِّعة، في الشـارع الكائن في الأسـفل، الذي أصبح الآن أهدأ مما كان عليه قبل ساعة أو ساعتين، مرّتْ سيارة بصفارة إنذار، كان صوتها أشبه بمسـمار معدنـي يثقب طبلـة الأذن، لكـن بريما بالـكاد أعارتها اهتماماً، مع أنها جعلت جميع كلاب الحي تنبح.

ولأنهـا أخذت موعداً، وهـو الأمر الذي كلَّفها قـدراً كبيراً من التـردد والعذاب النفسـي الذي مـا كان لأحدٍ أن يفهمه سـواها، فقد وصلتْ بريما إلى مكتب تارا الواقع في سوق سري أوروبيندو فـي موعدها عند تمام السـاعة الثالثة من بعـد ظهيرة أحد أيام الجمعة، وشـعرتْ بشـيء من خيبة الأمل عندما وجدت أن مكتب تـارا ليس في ناطحة سـحاب حديثة وبرّاقـة، بل في حي منعزل فوق محل تصوير متسـخ، وهناك سهم صغير على الجدار يشير إلى درجات السـلم، التي كانت، هي الأخرى، غير مكنوسـة شأنها شـأن درجات سـلم المبنى الذي تقيم فيه، أما المكتب نفسـه، فقد شـعرت بالراحـة عندمـا وجدتـه مضيئـاً ونظيفاً، حيـث طُليت جدرانـه قبـل مـدة قصيـرة، ويحتوي علـى نبتة طويلـة مزروعة ضمـن آنية فخارية في الزاوية، بدت النبتـة مزدهرة ويانعة، كما أن هنـاك مجموعـة مـن الرفوف التـي صُفَّت عليهـا آخر الكتب المنشـورة فـي مطبعـة تـارا، حيـث وُضعـت الكتـب الأحـدث فـي الواجهـة. كانـت كتباً جذابـة جداً وصغيرة الحجـم، لكن الألوان

الموجودة على أغلفتها تتراوح بين الأحمر الضارب إلى البني واللازوردي والأخضر الطحلبي، وعلى كل واحد من تلك الأغلفة يوجد لوحة مصغَّرة مطبوعة في الوسط فوق عنوان الكتاب وأسفل اسم المؤلف، وهو ما جعل بريما تشعر بخجل شديد من حالة الكتاب ذي الغلاف الورقي الذي أحضرته معها كي تذكّر تارا به. وبينما كانت السكرتيرة تدير قرص الهاتف على رقم تارا كي تعلمها بمجيء زائرتها، ألقت بريما نظرات فاحصة على تلك الكتب الجميلة والمرغوبة، وتعرفتْ إلى بعض أسماء الكُتّاب، في حين تساءلت في سريرة نفسها عن بعضهم الآخر. بعد ذلك فُتح الباب وظهرت تارا، وقد رفعت نظاراتها الداكنة على شعرها، الذي وجدتْه بريما الآن مسايراً للموضة في توهّجه الأحمر الناجم عن استخدام الحنّاء، ترتدي فستان ساري أنيقاً على الرغم من بساطته الشديدة، كان منسوجاً من القطن الأبيض الناعم الموشّى بحواشٍ سوداء، من النوع الذي لا يخطر ببال بريما أن تلبسه في يوم من الأيام. بدت منشغلة بعض الشيء، لكنّها تذكرت الموعد الذي ضربته لزميلتها، وهو شيء يرضي الغرور بحدّ ذاته. دعتْ بريما للدخول إلى مكتبها الذي كان أكبر من غرفة الاستقبال الصغيرة لكنه أقل ترتيباً منها، حيث أباريق القهوة من الخزف موضوعة وسط الكتب الموجودة على طاولتها، بالإضافة إلى وجود أثر لرائحة دخان سجائر.

- كان شيئاً رائعاً أن أراك في ذلك اليوم.

بدأت بريما كلامها، متعمِّدة الابتسام بهدف إخفاء تلك التجاعيد المخيبة للآمال، لكنها عندما شاهدت تارا وقد بدت

عليها علامات نفاد الصبر إلى حدٍّ ما، قررت الخوض مباشرة في الحديث عن الهدف من زيارتها. وضعت الكتاب الذي أحضرته معها على المكتب بين الكتب وأباريق القهوة، ثم قالت:

- عندما قلتِ إنك تفكرين في منح تفويضات للترجمة من اللغات المحلية، إذ يوجد لدينا الكثير من هذه اللغات العظيمة، وتسليط الأضواء على كُتّابنا وكاتباتنا الذين لم يطلع القراء على آثارهم الإبداعية، فكّرتُ بسوفارنا ديفي.

كان عليها أن تتوقف لالتقاط أنفاسها، فقد تكلمتْ بسرعة كبيرة وكادت تلهث، ثم تابعتْ:

- إنها كاتبة عظيمة، وما من أحد هنا حتى يعرف اسمها، إنه لأمرٌ محزن، لكنني متأكدة أنكِ إذا نشرتِ ترجمة لأحد أعمالها الأدبية فإنها ستصبح مشهورة على غرار.. على غرار سيمون دي بوفوار.

وأنهت حديثها بشهقة مفاجئة.

كانت تارا تنصت إليها، مع أنها تعبث بقلم رصاص، وتنظر بين الفينة والأخرى إلى ساعتها، من الجلي أنها مشغولة البال بشيء ما، ربما لديها موعد آخر بعد هذا اللقاء، لكن بعد اتصالها بسكرتيرتها والطلب منها إحضار زجاجة فانتا لبريما، حيث كان يوماً حاراً، بدأت تحكي لبريما عن خطتها في فتح قسم جديد في دار النشر الخاصة بها، وعن الكتب التي تطمح بنشرها تحت دمغة الدار.

- بطبيعة الحال، أنا نفسي لستُ متخصصة باللغة.

قالت معتذرة، ثم أضافت:

- ويلزمني أن أعتمد على أشخاص آخرين، مثل أساتذة الجامعات والنقاد، كي يخبروني بالكتب التي تستحق الترجمة.

وفي الوقت الذي تم الانتهاء فيه من شرب الفانتا -التي تسببت بسلسلة من أصوات التجشُّؤ المُحرجة التي ليس بالإمكان كبتُها بشكلٍ كامل- حيث كانت بريما، الأكاديمية والناقدة، في طريقها للخروج من المكتب، كان قد تم الاتفاق على أن تكتب ملخصاً عن الكتاب ونبذة مختصرة عن سيرة سوفارنا ديفي ومسرداً خاصاً بأعمالها، بالإضافة إلى تقديم بضع صفحات -خمس أو عشر- من ترجمتها كنموذج، وحالما تبعث بتلك المواد إليها، فإنها بالتأكيد ستتلقى رداً من تارا حول ذلك في غضون شهر أو شهرين كحدٍّ أقصى.

بعد ذلك اتصلت بها السكرتيرة لتخبرها بوصول الزائر التالي، وطارت تارا من كرسيها لتستقبل الشاب الذي دخل إلى الغرفة فاتحاً ذراعيه على وسعهما، حيث تخلّت عن تهذيبها المعتاد وأصبحت متوقدةً حماسةً بصورة لا تقبل الجدل. بالطبع، كان شاباً في مقتبل العمر ووسيماً، وقد لاحظت بريما ذلك قبل أن تغادر.

* * *

الشيء الذي أحزنني فعلاً عندما غادرتُ المكتب لم يكن مشهد حيوية الشباب وجاذبيته بالنسبة لتارا، بل الفكرة التي خطرت في ذهني وأنا جالسة في الحافلة -حافلة خاصة بالسيدات، ولهذا السبب عثرتُ على مقعد لي- وهي أن تارا لم تطرح عليّ سؤالاً واحداً بشأن صلتي بهذه اللغة، ولم تمنحني فرصة كي

أشرح لها كيف أصبحتُ ضليعة فيها؟ وماذا تعني بالنسبة لي؟ ولماذا حافظتُ على التزامي بهذه اللغة؟ في الوقت الذي كنتُ ألقي فيه المحاضرات المعهودة والمتعارف عليها بالأدب الإنجليزي في كلية للبنات، كان يمكنني أن أخبرها بأمور كثيرة وكثيرة جداً، لكنها لم تعطني فرصة، ولذلك تعيّن عليّ أن أحتفظ بهذه المعلومات لنفسي، كما لو أنها سرّ. لم يكن أحد يعلم حجم العبء الذي يشكله هذا الأمر علي، وكم أنا أتوق لإزاحته عن كاهلي.

لكنني عندما ترجلتُ من الحافلة وارتقيتُ درجات السلم المؤدية إلى حجرتي الكائنة في أعلى المبنى، وجدتُ أنني قادرة، وبمنتهى الإعجاز، على تحرير نفسي من ذلك العبء. وما إن أخرجتُ الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي لاحظتُ أن صفحاته بدأت بالتخلخل، وسحبتُ قصاصة ورق، وشرعتُ أترجم السطر الأول من الكتاب، حتى بدا الأمر كما لو أنني مُنحتُ مفتاحاً سحرياً سيفتح لي بقية سطور الكتاب وصفحاته.

(كانت السماء قد بدأت تمطر، وكان الظلام قد حل).

لكن لا.. في الحال كان بوسعي أن أرى كم بدا ذلك عديم الإحساس، وكم يفتقر إلى الروح! أين موسيقى النص الأصلي وإشراقه؟

(بدأ المطر يهطل، وكانت العتمة تغمر القرية).

نعم، نعم.. كم هي سهلة رؤية أن هذه الكلمات تُحدث الأثر المطلوب، بينما ليست الأخرى كذلك. واصلتُ الترجمة بوتيرة سريعة مع استمرار ذلك الإحساس المتعلق بما هو صحيح وما

هو غير صحيح، وهي موهبة تتسم أحياناً بالمراوغة، ولذلك ينبغي استحضارها وإبقاؤها على أهبة الاستعداد، وهي تتجلى في الانتقاء والإدراك والاعتراف، كنتُ مجرد قناة توصيل، أو بالأحرى صلة وصل بين تلك اللغة وهذه اللغة، لكنني أنا التي كنتُ أقوم بالانتقاء والتمييز، وأنا الوحيدة التي تستطيع أن تفعل ذلك؛ حتى الكاتبة نفسها لا تستطيع فعل ذلك. كنت أفسِّر النص لها لأنني أمتلك السلطة، لعل هذه كلمة قوية جداً، كلمة «القدرة» تبدو أنسب. وكنتُ أنا أيضاً الشخص الذي يعلم ماذا تقصد، وأي عوالم تثيرها كلماتها، ليست تلك عوالمي أنا، بل عوالم أمي، بالكاد أتذكرها أو أتذكر تلك السنوات المبكرة التي أمضيتها في حِجْرِها؛ كنت أتخيل ذلك فقط. لستُ متيقنة تماماً ما إذا سبق لي أن شاهدتُ في الصباح أزهار شجرة الياسمين التي تتفتح أثناء الليل، أو البركة التي تفتحت فيها أزهار اللوتس الزرقاء، وأطلقت فيها النحلات الطنانة السُّكْرَى أصواتَ أزيزها، أو سمعتُ صوتَ خُوار الماشية وهي تشق طريقها باتجاه مأواها عند الشفق، لكن بصورة غير واعية اكتشفتُ أنني أعرف تلك العوالم كما تعرفها هي، بل اعتبرتُ أن ترجمة كلمات سوفارنا ديفي ونصها الأدبي إلى الإنجليزية ليس شيئاً مختلفاً جداً عما شعرتْ به هي نفسها حينما كتبتْها بلغتها هي، التي هي في نهاية المطاف تمثل نوعاً من الترجمة؛ أي ترجمة ما تشاهده وتسمعه وتشعر به إلى جُمَل. وأنا، التي ورثتُ هذه اللغة، كنتُ أفهمها وأفهم سوفارنا ديفي بطريقة ليس بمقدور أحدٍ مجاراتي بها، وذلك من خلال

الغريزة والتقمص العاطفي. لقد جمعَنا فعلُ الترجمة معاً كما لو أننا أختان، أو حتى كما لو أننا شخص واحد؛ نصفان منسجمان من كاتبة واحدة.

بطبيعة الحال، واجهتني بعض المواقف، أو العثرات الصغيرة، عندما لم أكن أستطيع العثور على الكلمة أو العبارة الدقيقة، ففي لغة سوفارنا ديفي، كانت كل كلمة تستحضر عالماً كاملاً؛ أما المقابل الإنجليزي، عليّ أن أعترف، فلم يكن يفعل ذلك. الغيمة والرعد والمطر والغابة والبركة الصغيرة والديك والعجل.. كم ستبدو هذه الكلمات قاصرة إن لم تستطع استحضار المَشهد وأصواته وروائحه، ستكون أشبه بصور بلا ظلال، ربما هناك حاجة لإضافة صفة أو اثنتين أو حتى ثلاث صفات.

جرَّبتُ استخدام الصفات، في النص الأصلي قلما استُخْدِمتْ هذه الصفات، لكنني كنتُ أحتاج إليها كي أعوِّض ما فُقِد في الترجمة. بالطبع، باستطاعتي أن أرى أن التحفظ في هذا الأمر مطلوب، ويتحتم عليّ التقيد بهذا التحفظ، إنما ليس بشكلٍ مبالغٍ فيه، بل ينبغي البحث عن طريق وسط يفضي إلى الاعتدال.

ضحكتُ بصوت مرتفع، وضربتُ بيدي على جبهتي عندما استعرضتُ في ذهني كل التوترات ومجريات الأحداث التي واجهتُها في حياتي، وكيف بدأتْ تتجلى آثارُها، لم يسبق لي أن أحسستُ بمثل هذه القوة، كما لم يسبق لي أن امتلكتُ هذه القوة أو شعرتُ بنشوة امتلاكها أو بالارتباك الناجم عن ذلك كما أفعل الآن.

توقفتُ فقط عندما أدركتُ أن الليل قد أرخى سدوله في الخارج، وأصبحت الغربان صامتة وأضواء الشارع متوهجة، في حين حركة المرور تتراجع وهديرها يخفت متحوِّلاً إلى مجرد دمدمة منهَكَة. وكان جهاز التلفاز في شقة صاحبة المبنى يعمل بأعلى صوته لحلول موعد مسلسل المساء، حتى إنني لم أنتبه لذلك من قبل.

دفعتُ شعري إلى الوراء، وكأنني أنا أيضاً لدي نظارات داكنة جاثمة هناك في أعلى رأسي، أو خصلة شعر تلمع بلون أبيض مميز على غرار تارا! نهضتُ من مكاني والتقطتُ محفظتي، ثم نزلتُ السلّم وقطعتُ الشارع، قاصدة الحانوت الصغير الذي أشتري منه أحياناً الأشياء الضرورية، مثل قطعة من الصابون أو علبة من الشموع خلال انقطاع التيار الكهربائي، لكنني الليلة اشتريتُ علبة من السجائر، لم تكن من نفس العلامة التجارية التي شاهدتُها على مكتب تارا، والتي كنتُ أرغب بتدخينها، بل من نوع أرخص يتعامل به صاحب الحانوت. لم يحصل من قبل أن اشتريتُ السجائر منه، لذلك أرسل إليّ نظرة غريبة، لقد تعرَّف عليّ بالطبع، لكنني لم آبه بما جال في خاطره، واكتشفتُ الآن تحديداً أن هناك أموراً لا أحتاج إلى أن أعيرها اهتماماً، وقطعتُ الشارع مجدداً، وعلبة السجائر في محفظتي، حيث صعدتُ إلى الرصيف في الوقت المناسب لأتحاشى عربة جنركشة آلية مقبلة من شارع فرعي، سائقها يغني بأعلى صوته، فرِحاً بعودته إلى البيت طليقاً في نهاية عمله اليومي، كدتُ أعجز عن مقاومة رغبتي في الانضمام إليه ومشاركته الغناء قبل أن أصعد

درجات السلّم إلى غرفتي لأرى مدى تأثير تدخين السجائر عليّ وعلى مهنتي الجديدة.. أنا المترجمة بريما جوشي.

أعترف أن تدخين سيجارة كان أمراً مختلفاً، ولم يتكلل بالنجاح، سررتُ لأنه لم يكن أحدٌ هناك ليلاحظ كيف قوَّستُ جذعي ورحتُ أسعل، ثم أطفأتُ تلك السيجارة البغيضة، وأنا أشعر بالإحباط.

* * *

انتهتْ بسرعة من كتابة ملخص عن النص ومن ترجمة الصفحات التي كان مطلوباً منها تقديمها كعيِّنة، بل كان يساورها قلقٌ من أنها ربما أنجزت تلك المهمة على نحوٍ أسرع من اللازم، لكنها وجدتْ أنها في الحقيقة لا تريد أن تبطئ أو توقف هذا الزخم الذي يعتمل في داخلها، وهكذا دست الأوراق التي أنجزتها في مغلف ورقي بني اللون، وأخذتها إلى البريد كي ترسلها إلى دار النشر بالدرجة عينها من الحماس الذي كتبتْ به تلك الأوراق.

طلبت تارا من سكرتيرتها أن تتصل ببريما لتطلب منها الاستمرار في الترجمة، كان ذلك شيئاً مخيباً للآمال، إذ لم تكن بريما تتوقع أن تتعامل مع وسيط. وهكذا تم القيام بالخطوة الأولى، وأخذت بريما نفَسَاً عميقاً، وقد باتت الآن على شفير الانطلاق في مهنة جديدة.

أما مهنتها القديمة فقد بدأت تبدو مضجرة بالنسبة لها، فأصبحت محاضراتها روتينية؛ ولم تعد تبالي ما إذا فقدت تلك المحاضرات قدرتها على إلهام طالباتها وتوليد ذلك الولع الذي

كانت تحس به نحو الأدب، فما الذي تعنيه روايات مثل (المطحنة الواقعة على نهر الفلوس) و(إيما) و(إقناع) بالنسبة لتلك الفتيات؟ كانت تصحح أوراقهن بتبرُّم، فتمر عليها مروراً سريعاً دون أن تتوقف كي تصحح أخطاءهن الغريبة وتمثلاتهن المغلوطة، لم تكن لتأبه بذلك، فكل واحدة من أولئك البنات ستترك الدراسة في الجامعة لتتزوج وتنجب الأطفال، وبعد ذلك لن يقرأن كتاباً آخر، وهذا سيشكِّل مصدر ارتياح كبير لكل واحدة منهن.

كل ما يهم الآن هو القيام بترجمة رائعة قدر الإمكان لقصص سوفارنا ديفي، التي كانت بسيطة جداً في لغتها وتراكيبها، ومع ذلك هي مؤثِّرة وقوية بشكلٍ مذهل!

باتت تجربة الترجمة تنطوي على جوانب لم تتخيلها بريما عندما شرعت في نقل القصص من الأورية إلى الإنجليزية، وقد ذكَّرتها هذه التجربة، على سبيل المثال، بالعناء الذي كابدتْهُ عندما كتبت القصص وهي في مقتبل العمر، بل وهي صغيرة السن، وكيف كانت ترسل تلك القصص إلى المجلات لتُعاد إليها بعد ذلك مرفقة بقصاصات رفض مقتضبة، كما تذكرت الألم والمرارة اللذين كانت تشعر بهما وهي تتفجع على تلك القصص عندما ترميها جانباً، وكيف جعلها الشعور بالإحباط تعترف بأنها ربما ليست كاتبة على الإطلاق.

يمكنها الآن أن تضحك على قصاصات الرفض تلك، وعلى الأثر العميق الذي تركته بداخلها، حيث سمحت لأثرها الهدَّام بأن يتسلل إليها إلى أن ذوت في أعماقها رغبتها المتأجِّجة في الكتابة وفتر طموحها.

لقد أدركت أن كل ما تحتاج إليه هو هذه الفرصة المناسبة، هذه الدعوة التي وُجِّهت إليها من قبل تارا دون غيرها من الناس كي تكتشف موهبتها الحقيقية. إنها يقيناً الدعوة المناسبة طالما أنها منحتها هذا الشعور الجديد بالطمأنينة، وهذه السرعة في الإنجاز، وهذه البهجة في العمل.

وهكذا أنجزت العمل بصورة أسرع مما توقعتْ هي، أو ربما تارا، وعندما قامت بطباعته رافقها إحساس معين بالندم والذعر، بعد ذلك طلبت من طبّاع تعرفه ويعمل في محل للتصوير يقع أسفل الشارع أن يعيد طباعته بصورة أفضل.

- لا تبالي يا خالة.

قال لها الطبّاع، مضيفاً:

- سيبدو كالنصوص المنشورة.

وأخذت رزمة الورق بطريقة رسمية إلى مكتب تارا. كان إرسال النص المترجم بالبريد ممكناً بالطبع، وربما مهنياً أكثر، لكنها لم تكن تستطيع مقاومة ذلك الإحساس بالرضا الذي ستشعر به من جرّاء تسليم النص بنفسها ورؤية علامات الاستحسان ترتسم على وجه تارا. كان الانتهاء من هذا العمل يحتاج بشكلٍ أو بآخر إلى الاهتمام والمكافأة.

لسوء الحظ كانت تارا مسافرة، حيث قالت السكرتيرة لبريما إنها تحضر مؤتمراً في براغ، وستعود في غضون أسبوع، مضيفة أنها في حال تركت المخطوطة فسوف تُسلَّم إلى تارا عندما تعود من رحلتها، وأنه بإمكان بريما أن تتوقع الحصول على ردٍّ منها في أقرب وقت.

لكنها لم تتلقَّ جواباً، لقد تريّثت تارا في الرد، وبدا لبريما أنه وقت طويل جداً.

في الواقع، استبدَّ الشعور بخيبة الأمل لدى بريما، وتطوَّر إلى شكلٍ من أشكال نفاد الصبر، ثم تحوَّل بعد ذلك إلى شعور بالانزعاج لكونها عوملت بهذه الطريقة، وتُركت تنتظر كما لو أنها تقف في طابور بين عدد كبير من الناس الذين يتزاحمون للفت انتباه تارا. ألم يكن لديها أدنى درجة من المراعاة لما يمكن أن تشعر به مؤلفة -أو بالأحرى مترجِمة- عندما يتم تجاهلها وتركها وسط العتمة، وهي تنتظر متمسكة بأملٍ ما؟

كانت تستطيع أن تشعر بوجود التجاعيد المنتشرة على جبينها، وتلك الممتدة من منخريها إلى فمها وهي تزداد عمقاً يوماً بعد يوم، كانت تخاطب طالباتها بكلمات لاذعة، وبقسوة بالغة تصحح أوراق الامتحانات الخاصة بهن، وتعطيهن علامات متدنية، إنها تعرف أنهن يعددنها غير عادلة وعكرة المزاج وبليدة، لكن لماذا هنّ يعتبرن أنفسهن جديرات باهتمامها؟ هن لا يستأهلن هذا الاهتمام، لا يستأهلنه على الإطلاق، فهي مترجمة، وكاتبة!

وفجأة تغيّر المناخ، وهبَّت نسمةٌ مباغتة ملأت أشرعتها، ووهبتها الأمل، وأعطتها دفعة إلى الأمام في نهاية المطاف.

لقد تلقت اتصالاً من تارا، في البداية تحدثت سكرتيرتها معها، ثم تحدثت تارا بنفسها لتخبرها أنها سُرَّتْ بالمخطوطة، وأنها وافقت على الترجمة وسوف تنشرها؛ ثم أضافت أنها ستظهر في أول قائمة من الأعمال المترجمة التي ستصدر عن دار النشر التي تمتلكها.

لكن في الحقيقة لم تُبدِ تارا حماسة حقيقية تجاه هذا الموضوع، فهي غير مسرفة في التعبير عن عاطفتها، وفي الحقيقة، حتى لم تقل إنها تعتقد أن الترجمة «جيدة»، بل قالت إنها «جيدة إلى حدٍّ ما»، هل هناك وصفٌ أكثر فتوراً؟

كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى تحطم بريما مثلما سيحصل فيما لو قوبلت بالرفض الصريح، لكن تارا، بعد إطلاقها ذلك الرأي المتهاون، قالت إنها ستتصل بالكاتبة سوفارنا ديفي كي توقع معها عقداً، وطلبت من بريما أن تخبرها كيف يتسنى لها أن تفعل ذلك.

وهكذا فجأة لم يكن على بريما الانشغال فقط بالملاحظات والاقتراحات التي دونتها تارا فيما يتعلق بترجمتها، وذلك في الوقت الذي كانت فيه طالباتها يقدمن امتحاناتهن، الأمر الذي يعني أن أوراقهن سوف تنهمر عليها حالاً كي تقوم بتصحيحها، بل عليها أن تشغل نفسها أيضاً بالعثور على مكان إقامة سوفارنا ديفي، لماذا لم تفعل بريما ذلك عندما كانت موجودة في المدينة الأمّ للكاتبة؟ ولماذا لم يردّ ناشر الكتاب الأصلي، الذي كان من الواضح أنه أحد سكان تلك المدينة نفسها، على استفساراتها؟

بدت هذه الأمور كلها عسيرة ومُحبِطة بصورة لا تُصدق، إلى أن راودتها فكرة الكتابة إلى عميدة كلية البنات التي أمضت فيها ذلك الصيف، وتلقّت على رسالتها جواباً مرفقاً بعنوان الكاتبة، لكن مع تحذير بأن الكاتبة توجد في أغلب الأحيان في المناطق القبلية برفقة زوجها الذي يدير مجموعة من العيادات الطبية هناك، وهو المكان الذي يبدو أن الكاتبة عثرت فيه على مادة غنية لكتابة القصص المُحزنة، التي وجدتها بريما مؤثرة جداً.

ومضت الأسابيع من دون أن تتلقى بريما جواباً على رسالتها التي قدّمت فيها نفسها، وحكت فيها للمؤلفة عن دار النشر التي تمتلكها تارا، وتوجهها الجديد لنشر الكتب المترجمة، فهل توافق على اقتراح بريما وتارا بنشر قصصها القصيرة؟

مرة أخرى كانت هناك حقبة زمنية طويلة جداً من الانتظار، ووجدتْ بريما أنه من الصعب عليها مواصلة الأمل بشق مسيرتها الجديدة حيال صمتٍ من هذا النوع. حاولتْ أن تكون صبورة، وقالت لنفسها إن البريد في تلك المناطق الحدودية المليئة بالغابات لا بد أن يكون بطيئاً وغير معوّلٍ عليه، لكنها في الوقت عينه أحسَّت بأن شيئاً بهذا القدر من الأهمية يجب أن يلفت الانتباه وينتزع رداً ما.

في الختام جاء الرد بهيئة رسالة مكتوبة على عدة أوراق صغيرة من أوراق القرطاسية الصفراء، حيث كانت كل ورقة مزيَّنة بوردة حمراء مطبوعة في زاويتها العليا، لا بد أنها تخص امرأً غير معتاد على كتابة الرسائل إلا في تلك المناسبات التي تتطلب تزيين الورقة بوردة، تأثَّرت بريما، وساورها شيء من الخوف؛ فالرسالة لا تدل على المهنية.

مع ذلك، أخذت الرسالة وتوجهت مباشرة إلى تارا وهي تشعر بشيء من الإثارة، وترجمت السطور القليلة التي عبّرت فيها الكاتبة عن شكرها على الاهتمام الذي أبدته نحو «عملها الأدبي المتواضع»، وتساءلت تارا كيف يمكنها أن توقع عقداً مع كاتبة قد لا تكون قادرة على قراءته، لكن بريما طمأنتْها إلى أنه من المستبعد أن يحدث شيء كذلك، فهي في النهاية كاتبة، ولها

عدة كتب منشورة، كما أن زوجها الذي يعمل طبيباً سيساعدها بالتأكيد في قراءة العقد، هذا الأمر شجَّع تارا على المباشرة به.

مرت بريما بأوقات سعيدة بعد ذلك، حيث شعرت بأنها تستطيع زيارة مكتب تارا في أي وقت تشاء لتتشارك وإياها الملاحظات التحريرية، التي كانتا تدرسانها معاً، ولمناقشة بعض المسائل مثل الهوامش والملاحق، وأيضاً لتفحّص الألواح والبروفات الطباعية، وانتقاء الصورة المناسبة للغلاف الأخضر الذي اختارتاه، والحرف الطباعي الفني الذي يتماشى مع تلك الصورة، وهو الخط الروماني بالطبع، ولكن مع زخرفة سنسكريتية.

شعرت بريما بفرح غامر، وأشرق وجهها مثلما لم يشرق من قبل، وشرعت تارا تفتش عن عناوين أخرى لتنشرها تحت الدمغة الجديدة للدار، وكانت أحياناً تشرك بريما في النقاش حول تحفة أدبية أخرى اكتشفتها، كما أنها تستشيرها فيما يتعلق باختيار مترجم مناسب، وأصبحت بريما مرحة جداً، وشرعت تبتسم وتضحك حتى مع طالباتها اللاتي أخذن يتساءلن ما إذا كانت قد وجدت لنفسها عشيقاً. وكانت تلك الفكرة تدفعهن إلى الانفجار بالضحك، كما أضحى الأمر موضع سخرية لديهن، حيث كانت بريما أحياناً تضبطهن وهن يفعلن ذلك، وهو ما يجعلها ترتاب من أنهن يسخرن منها.

بعد ذلك، ومن خلال تواصلها الجديد مع عالم النشر، علمتْ أن هناك مؤتمراً للمؤلفين الذين يكتبون بـ«اللغات المحلية»، والذين لا يوجد لهم منفذ لترويج أعمالهم في الأسواق الكبيرة وإيصالها إلى أكبر عدد من القراء.

«تارا»، ألفتْ بريما نفسها تقول بثقة وتفاؤلٍ لم تكن تمتلكهما من قبل، وهو ما جعلها تتخيل بأنها تدفع للوراء خصلة شعرها البيضاء (غير المرئية) والنظارات الفاخرة والداكنة غير الموجودة أصلاً، ثم تابعتْ:

- علينا أن نتأكد من أن سوفارنا ديفي مدعوة لحضور هذا المؤتمر.

تم الاستعجال في طباعة كتابها لكي يخرج من المطبعة في الوقت المناسب استعداداً للمؤتمر، ولم يعد بوسع بريما أن تفكر في موضوع آخر؛ الكلية، الطالبات، الامتحانات، كلها انكفأت في ذهنها صفحةَ إثرَ صفحة، ووجهاً بعد وجه، متحوِّلة إلى شيء ضبابي يلوح من بعيد، واحتل الجزءَ الرئيسَ من عقلها كتابٌ صغيرٌ وجميلٌ بلونه الأخضر الطحلبي، يحتوي غلافه على لوحة تجسّد فرجة في غابة من غابات مقاطعة كنغرا الهندية، ويحمل اسم سوفارنا ديفي المنضَّد بالحروف الرومانية الأنيقة ذات الزخرفة السنسكريتية. كان الشاب الذي اقتحم مكتب تارا في لقائهما الأول هو ذلك «العبقري» الذي صمم الغلاف، وفي داخل الكتاب، كانت هناك الكلمات الآتية: (ترجمة بريما جوشي)، صحيحٌ أنه ليس بنفس الخط الملون، لكنه مع ذلك كان مطبوعاً بخط أسود على خلفيةٍ بيضاء، لم يكن يقبل الجدل.

وعندما وصلت بريما إلى قاعة المؤتمر التي عُلِّقت فيها الرايات الأرجوانية والبرتقالية من أجل تلك المناسبة، ذهبتْ مباشرة إلى الكشك المقام في البهو المخصص لعرض كتب المؤلفين الذين أقبلوا من كل أرجاء الهند بغية حضور المؤتمر،

وتكاد ترتعش من شدة ترقبها لرؤية الكتاب الذي أبدعته بالتعاون مع سوفارنا ديفي.

من المؤكد أن تلك اللحظة كانت تمثل ذروة حياتها، حتى لو لم تكن هناك أبواق ذهبية للإعلان عنها، فقد استعدت لها بأعصاب متوترة كما لو أنها تستعد لحفلة من الحفلات، وأخرجت من خزانتها فستان ساري اشترته لتلبسه بمناسبة زفاف إحدى بنات عمها، لكنها لم تلبسه منذ ذلك الوقت؛ كانت للفستان حاشية حمراء عريضة ذات زركشة ذهبية، وارتداؤها لذلك الفستان بخاصة يشكّل إبرازاً للذات. لكنها حين لبسته، وراحتْ تسوّي الطيات التي حول وسطها طية طية، نفرت منه بشدة، معتبرة أن اللجوء إلى اللباس الرسمي عملٌ أحمق، ثم خلعته ولبست بدلاً منه فستانها الذي ترتديه يومياً، هذا الأمر جعلها تتأخر عن موعد المغادرة، حيث وصلت إلى قاعة المؤتمر وهي مرتبكة من دون أن يكون لديها متسع من الوقت لتمشط شعرها، وأسرعت مباشرة إلى كشك الكتب، شعرتْ بأن عينيها قد غطتهما غشاوة حينما وقع نظرها على الكتاب، لكن ربما يرجع ذلك إلى أنه كان محجوباً عن الأنظار بسبب وجود عناوين أخرى بحروف أكبر وبأغلفة براقة وصقيلة أكثر، وحتى سوقية إلى حدٍّ ما، كما رأت. وبعدما ابتلعتْ ما شعرت به من إهانةٍ من جرّاء ذلك، تسللتْ خلسة وأعادتْ ترتيب الكتب بسرعة، بحيث يصبح كتاب سوفارنا ديفي في الأعلى، والكتب الأخرى تحته، ثم تابعت سيرها. كان من المقرر أن يفتتح المؤتمر وزيرُ التربية، حيث طُلب من الجميع أن يجلسوا في مقاعدهم قبل أن يدخل الوزير وحاشيته إلى قاعة المؤتمر.

دوّى مكبر الصوت بشدة، ثم بدأ يفرقع ويهدر، فتحرَّك بعض الرجال المتوترين بسرعةٍ هنا وهناك في محاولةٍ منهم لضبط الصوت، وراحوا يصيحون بالتناوب:

- أوقفوا الصوت، أوقفوا الصوت.

ثم أعلنوا بعد ذلك:

- حسناً، تابعوا.

وجلس الوزير مسترخياً في كرسيه، وقد بدا عليه الاشمئزاز. جلس «ضيوف الشرف» الذين احتلوا الصفوف الأمامية باستقامة ومن دون حراك، بانتظار أن يتم الانتهاء من الترتيبات والبدء بفعاليات المؤتمر، وشعرت بريما بالارتباك لأن الأمور لا تسير بانسيابية، لكن بالطبع هكذا هي بداية مثل هذه الفعاليات، وربما في المناطق التي ينحدر منها أولئك الكتّاب لم تكن الأمور مختلفة عما هي عليه هنا.

وفي نهاية المطاف ألقى الوزير كلمته، قرأها ببطء كأنه لا يعتقد أن بوسع ضيوف الشرف، الذين يمثلون العديد من اللغات المختلفة، أن يتابعوا ما يقوله، أو لعله كان دائماً قارئاً بطيئاً، ففي كل الأحوال، كُتبت له هذه الكلمة من قبل شخص آخر. وبعد ذلك تحدث رجلٌ أصغر سناً منه، لعله كان وزيراً أقل أهمية، لكنه ألقى كلمته بسرعة شديدة لكي يتمكن من تغطية أكبر قدر منها ضمن الوقت المخصص له، وعلى الرغم من ذلك بدت كلمته للسواد الأعظم من الجمهور طويلة جداً. على أية حال، كان جميع الحاضرين في هذا المكان قدموا ليستمعوا إلى ما سيقوله الكتّاب وليس إلى البيروقراطيين، وقطع

معظم هؤلاء الكتّاب مسافات طويلة كي يصلوا إلى العاصمة، مصطحبين معهم أوراقاً كتبوها بأنفسهم ليقرؤوها على مسامع الجمهور، كانوا يقيمون في فنادق حكومية منتشرة هنا وهناك في أرجاء المدينة، وقد اجتمعوا سوية لأول مرة، وفي جعبتهم أشياء كثيرة يودون التحدث بها عن أنفسهم، وبعضهم إلى بعض.

جلست بريما في الصفوف الأخيرة، وراحت تنظر إلى مؤخرات رؤوس الكتّاب والكاتبات، متسائلة: أيُّ رأس من تلك الرؤوس هو رأس سوفارنا ديفي؟ حيث كانت تعتبر نفسها وصية عليها، وتفكر فيها بشغف، بل بنوعٍ من الاحتكار، لكنّ بين الوفود التي حضرت هناك عددٌ كبير مَن السيدات، ولم تكن بريما تعرف أي واحدة منهن شخصياً. يتعين عليها الانتظار ريثما تنتهي الكلمات الرسمية، وتتم مرافقة الوزير إلى الردهة، ثم تتجول بين المدعوين وتحاول أن تخمن من منهنَّ هي كاتبتها، أو بالأحرى جائزتها.

لم تكن قد رأت صورة فوتوغرافية لسوفارنا ديفي، وقد قيل لها إنها مُحبَّة للعزلة، وإنها قلما تغادر مدينتها الأم وضواحيها، وهذا كل ما تعرفه عنها، ولذلك فتشت بريما بين الأطراف الخارجية من الحشد الذي يتألف من وفود أكثر اجتماعية وحيوية، فهناك الكثير من هؤلاء. في الواقع، كانت جلبة الأصوات تتعالى بسرعة نحو القبة الوردية الكبيرة المشيَّدة من الحجر الرملي والواقعة فوق رؤوسهم إلى أن قاطعهم إعلان يقول:

- فقرات المؤتمر ستتواصل الآن.

إن كان هناك مِن شخص لديه اهتمام بالتنوع اللغوي الموجود في الهند، فمن المؤكد أن هذا هو المكان الذي ينبغي عليه الوجودُ فيه، ليس المكان فحسب، بل اليوم والزمان أيضاً. وصعد أعضاء الوفود واحداً إثر الآخر إلى المنصة ليُقابَلوا بالتصفيق من قِبَل قرائهم المحددين ومحرريهم وناشريهم، فصفَّق البنغاليون من الجمهور للمؤلف البنغالي، والكوجاراتيون للكاتب الكوجاراتي، والبنجابيون للكاتب البنجابي، وهلمَّ جرّاً. في البداية، حاول المترجمون ببسالة مجاراة الجلبة والصخب العارمين، لكنهم ما لبثوا أن تقهقروا وتراجعوا.

وباقتضاب أُعلنتْ فترةُ استراحةٍ لتناول وجبة الغداء، حيث كان بمقدور جميع الحاضرين أن يحتشدوا في الردهة مجدداً، وأن يرفعوا أغطية الصحون الكبيرة المصنوعة من الفولاذ، وأن يغرفوا من شتى أنواع الأطباق ذات النكهة الخاصة، والتي تتصاعد منها الفقاعات، لينتقلوا بعد ذلك إلى الصحون الزجاجية الصغيرة التي كانت تحتوي على الحلويات ذات الطعم السكريّ الزائد.

في وقت متأخر من ذلك اليوم الطويل أُعلن أخيراً اسمُ سوفارنا ديفي، وأنها ستكون المتحدثة التالية، في ذلك الوقت كان واضحاً أن الكثير من المدعوين استسلموا للخدر الناجم عن تناول وجبة الطعام الكبيرة والتعرض لحرارة ما بعد الظهر.

كانت سوفارنا ديفي هي الأخرى مرهَقة من الإجراءات التي سبقت صعودها المنصة، هذا هو انطباع بريما الأول، فقد بدت متعبة جداً وبعيدة جداً عن الحشد المسرور والقانع، تتدثر

بفستان ساري رمادي من القطن، وتلبس شالاً من الواضح أنه عيّنة من المنسوجات التي تُحاك في منطقتها، حيث كانت ألوانه زاهية بصورة غير لائقة، وتضع على أنفها نظارات ذات إطارات فولاذية، وبنبرةٍ خفيضة وسريعة قالتْ سوفارنا ديفي بضعة أسطر باللغة التي تكتب بها، لكن لم يفهم كلامها إلا عدد محدود من الجمهور.

بالطبع، فهمت بريما ما الذي قالته، وبعد خيبة الأمل الأولية التي شعرت بها لأن الحضور الشخصي لكاتبتها على المنصة كان غير مؤثر وغير جذاب خلال الدقائق الخمس التي وقفت فيها علناً أمام الجمهور، حيث تمنّت لو أن سوفارنا ديفي أكثر ثقة بنفسها وأكثر توهجاً، بل تمنّت لو أنها أكثر شبهاً بشخصية تارا، هكذا اعترفت لنفسها. بدأت تشعر برغبةٍ غير معهودة بأن تضم هذه المرأة المسنّة والمتواضعة تحت جناحها، وأن تحميَها وتساندها كما لو أنها أختها أو إحدى قريباتها المسنّات، بالكاد انتبهت لحديثها، فقد كانت مستغرقة جداً في استيعاب حضور سوفارنا ديفي الجسدي، محاولة أن تربط بينه وبين كتاباتها، التي بنت من خلالها صورة لم يثبتها الواقع إثباتاً كاملاً.

بعد ذلك انتهت وقائع اليوم، وغادر الجميع قاعة الاجتماع، متوجهين صوب الردهة، وبدأت بريما تعدو مسرعة، وقد اجتاحها الاهتياج كما لو أنها خنفساء تهرب من مكنسة، في محاولةٍ منها كي تعثر على مؤلفتها، وتلتقي بها لحظة واحدة فقط أو اثنتين على انفراد، وعندما عثرت عليها أخيراً، كانت تتكلم مع تارا التي استطاعت أن تصل إليها وتحييها قبل أن تتمكن بريما من فعل

ذلك، كان ذلك شيئاً مزعجاً؛ هذا ما شعرتْ به بريما، أليست هي أحق بأن تتكلم أولاً مع الكاتبة التي اكتشفتها واستطاعت أن تطَّلع جيداً على آثارها الأدبية من خلال المجهود الشاق الذي بذلته في دراسة نصوصها، سطراً بعد سطر وكلمة إثر كلمة، وذلك بطريقةٍ لم يجرؤ على فعلها أي شخص آخر؟

ها هي إذن المرأة الخجولة الهرِمة، التي سارعت لحمايتها ومرافقتها، تتحدث مع تارا، التي لا تعرف كلمة واحدة من اللغة التي تكتب بها، وما كانت لتسمع بها أبداً لولا بريما، التي قاطعتهما وهي تصيح قائلة:

- سوفارنا ديفي! آه، وأخيراً التقينا وجهاً لوجه!

ذُعرت سوفارنا ديفي قليلاً، ونقلت عينيها من بريما إلى تارا، كانت تارا هي التي عرّفت إحداهما إلى الأخرى، بصورة رسمية، بدلاً من حدوث العكس، الأمر الذي كانت بريما تتخيل حدوثه.

- بريما جوشي، مترجمتك، ونأمل أنك سُررت بترجمتها لـ..

نأمل؟ هل كان الأمل كل ما شعرت به تارا؟ وجدتْ بريما أنها بالكاد قادرة على التفوه بكلمة واحدة بسبب الغضب الذي تملَّكها، واحتارت كيف تقحم نفسها في الحديث، وكيف تجذب انتباه سوفارنا ديفي، وتجعل تارا تتركهما على انفراد لتناقشا الأشياء المشتركة بينهما؛ الكاتبة والمترجِمة، الأختان روحياً.

بدا كما لو أن تلك اللحظة ستفلت منها، وستتوارى الكاتبة عن الأنظار من دون أن تسمع منها كلمة تقدير تكشف عما كانت تمثله مترجمتُها لها شخصياً، وعندما شبكت يديها ببعضهما وحنت رأسها وهمَّت بالمغادرة، لحقت بها بريما مسرعة، واعترضت

سبيلها، وأصرَّت على أن تقضيا لحظاتٍ قليلةً معاً، كي تتناقشا، ألم تكن تعرف أن هناك مسائل تنبغي مناقشتها؟

بدا وكأن سوفارنا ديفي أُخذتْ على حين غِرّة، لعلها لا تعرف الدور الكبير الذي لعبته بريما كي تقبل شركة تارا نشر مجموعتها القصصية، وتجعل كتابها متداوَلاً بين عدد أكبر من جمهور القرّاء من خلال ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، وبدت مثل كائنٍ جفل من مكان اختبائه في الغابة، أو كواحد من تلك الطيور المرقَّطة والمموَّهة جيداً، والتي تندفع كالسهم تحت الشجيرات إذا ما بوغتت، أما الآن فقد كانت مرتبِكة وحائرة في كيفية الرد عليها، ولكن ما إن أوضحت بريما حاجتها إلى اللقاء بها ثانية على انفراد والتحدث معها، حتى طلبت منها أن تأتي لزيارتها إن أرادت، أو إن كان باستطاعتها، أو إن لم يكن ذلك يسبب لها الكثير من المتاعب، وفي هذه الحالة فإنها ستتفهم هذا جيداً، وستكتب لها رسالة بدلاً من ذلك، في منزل ابن أخيها الذي تقيم فيه، أما الآن فقد آن أوان مغادرتها.. ها هو ينتظر هناك، حيث جاء كي يأخذها بسيارته.

لم تكن بريما تخطط لمثل هذا اللقاء، إذ كانت تريد أن تلتقي مع المؤلفة وحدها لتتمكن من الدخول في نقاش فكري معها حول الكتب والترجمة واللغة، لكن أفراد عائلة سوفارنا ديفي، المكوَّنة من ابن أخيها، وهو شاب متزوج وطبيب أسنان، وزوجته وابنتهما الصغيرة وطفلهما الرضيع ووالدَي زوجته، والذين كانوا جميعاً جالسين على شرفة منزلهم الصغير الكائن في أحد أحياء دلهي الواقع في أطراف المدينة، ويحتسون الشاي

معاً، بذلوا كل ما بوسعهم ليجعلوا بريما تشعر بالحفاوة والترحيب، حتى سوفارنا ديفي نفسها بدت في غاية الارتياح والسعادة بوجودها بينهم، وكانت شخصيتها مختلفة تماماً عن تلك الشخصية الخجولة الخائفة التي ظهرت بها أمام الملأ في اليوم السابق.

وبدا ابن أخيها، وهو شاب دمث وممتلئ الجسم، مرتاحاً جداً، حيث انخرط في الحديث مع بريما باللغة الإنجليزية، وراح يسألها عن الكلية التي تعطي فيها محاضراتها، وبين لحظة وأخرى كان يدّس قطعة بسكويت في الفم المرن للطفل الرضيع، ثم ينتقل للخوض في حديث عائلي مع سوفارنا ديفي بلغتهم الخاصة. قال لبريما:

- لم يسبق لها أن زارتنا من قبل، إنها مناسبة نادرة جداً بالنسبة لنا، أقمتُ في منزلها عندما كنتُ تلميذاً في المدرسة، لم تكن هناك مدرسة في قريتنا، كما ترين لكنني منذ مجيئي إلى دلهي لم أعد إلى قريتنا إلا مرات قليلة، لذلك يتعين عليها الآن أن تروِيَ لنا جميع أخبار تلك المنطقة.

هذا الكلام جعل بريما تشعر بعدم الارتياح وبأنها متطفِّلة، على الرغم من أن زوجته ووالديها لم يتوقفوا عن تقديم أكواب الشاي وصحون الوجبات الخفيفة المقليّة لها، وتساءلت: إلى متى يتعين عليها أن تتصرف بأدب في حالات كهذه؟ فهي لم تعش مع أسرة منذ زمن طويل، وكانت آخر مرة عندما تزوج أبوها للمرة الثانية.

فقط عندما نهضت سوفارنا ديفي على قدميها، ورافقتها عبر طريق المدخل القصير إلى البوابة، حيث تقف في انتظارها

عربة الجنركشة الآلية الخاصة بها، وكان سائق الجنركشة نائماً في المقعد الخلفي، ويجب إيقاظه من غفوته، تمكنت بريما من طرح بعض الأسئلة التي جاءت إلى هنا لتطرحها عليها، أو على الأقل طرحت الجزء الأكثر إلحاحاً منها:

- الآن وقد نُشرت القصص القصيرة، آمل أن تكون الترجمة قد أعجبتك.

لم تستطع مقاومة رغبتها في قول ذلك.

- نعم، نعم، أعجبتني كثيراً، كثيراً جداً.

غرَّد طائر الغابات بنغمة تهدِّئ الرّوع.

كان جوابها هذا مبهماً بصورة محبطة، لكن بريما تابعت طرح أسئلتها، فاستفسرت منها قائلة:

- ماذا تقترحين أن نفعل لاحقاً؟ هل تعملين على إنتاج أدبي جديد؟

بدا أن سوفارنا ديفي لم تفكر في ذلك الأمر، ومن الواضح أنها لم تتناقش مع تارا فيما يتعلق بمستقبل كتاباتها، كما بدت مرتبكة بشدة، ولم تعترف لها بشيء إلا بعدما رفعت مزلاج البوابة كي تسمح لبريما بالخروج، حيث قالت لها:

ربما سأكتب رواية في المرة القادمة، إنني أفكر فيها حالياً.

ثم أطلقت ضحكة غامضة على ما بدر منها من طيش وتقلّب.

- حقاً؟

هتفت بريما بحماسة صادقة في جزءٍ منها ومصطنعة في جزئها الآخر بهدف تشجيع هذه الكاتبة المترددة:

- أرجوك، حالما يكون لديك شيءٌ جاهز للاطلاع عليه، أرسليه

لي، بهذه الطريقة يمكنني أن أبدأ العمل عليه فوراً، ستكون تارا سعيدة جداً عندما تسمع بهذا الخبر، أرسلي لي فصلاً واحداً، أو حتى بضع صفحات في كل مرة، وليس بالضرورة العمل كله.

لكن طائر الغابات الخجول انكمش على نفسه من جديد، بدت شبه خائفة، وهي تشبّك يديها لتقول:

- مع السلامة.

ثم تمتمت قائلة:

- سأفعل، سأحاول.

قبل أن تعود أدراجها مسرعة، وتنضم إلى أفراد العائلة الجالسين على تلك الشرفة الواسعة والمظللة والمضيافة.

وما كادت بريما ترجع إلى منزلها، وتتخلص من حقيبتها المدرسية، وتصب لنفسها كأساً من الماء، حتى رن جرس الهاتف، كانت تارا على الخط، حيث أخبرتها بأن (جمعية الناشرين) دعت إلى مؤتمر صحفي كجزء متمّم لمؤتمر الكتّاب. وقالت بريما مذعورة:

- مؤتمر صحفي؟ ما هدفه؟

بالطبع ستكتشف بريما ذلك لاحقاً، ثم قالت لها تارا باقتضاب:

- عليك أن تحضري إلى هناك.

إنه لأمرٌ مرهقٌ، نظراً لأن هذا المؤتمر يأتي مباشرة في أعقاب مؤتمر الكتّاب واللقاء بسوفارنا ديفي؛ أمرٌ مرهقٌ أن يحصل ذلك كله في وقت واحد، كانت تود أن يكون لديها بعض الوقت كي تنظم الأمور قبل أن تتابع عملها من جديد، ليس بمقدورها تناول الطعام أو النوم تلك الليلة، حيث تملكها القلق إلى أن

حان وقت المغادرة لموقع المؤتمر.

بعدما حُرمت من الوقت اللازم لالتقاط الأنفاس، هي ذي ثانية وقد بدت متعبة بسبب الليلة التي أمضتها بلا نوم، تعتلي منبراً إلى جانب تارا وأشخاص آخرين تعتقد أنهم ناشرون ومترجمون أيضاً، وتُسلَّط على عينيها أضواء فضولية تجعلها تجفل وترمش، وخلال برهة من الزمن، كانت مرتبكة لدرجة أنها بالكاد تستطيع التركيز بما يُقال أو بالشخص الذي يتكلم. كانت ما تزال تنقب بعصبية بين ثنايا أوراقها وكتبها كي تتكيف مع ما تعتبره تسليط أضواء بكل ما للكلمة من معنى، وذلك عندما تحين لحظة الاستجواب المخيف في وقت أسرع بكثير مما تتوقع.

نهض رجل قصير وسمين يرتدي قميصاً ملطخاً بالعرق من المكان الذي كان يجلس فيه داخل القاعة، وحمل المايكروفون ثم قال:

- أود أن أوجه سؤالي إلى بريما جوشي، مترجمة قصص سوفارنا ديفي.

كانت بريما تجلس مشدودة الأعصاب ومتوترة كما لو أنها متوترة من الرعب، عندما نطقت بصوت خفيض أجش:

- ن.. نعم؟

- ما الشيء الذي جعلك تقررين ترجمة هذه القصص إلى لغة استعمارية هي المسؤولة عن تدمير اللغة الأصلية؟

تملّكها شعور مطلق بالدهشة والارتباك.

بعد ذلك ردت بريما بتلعثم، وهي ترمش بصورة متكررة، وإزاء

نظرات تارا المترقبة:

- لكن القصص.. القصص برهنت.. أليس كذلك؟ على أن اللغة لم تُدمَّر، إنها ما تزال موجودة.

شعّ وميض من نظارتَي تارا السوداوين، كان وميضاً مؤيداً ومشجعاً، لذلك تابعت بريما كلامها قائلة:

- ولكن أليست الترجمة.. نشر الترجمة.. طريقة ننقذ فيها اللغة من.. آه، الضياع؟ ونبرهن فيها لعامّة الناس أن اللغة ما تزال موجودة بالفعل؟

- أي عامةٍ هؤلاء الذين تتحدثين عنهم؟

تبنّى الرجل القصير والسمين نبرة هجومية أكثر، وقد عثر الآن على شخصٍ يستطيع أن يوجهها إليه:

- هل تقصدين عامة الناس الناطقين بالإنجليزية؟

سألها ببلاغة:

- أم عامة الناس في شتى أنحاء العالم؟ لماذا؟ ألا تملك هذه اللغة جمهورَ قرّاءٍ هنا؟

- أليس.. أليس من المهم..

تواصل بريما بارتباك، مثلما تتصرف إحدى طالباتها عندما تخضع للاستجواب:

- أن نجعل هذه اللغة معروفة على نطاق أوسع؟

- مهمّ لمن؟ للكاتب؟ أم للقارئ؟ ولأي نوع من القرّاء؟ للقرّاء هنا في الهند؟ أم للقرّاء في الغرب؟ إن استخدام لغة غربية يشير إلى أنك ترغبين بالحصول على جمهور غربي، أليس كذلك؟

هنا عدّلت تارا من وضعية جلوسها، فانحنت إلى الأمام،

ونقرت بيدها على الطاولة تعبيراً عن نفاد صبرها، ثم قالت:

- أود أن أعلمك أن مؤسسة طباعة ونشر كمؤسستي..

ردت بريما جذعها إلى الوراء بارتياح، تاركة تارا تتولى الأمر.

- تهدف لتقديم الكاتب أو الكاتبة إلى جمهور أوسع من القراء هنا في الهند أيضاً، إن الكتابة بتلك اللغة ليست في متناول أيديهم حتى الآن، لأنني أنا وزملائي وزميلاتي نؤمن بأن رسالتنا..

- ها!

انفجر الرجل القصير السمين قائلاً بسخرية، ووقف على قدميه، وهو يمسك بالمايكروفون الذي بات رهينة بين يديه، وما من شيء يجعله يتخلى عنه أو يجلس في مكانه:

- من هؤلاء الذين يحتاجون إلى أن نقدّم لهم الكاتب؟ هل هم الناطقون بالإنجليزية المقيمون في بلدنا؟ ولماذا؟ لماذا تقدمين لهم هذا الزاد الأدبي؟ لمَ لا تقدمينه إلى السكان الناطقين باللغات المحلية في بلادنا؟

وكانت هناك موجة من الضحك والتصفيق، وكلاهما يدلان على موافقة الجمهور على ما قاله الرجل.

أجابت تارا، وهي تجلس منتصبة القوام، وبمنتهى الغلظة:

- إذا كان هناك ناشرون بتلك اللغات مستعدون لمنح تفويضات بالترجمة، مثلما فعلتُ أنا، فأين هم؟ ولماذا لم يحضروا هذا المؤتمر؟ إننا نحتاج إليهم بالتأكيد.

ونظرت من حولها بحاجبين مرفوعين، وقد أثارت تمتمات مؤيدة لها، ثم كررت سؤالها:

- أين هؤلاء الناشرون؟

التفتت بريما نحو تارا، تعبيراً عن امتنانها وتقديرها لها، واحتدم النقاش، الذي استُخدم فيه الكثير من المصطلحات التي تشير إلى وجود عدد كبير من الأكاديميين بين الجمهور؛ مصطلحات من قبيل: مرؤوس، خطاب، يُمدّي (يعتبر الشيء المجرد شيئاً مادياً)، يشرعن.

حنت بريما رأسها خشية أن توجَّه لها بعض تلك المصطلحات، أليست كلمة «مرؤوس» مصطلحاً عسكرياً؟ وشعرت أنها بوجودها بينهم كانت أشبه بأدنى طالبات صفها في المستوى الدراسي بدلاً من أن تكون زعيمة الصف، وتمنّت ألا تكون إحداهن حاضرة هناك كي لا تلاحظ خجلها وترددها، أين كانت طوال هذا الوقت وهي تقرأ مع طالباتها أعمال جين أوستن وجورج إليوت؟ ما الذي كانت تفعله وهي تتحدث عن إنجلترا في العصر الفكتوري وعن عاداتها؟ ما الذي جعلها تتأخر ومنعها من مواكبة التيار الذي يصطخب أمامها الآن مندفعاً إلى الأمام، تاركاً إياها تتشبث في منتهى اليأس بالطوف الذي نشاهده في رواية (الطاحونة الواقعة على نهر الفلوس)، وبالصخرة التي تتحدث عنها رواية (كبرياء وهوى)؟

بدأت فصول الرواية الموعودة تصل خلال شهور ذلك الصيف في مغلفات كبيرة من الورق المقوى، وكانت تلك المغلفات دائماً ممزقة عند الأطراف، ولذلك كان ينبغي أن تُربط بوساطة خيط، بدا كما لو أنها قطعت طريقاً طويلاً ومغبرّاً، وعانت من بلايا كثيرة خلال الطريق، بل ربما حصل ذلك فعلاً.

* * *

في البداية كنتُ أعثر عليها حالما أعود من العمل، حيث أجدها ملقاة على ممسحة الأرجل، لأجلس بعد ذلك مباشرة وأقوم بقراءتها، لكنني سرعان ما شعرتُ بخيبة الأمل والإحباط من جراء ما قرأت.

كانت القصص القصيرة تمتاز بالسحر البسيط والحيوية، بينما بدت الرواية بطيئة وشبه راكدة في تتبعها لمصائر إحدى العائلات من الأجداد إلى الآباء ومن ثم إلى الأبناء، وذلك في مدينة تفتقر إلى الإثارة، في الحقيقة هي أشبه بالمدينة الخربة والمغبرة التي عثرتُ فيها لأول مرة على أعمال سوفارنا ديفي، ووجدتُ أنني بدأت أفقد الصبر تدريجياً تجاه شخصياتها المكوَّنة من الأجداد النبلاء، الذين يكابدون المشقات، والآباء كثيري الخصام والأبناء المنحرفين، حيث بدا أنهم جميعاً يتبعون مسارات متوقعة تحت تأثير الظروف المتغيرة؛ تنامي الثروة الذي يعقبه تبديد الممتلكات، والتعليم العالي الذي ينهار وسط الفرص الضائعة، إلى جانب الأعداد الكبيرة من المواليد وحالات الزواج والوفيات، القصص ذاتها التي يتم سردها مراراً وتكراراً بشتى الطرائق في كل أنحاء العالم.

هل يحتمل أن سوفارنا ديفي نفسها لا تقرأ كثيراً، ولا تعي ذلك؟ أم أن نتاجها الأدبي تدهور حقيقة؟ أين العاطفة المشبوبة والدراما التي كانت حاضرة في تلك القصص الأولى؟ أين قوة الملاحظة التي منحت الأصالة لتلك القصص؟

بدلاً من إعجابي الشديد بالكاتبة الذي أحسستُ به ذات

مرة، وعوضاً عن السعادة الغامرة التي بدأتُ بها عملي وأنا أنقل لغة طفولتي بأكبر قدر ممكن من الوفاء إلى اللغة الإنجليزية، أصبحتُ أنظر الآن إلى أعمال سوفارنا ديفي ببرود شديد، ربما كانت النظرة أكثر مهنية هذه المرة.

شرعتُ أتساءل عما إذا كان نشر رواية مخيِّبة للآمال كهذه من شأنه أن يعزز سمعة سوفارنا ديفي، التي أعمل جاهدة على توطيدها؟ وما الأثر الذي سيتركه ذلك على مهنتي حديثة العهد كمترجمة؟ لا بد من أخذ ذلك بالحسبان، أليس كذلك؟ أما وقد ربطتُ نفسي بالمؤلفة أفلا يتطلب ذلك أن نقدم نحن الاثنتان أفضل ما لدينا؟ وماذا عن سمعة دار النشر الخاصة بتارا، وهذه الدمغة الجديدة التي دشَّنتْها عبر مجموعة سوفارنا ديفي القصصية بوصفها أول منشوراتها في ميدان الكتب المترجمة؟ كان يجب وضع جميع هذه العوامل في الاعتبار.

* * *

أخذت بريما مخطوطة الرواية إلى تارا، بطبيعة الحال ليس بوسع الأخيرة أن تقرأ اللغة، كما ليس بإمكانها أن تحكم عليها إلا بعد ترجمتها، لكن بريما شعرت بأنه يتعين عليها تنبيهها إلى أن هذا الرواية ليست تحفة أدبية كما كانتا تأملان، ومع ذلك لم يكن بمقدورها أن تدع تارا تنسحب من المشروع بشكلٍ يؤدي إلى إنهاء المهنة التي انطلقت بها حديثاً. كان يجب أن يحدث التنبيه بكلمات يتم انتقاؤها بعناية، بحيث تبقى محافظة على استمرار اهتمام تارا بهذا المشروع دون أن يؤدي ذلك إلى إنعاش

آمال كاذبة لديها.

لحسن الحظ، أو لسوء الحظ، كانت تارا شاردة الذهن، ولم تبدُ مهتمة بما لدى بريما لتخبرها به، فقالت بنوعٍ من عدم الاكتراث:

- إنني أثق بك يا بريما، وأعلم أن بوسعي الاعتماد عليكِ، فأنت لست كمترجم هذه الرواية المكتوبة باللغة الأوردية التي كنتُ أعلّق آمالي عليها، إنها رواية كبيرة لكاتب جديد ولامع، وكانت الفصول الأولى التي بعثها لي المترجم رائعة، لكنه رحل الآن إلى بيروت، وهو لا يرد على الرسائل، فقط يعطيني الوعود عبر الاتصالات الهاتفية، لكنه لا يفي بها، إنني منزعجة جداً، كنتُ سأعاملها معاملة خاصة.

وبنفاد صبر نقرت بقلم رصاص على الكتاب المكتوب بالأوردية الموضوع على مكتبها، ثم ألقت نظرة على مخطوطة الرواية التي أحضرتها بريما من دون اهتمام كبير، وقالت لها وهي تتنهد:

- أنتِ تريحينني كثيراً، إنني أعلم أن بمقدوري أن أثق بأنكِ ستؤدين عملك، حسناً، تمهلي في ترجمتك، ولا ضرورة للاستعجال.

شمخت بريما بأنفها، وجعلت تفكّر؛ أليست هذه مبالغة في التملق للأقلية المسلمة؟

في الحقيقة، بدت تارا وكأنها لم تستوعب أي شيء من التقييم الذي قدّمته بريما بكلمات حذرة لرواية سوفارنا ديفي، كما لو أن الأمر ليس مهمّاً.

لذلك حملتْ المخطوطة، ومضت بها مصممة تصميماً يشوبه

الحزن على أن تجعل منها شيئاً يلفت انتباه تارا.

كانت الخطوة التالية هي أن تخصص متسعاً من الوقت لمهمة الترجمة؛ بأن تأخذ إجازة من الكلية التي تعطي فيها المحاضرات، ولم يصدر من عميدة الكلية أي رد فعل يُذكر، أما الطالبات فاستقبلن خبر تمتعها بإجازة بسرور واضح للعيان، وقد قيل لهن إن البديلة ستكون الآنسة باترا، التي عُرفتْ بكونها أصغر سناً وأكثر حيوية وبارتدائها لسراويل الجينز، كما شوهدت وهي تدخن السجائر، وكانت تنوي أن تعرّفهن على الكتّاب الأميركيين المعاصرين، الذين لم يعترف بهم الهيكل الأكاديمي بعد.

وخلال الحر القائظ لشهري يونيو / حزيران ويوليو / تموز، جلستْ بريما تحت مروحة كهربائية تدور ببطء ووجهها يتصبب عرقاً، محاولة إعادة اكتشاف المتعة التي شعرت بها في مستهلّ عملها بالترجمة، عانت من الإحساس بأنها كانت تكافح، مثل ذبابة غريقة، كي تنتشل نفسها من اللغة النثرية البطيئة الموجودة أمامها، ولتستعيد بطريقةٍ أو بأخرى فنّ التحليق.

* * *

كنتُ أعلم أن هذه أصعب مهمة عزمتُ على القيام بها، وأنها أكبر تحدٍّ واجهتُه، باستثناء قراري الأوّلي في أن أجعل هذه اللغة مجال دراستي، وشعرتُ بضغطٍ يطبق على رأسي، ضغط مزعج لكنه نوعاً ما ليس خانقاً. في الواقع، كان هذا التحدي أشبه بصداع رهيب يجعل المرء دائخاً ومرتفعَ المعنويات في آنٍ معاً.

كان جلياً أن الترجمة الأمينة للرواية ستفضي إلى قراءة سطحية ومملة، ووجدتُ أن ما كنتُ أحتاج إليه هو أن أكون

خلّاقة، أي أن أتدخل في الكتاب وأبتكر أسلوباً له، وهكذا، بدلاً من الترجمة الحرفية، قررتُ أن أتصرف في ترجمة النص، بدءاً من البناء المتواضع للجمل لدى سوفارنا ديفي، وما إن فعلتُ ذلك حتى بدأتُ أنا شخصياً أشعر بالمتعة، يا له من فرقٍ كبير عندما قمتُ بتحويل كلمة «أحمر» إلى «قرمزي»، وكلمة «غضب» إلى «غيظ»! لقد بدأ قلمي بالتحليق، فعبر استخدامي لنص سوفارنا ديفي أساساً أبني عليه، وجدتُ أن بوسعي أن ألامسه بضربات فرشاة صغيرة فأمنحه لوناً جديداً ومِسحةً من الاختلاف، أليس هذا هو ما فعله الرسامون الانطباعيون في تلك الأيام المبكّرة الزاخرة بالمغامرات، عندما قاموا بتجزئة الأسطح المستوية، بغية جعل الضوء ينكسر متحولاً إلى جزيئات عديدة مبعثرة، وهو ما مكّنهم من إعادة بناء السطح من جديد وجعله ينبض بالحياة؟

إلى جانب هذا «التعزيز» للنص، كما أسميتُه، كان بوسعي أن أرى أن الاختزال والحذف مطلوبان أيضاً، يجب عليّ أن أكون معلّمة وناقدة، وأن أضع خطوطاً تحت الكلمات التي تستخدمها مراراً وتكراراً؛ كم مرة يمكنني أن أسمح لها باستعمال الصفة عينها لإحدى شخصيات الرواية؟ ليس هناك حاجة لتكرار كلمة «وديعة» و«طيبة القلب» كلما ذُكرت الجدة، لأن بوسع كلمات الجدة وأفعالها وحدها أن تنقل لنا هاتين الصفتين، كما لم يكن ضرورياً الاستمرار في وصف زوجة الابن بأنها «جشعة» و«سيئة الطبع»، في حال كانت هناك وقائع تكشف جشعها وعجرفتها، وكما هو الحال مع الصفات، وجدت أن الأفعال والظروف يمكن

أن يُطبَّق عليها الشيء ذاته أيضاً، على سبيل المثال، لا داعٍ لتكرار وصف موت الجد، الذي تقوم به إحدى شخصيات الرواية في الفصل الثاني من الرواية، من قبل شخصية أخرى في الفصل الثالث بالـ«عويل» نفسه وبعلامات «الحزن» ذاتها، من الممكن أن نفرغ هذا الحدث في قالب مسرحي مؤثِّر مرة واحدة ودون تكرار؛ وهذا من شأنه أن يجعل النص أكثر تماسكاً وقوة.

أعترف بأنني بين الحين والآخر، في لحظات التعب والإعياء عندما كنتُ آخذ قسطاً من الراحة وأحسّ بمقدار الألم في عنقي، وكيف كانت حرارة الطقس تشتد وتضغط علي، أتساءل حول ما إذا كان الذي أقوم به جزءاً من عملي المتمثل في تقديم ترجمة أمينة لرواية سوفارنا ديفي؟ لكنني بعد ذلك كنتُ أنهض وأملأ كأسي من ماء كوز الفخار الكبير الموضوع على حافة شبّاك المطبخ، الذي يجعل الماء أبرد قليلاً من ذاك الذي ينبثق من الحنفية، ثم أعود إلى طاولتي وآخذ رشفة من الماء، حينذاك كانت تأتيني الأفكار على هيئة قطرات من الرطوبة التي تسقط على تلك المخطوطة الجافة لتحيي ولعي بها من جديد.

عندما كنتُ أمسك بالقلم، أذكّر نفسي بأن أفضل الترجمات هي أكثرها إلهاماً، حين يصبح المترجم مشاركاً بكل معنى الكلمة في تأليف العمل، الذي يغدو بمثابة ملتقى لشخصين مبدعين يقومان بمغامرة واحدة، إن لم يكن باستطاعة المترجم أن يرتقي إلى هذه المنزلة فإن ترجمته فاشلة.

وكدتُ أضحك عندما رأيتُ مدى تحسّن النص بعد التغييرات التي أجريتُها عليه، وبعد تشذيبه من التكرار، آآآه، كان يجب عليّ

أن أكون محرِّرة، وينبغي على تارا أن تجعلني أعمل في دار النشر التي تمتلكها، ويجدر بسوفارنا ديفي أن تستعين بمحررة قبل أن تكون لها مترجِمة، لكنها الآن تملك الاثنتين معاً! كيف يمكن لها أن تشعر بأي شيء غير السرور والرضا؟ كانت ترجمتي بمثابة التعرية والكشف لما هو مدفون ومخفيّ في ثنايا عملها الروائي، بطريقةٍ ما يمكن القول إنني كنتُ مؤلِّفةَ العمل، إنما لن أحصل على اعتراف بذلك، لا من قبل تارا التي لم تقرأ النص الأصلي، ولا من قبل سوفارنا ديفي التي يُستبعد أن تقوم بقراءة النص المترجَم، وكانت قد قالت، في الكلمة التي ألقتها في المؤتمر، إنه على الرغم من كونها تستطيع القراءة باللغة الإنجليزية، فإنها لا تستطيع الكتابة بها لأن مفرداتها اللغوية لا «تغطي» - هذه هي الكلمة التي استخدمتها - تجربتها الحياتية. اعتقدتُ وقتذاك أنها ملاحظة غريبة، لكنني الآن وجدتُ فيها ما يؤكد ذلك، وكان دوري هو إثبات أنها (أي اللغة الإنجليزية) تستطيع تغطية تجربتها الحياتية، وفي يوم ما قد نلتقي ثانية، وأشرح لها الطريقة المختلفة التي اكتشفتها في الترجمة، هل هي نقل للجوهر أو حتى مشاركة في التأليف؟

كل هذا كان واضحاً لي خلال ساعات النهار التي أعمل فيها، لكن يجب عليّ الاعتراف بأن الأمر مختلف في أوقات الليل بسبب الظلام والأرق والقلق، وخلال استلقائي على ظهري، ومحاولتي تجاهل الحرارة المرتفعة وأصوات السيارات المارة وأضوائها، وجدتُ أن الأفكار والمخاوف التي كنتُ أستطيع صدها في ضوء النهار، تدنو مني كالأشباح والمسوخ التي تأتي

لتهددني، كانت تثقل صدري، وأحياناً بالكاد أستطيع التنفس، يتحتم علي أن أنهض من سريري لأفرّ منها، فأذهب إلى المطبخ، وأسكب لنفسي كأساً من الماء، أشرب وأنا واقفة إلى جوار النافذة، أحدّق في الشارع المقفر، أضواء الشارع ما تزال مشتعلة. في بعض الأحيان، يظهر للعيان كلبٌ يبحث عن الطعام في نفاية متروكة خارج كشك الشاي، الذي كان مغلقاً في ذلك الوقت، وبين الحين والآخر، تمر حافلة خالية من الركاب، ربما عائدة في هذه الساعة إلى محطة الحافلات، أحاول أن أُلهيَ نفسي بمَشاهد العالَم العادي هذه، لكن ذهني كان منشغلاً بالسطور التي أترجمها، وتلك التي أكتبها، أشتاق إلى النوم كي أمحوها من بالي، لكنه يتهرب مني. خطر في بالي أن كل شيء ربما سيعود إلى طبيعته من جديد ما إن أبعث المخطوطة إلى تارا، ولذلك تشوّقتُ لإنهاء هذا العمل.

* * *

خلال المدة الزمنية الفاصلة بين تسليم المخطوطة إلى تارا وظهور الكتاب منشوراً، عادت بريما إلى التدريس، ما أدى إلى شعور كبير بالأسى بين طالباتها، فقد وجدن أنها أمست غليظة وسيئة الطبع أكثر من أي وقت مضى، وكنَّ متيقنات من أنها إذا كانت فعلاً قد ارتبطت بعلاقة غرامية فلا بد أنها انتهت نهاية مريرة. وفي غرفة المدرِّسين، عندما سألتها زميلاتها كيف سارت الأمور خلال إجازتها، ردت عليهن باقتضاب فظ، وبدت غير راغبة في التحدث عن ذلك، وعندما طلبت منها أمينة مكتبة الكلية أن تحسب حسابها بنسخة من الكتاب عندما يُنشر، كان جواب

بريما الوحيد هو إيماءة بالرأس.

وعندما اتصلت بها تارا هاتفياً لتخبرها بأن النسخ الأولى وصلت، ذهبت من فورها لتأخذ تلك النسخ، حيث وجدت تارا أن بريما صارت باردة المشاعر على نحوٍ غريب، وعلى خلاف ما هو متوقع ليست مبتهجة برؤية المجلد الصغير والجميل بغلافه الأحمر الباهت الذي يشبه الصلصال الذي تُغطى به الجدران في القرى، وكانت الصورة عبارة عن إطار نافذة مرسوم في الوسط؛ إنها آسرة في بساطتها.

- ألم يعجبك؟

سألتها تارا، وهي تنظر بفضول إلى وجهها الكئيب والمتغضّن، لا بد أن المجهود الشاق الذي بذلتْهُ في ترجمة الرواية خلال فصل الصيف جعلها تهرم وتشعر بالإرهاق، هذا ما خطر ببال تارا.

- بلى، بلى.

وجدتْ نفسها مرغمة على قول ذلك، لكن من الغريب أنها لم تفتح نسخة لتلقي نظرة داخلها، بل سألت تارا:

- هل تم إرسال نسخٍ منه إلى سوفارنا ديفي؟ وإلى النقاد؟

- بالطبع.

طمأنتها تارا:

- بالطبع، وما علينا الآن سوى الانتظار لنرى ردود أفعالهم.

حملت بريما نسختها من الكتاب وذهبت إلى منزلها، ثم وضعته على الطاولة، وأعدت لنفسها كوباً من الشاي، بعد ذلك جلست لتفتحه، لم تستطع أن تتمالك نفسها من الشعور

بالتأثر لدى رؤية اسمها عليه تحت اسم سوفارنا ديفي، وبعد ذلك، بمزيد من التوتر، تركتْ عينيها تتنقلان فوق الجُمل، جُملةً بعد جُملة. الاثنتان معاً هما اللتان صنعتا هذا الكتاب، بنصّه وموسيقاه وصوره ومجازاته، هل ستوافق سوفارنا ديفي على ترجمتها هذه؟ بعد ذلك جاءت على عبارة كانت تعلم أنها غير موجودة في النص الأصلي، ثم انتبهت إلى الفراغات التي حُذفت منها، ما بدا لها أنه تكرار غير ضروري؛ موت الجد وما رافقه من بكاء ونواح، هل ستلاحظ سوفارنا ديفي ذلك؟ وإذا ما لاحظت فماذا سيكون رأيها؟ هل ستشكرها على التحسينات التي قامت بها، أم أنها ستعترض عليها؟ وماذا بشأن النقاد؟ هل سيلاحظون؟ وهل ستسمع آراءهم حول ذلك؟

كل ما كانت تستطيع سماعه هو النعيب الأجش للغربان التي في الخارج، وهي توازن نفسها على أسلاك الهاتف، وقد بدت لها ساخرة ومؤنِّبة أكثر من أي وقت مضى.

رانَ سكون طويل وصعب، وذكّرتها تارا بأن المراجعات النقدية حول الكتب المترجَمة كانت دائماً قليلة، فالجيل الجديد من الكتّاب الذين يكتبون باللغة الاستعمارية، أي الإنجليزية، هم الذين استحوذوا على كل الاهتمام، ليس في بريطانيا وحدها فقط، بل حتى هنا في الهند، وهذا أمرٌ مشين. وكانت المراجعة النقدية الوحيدة، التي ظهرت في مجلة سياسية مع أن قراءها قليلون، قد امتدحت المشروع النبيل الذي قامت به تارا، والمتمثل في منح تفويضات بالترجمة، وما ساهم به ذلك من لفت الانتباه إلى الكتابات التي ما تزال «مجهولة»، كما لو

أن اللغات المحلية ليس لها قرّاء. ووصف الناقد رواية سوفارنا ديفي بأنها «مهمة»، لكنه لم يشر إلى الترجمة لا من قريب ولا من بعيد.

- علينا الانتظار حتى ظهور المراجعات النقدية في الصحف الإقليمية.

قالت تارا، وقد لاحظت مبلغ قلق بريما، حينما جاءت لتستفسر عن ردود الفعل، ثم أضافت بلطف:

- إنني متأكدة من أنها ستكون مراجعات جيدة، فهي ترجمة جيدة في كل الأحوال.

ليس من طبيعة تارا أن تسرف في التعبير عن عواطفها، لكنها بدت صادقة، وهي كذلك في الحقيقة، لذلك، كانت صدمة لها عندما وصلت إلى مكتبها بعد بضعة أيام رسالة من شخص يخبرها بأنه ابن أخ سوفارنا ديفي، وقد دخل إلى لب الموضوع مباشرة، وهو أنه قرأ النص الأصلي الذي كتبته عمته، ثم اشترى نسخة من الكتاب المُترجَم، وعندما قرأه، وجد أن هناك تناقضات لا حصر لها بين الكتابين، ثم أخذ يعدِّد تلك التناقضات.

تساءلت تارا، وهي تعبس بتجهّم، ما إذا كان يشير إلى أخطاء فادحة، أم أنه فقط يتصيد الهنات البسيطة على نحو ما يفعل بعض القرّاء، لا لسبب سوى أنهم يودون أن يُظهروا أنهم يمتلكون معرفة راقية، لكنْ لا بد لها من الاستنتاج، لدى إعادة قراءة قائمة التناقضات عدة مرات، بأنه بدا محقاً في شكواه، وبحسب ما ذكره في الرسالة فإنه تم حذف صفحات عديدة من النص الأصلي، حيث لم تظهر في الترجمة، وإن أدوار بعض شخصيات الرواية

كشخصية الجد، على سبيل المثال، اختُزلت، كما أن اللغة ابتعدت بصورة مفرطة عن النص الأصلي، وبما أنه ناطق بهذه اللغة، وينتمي إلى المنطقة التي يتكلم فيها السكان هذه اللغة، فإنه شعر بالمسؤولية، وأراد أن تعرف الناشرة والمترجمة أنه يرفض بشدة هذا «الموقف المتعجرف» تجاه رواية عمته، ثم أضاف أنه يفكر في ما إذا كان يتعين عليه إخبار عمته بذلك أم لا؛ فهو لا يرغب في إزعاجها أو تعكير مزاجها، وهو الذي يعرف كم هي شخصية وديعة وحساسة، لكنه يريد تفسيراً للطريقة التي تعاملت بها مؤسسة تارا مع رواية عمته، ثم تساءل: ما الذي تقترح تارا القيام به؟ هل ستستمر في تقديم هذه الترجمات «المزوَّرة» إلى النخبة الناطقة باللغة الإنجليزية، وهي المأخوذة عن نصوص أكثر قوة وجمالاً في لغتها الأصلية؟ ثم نصحها ألا تنشر المزيد من هذه الترجمات التي من شأنها أن «تخدع عامة القرّاء».

أرجأت تارا جميع الاجتماعات المقرر عقدها ذلك اليوم، واستدعت سكرتيرتها لتملي عليها رسالتين، الأولى لابن أخ الكاتبة سوفارنا ديفي تعتذر له فيها عن «كل الأخطاء والعيوب الواردة في الترجمة»، والثانية إلى أسرة تحرير الصحيفة البارزة في مسقط رأس عمته، تؤكد لهم فيها أنه «ثمة تدابير مناسبة يجري اتخاذها لضمان أن الترجمات الأمينة والمفحوصة بدقة شديدة فقط في المستقبل» ستصدر عن دار النشر الخاصة بها، وبعثت نسخة من كل رسالة إلى بريما جوشي.

في النهاية بعثت سكرتيرة تارا من جديد باقة من الرسائل إلى بريما أرسلها قراءٌ آخرون يوردون فيها الاعتراضات عينها،

وهي ليست كثيرة جداً نظراً لأن أولئك الذين قرؤوا النص الأصلي لم يقرؤوا بالضرورة النص المترجم أيضاً، كما وصلت رسالة من سوفارنا ديفي مكتوبة على ورقة القرطاسية الصفراء التي تظهر عليها دمغة الوردة الحمراء، تشكرها على إرسال النسخ الخاصة بها من الكتاب، الذي قالت عنه إنه «بدا جميلاً جداً»، دون أن تذكر شيئاً عن الترجمة، كما لم تكن تحتوي على أي تلميح يشير إلى الشك أو الانتقاد؛ فإما أن ابن أخيها لم يخبرها بما وجده في الترجمة، وإما أنها آثرت أن تتغاضى عنها؛ فهي في النهاية لديها مشاغل حياتية أخرى ربما أكثر أهمية بالنسبة لها. لم تسحب تارا الكتاب من الأسواق، كما لم تطلب إصدار طبعة ثانية منه.

أرسلت جمعية الناشرين الهنود دعوة إلى بريما عن طريق تارا لحضور اجتماعها المقبل الخاص بالكتّاب والمترجمين، رفضت بريما تلبية الدعوة بحجة إصابتها بوعكة صحية.

* * *

وهكذا لم أترك مهنة التدريس في الكلية، لا أزال أتصفح النصوص نفسها مع طالباتي، أنا أعلم أنهن سئمن مني، كما أعلم أنهن يسخرن مني من وراء ظهري، وأعلم أيضاً أن عميدة الكلية تنتظر مني أن أتقاعد كي تأتي بأستاذة جامعية جديدة تُذكي الحماسة في نفوس الطالبات، لكن إذا تقاعدت من العمل، فما الذي سأفعله بما تبقى لي من سنوات حياتي؟ إنها تمتد أمامي مثل طريقٍ خالٍ ومظلم.

أحياناً وأنا في الحافلة، عندما أكون عائدة من عملي إلى

المنزل، أنظر إلى الأشخاص الآخرين الجالسين إلى جواري وقبالتي، أو بالأحرى، بما أنني لا أحب التحديق في وجوه الناس، أنظر إلى أقدامهم المنتعلة للأخفاف أو الصنادل أو الأحذية المغبرّة المصنوعة من الجلد المتشقق، وإلى الرزم التي يضعونها على ركبهم، ثم يدور في ذهني: هكذا يجب أن أبدو لهم، امرأة مرهقة تعود إلى منزلها من العمل، ليس لديها شيءٌ تتوق إليه، وما من شيءٍ يدعوها إلى الابتسام، لماذا، بالله، كنت أتصوّر أنني مختلفة عن الآخرين، وأنني أستطيع أن أعيش حياتي بشكلٍ مختلف عنهم؟ جميعنا في هذا المركب، هذا العالم المليء بالخسارة والهزيمة، جميعنا، وكل واحد منا مرت بحياته لحظة انفتحت خلالها نافذة أمامه، ولمح من خلالها ذلك العالم الرحب المغمور بأشعة الشمس، لكننا جميعاً، نحن الجالسين في هذه الحافلة، أغلقنا تلك النافذة وأبقيناها مغلقة.

ليست المسألة أنني لم أحاول فتح تلك النافذة مجدداً، فقد تخليتُ، بالطبع، عن فكرة ترجمة كتاب آخر، مع أن ذلك كان يعني أنني تخليت عن اللغة التي اكتسبتها بحماسة شديدة، وأثناء تلك الليالي التي قضيتها مسهَّدة، كانت تراودني فكرة، وهي أنني قد أقوم بتأليف كتابٍ خاصٍ بي، سيكون عملاً أصيلاً، ولن آخذ شيئاً من شخص آخر، أو من عمل شخص آخر، كنت أشعر أنني مدينة لسوفارنا ديفي لكونها علمتني، أما الآن فقد آن الأوان كي أبرهن أنني أستطيع أن أثبت جدارتي ككاتبة.

طوال مدة من الزمن شعرتُ بالإثارة عندما خطرت ببالي فكرة التأليف، كما لو أن النافذة قد فُتحت ثانية، فُتحت قليلاً،

وانسلَّ من خلالها شيءٌ من النور، ودهمتني فكرة تفرّعت إلى أفكار عدة، وتبعتُ هذه المسارات، وفي داخلي يعتمل الأمل والبهجة، كانت الفكرة التي جذبتني بقوة أكثر من سواها هي قصة زواج والديّ، زواجهما قصير الأمد ونهايته الحزينة، وقد أتمكن، عبر كتابة قصتهما، من استحضار مختلَف جوانب الحياة التي عشتُها، الجوانب التي ورثتُها عن أمي، وتتمثل في لغتها وخلفيتها الاجتماعية، بالإضافة إلى الجوانب التي ورثتُها عن أبي.. شعرتُ أن القصة ستكون واعدة، حتى إنني جلستُ وبين يديّ دفتر كبير وجديد اشتريته من محل في الجهة المقابلة من الشارع، ورفعتُ قدميَّ، ثم رحت أخربش بقلمي في محاولةٍ مني لاختبار صلاحية هذه الأفكار.

عملتُ على كتابي بجدٍّ ومثابرة، لكن كلّ مشاعر البهجة أو الأمل التي كانت موجودة لديّ في بداية الأمر تبخَّرتْ على وجه السرعة، هناك مشاهد أستطيع كتابتها باللغة الإنجليزية، لكن ثمة مشاهد أخرى تستنجد بي كي أكتبها بلغة أمي، كنتُ ممزقة بين اللغتين، وليس بوسعي أن أختار إحداهما دون الأخرى، كنتُ أكتب بعض النبذات بإحدى اللغتين، وبعد ذلك أكتب نبذات أخرى باللغة الثانية، ولكنني كنت أمزق الاثنتين معاً وأرمي جميع الأوراق؛ فمن سيقرأ مثل هذا الخليط غير المتجانس؟

ذات مساء، وأنا جالسة في العتمة، أنصت إلى الغربان الجاثمة على أسلاك الهاتف وعلى أغصان الشجرة المشذبة في الخارج وهي تتخاصم على أمكنة مبيتها ليلاً، وقد بحَّت أصواتها من العِراك، خطر ببالي أن سوفارنا ديفي وحدها تستطيع أن تكتب

هـذه القصة، فهي الوحيدة التي تملك الصوت المناسب للتعبير عنها؛ أما أنا فلا، فقد كنتُ أكتب تحت تأثيرها وبصوتها؛ لم يكن صوتي أنا. إن قيامي بتبني صوتها هو الذي جعلني أفقد صوتي.

بعد ذلك، وبينما كنتُ أستعرض الكتب في إحدى المكتبات مثلما كنتُ أفعل في أغلب الأحيان صباح كل يوم سبت، رفعت عينيّ عن الكتب المعروضة بأسعار مخفّضة، والتي كانت مفروشة على طاولة، وشاهدتُ شاباً عرفتُه على الفور، إنه ابن أخ سوفارنا ديفي، كان برفقته ابنه الصغير، الذي أصبح في سن تعلّم المشي، وكان يلفت نظره إلى بعض كتب الأطفال الملونة.

لثانية واحدة شعرتُ بالذعر، وتساءلتُ ما إذا كان يمكنني أن ألوذ بالفرار من دون أن يراني؟ لكنني قررت بعد ذلك أن هذا سيكون جُبناً مني، ثم استدرتُ حول الطاولة لأصبح في مواجهته.

تساءلتُ في سرّي عما إذا كان سيتعرف إليّ، لكن كان واضحاً أنه عرفني، وجَّهتُ إليه التحية، وسألتُه عن زوجته وابنته، ومن ثم سألتُه عن عمته، بدا مسروراً جداً لأنه رآني ثانية، وأخبرني بأنهم جميعاً على ما يرام، بعد ذلك ترددتُ، لأنني لم أكن متأكدة ما إذا كان يجب عليّ التطرق إلى كتبها وكتاباتها، ربما هو أيضاً تردد قليلاً، لكنه بعد ذلك أخبرني وهو يبتسم بأنها ليست على ما يرام وحسب، بل:

- كانت تعمل بجد ونشاط مثلما لم تفعل من قبل، وقد أسستْ مدرسة ابتدائية خاصة بأطفال القبيلة، باتت على الدوام مهتمة جداً بتعليمهم، تعمل معهم دواماً كاملاً، وطلبت مني أن

أختار بعض الكتب كي تبعث بها إليهم.

ابتسم بابتهاج كاشفاً عن شعوره بالزهو، ومن ثم انشغل بابنه الذي أمسك ببعض الكتب، وراح يسحبها بسرور من فوق أحد الرفوف.

وهكذا ودعتُه، وطلبتُ منه أن ينقل تحياتي لعمّته، وخلال الضجيج الذي نجم عن قدوم صاحب المكتبة لتأنيب الطفل وكلمات الاعتذار المرتبِكة من قبل الأب الشاب، غادرتُ المكان.

فَنَّانُ الاخْتِفَاءِ

لـم يعـد أحدٌ يتسـلّق ذلك التـلَّ على الإطلاق، لـم يكن أحدٌ يفعـل ذلـك إلا إذا كان يرغـب بالاعتـكاف، وقـد كان التـل مكاناً ملائمـاً لذلـك، أي كمعتكَـف. البقايـا المحترقـة مـن المنزل هي وحدهـا التـي ظلـت ماثلة هنـاك، بضعة جـدران فقـط لا تزال قائمـة، وثمة أيضاً سـقف مؤقَّت شُـيِّد من صفائـح الزنك مكان الأبـراج الصغيـرة والكبيـرة الموجودة هناك منذ زمـن مضى، أما البقية فهي مجرد صخور مسـودّة ورماد وكسارة حجارة ودعامات خشـبية متفحِّمة وأعشاب ضارة تسـد فتحات النوافذ المفتوحة، وبين الحين والآخر كان ينسلّ سمندل ماء بصمتٍ.

لكـنّ رافي كان حاضراً هناك، يجلس على الدرجات الحجرية المؤديـة إلى الشـرفة في الأعلى، حيث مـن دأبه أن يفعل ذلك في أوقـات المسـاء عندمـا يعود إلى المنـزل، يرهف السـمع إلى صوت جـرس البقـرة وهو يـرن بخفـوت وبصـورة متقطعة علـى التل، وحينمـا اقتربت البقرة منه بات الصوت أوضح ورناناً أكثر، حيث تختلط بذلك الرنين جلبة حوافر الماعز وهي تطقطق بخفة على الطريـق الحجري، إلى جانب أصوات الثغاء الخفيضة والمتلهفة

التي يطلقها الماعز وهو يترقب الطعام الذي ينتظره. كان قطيع الماعز أول الواصلين إلى المنزل الواقع في الأسفل، وذلك بسبب الجوع الذي جعله يغذُّ سَيْرَهُ وخُطاه المتراقصة، وبعد الماعز وصلت البقرة، وهي كذلك تتوق إلى تناول طعامها، لكن جسمها الضخم كان يجعلها تتمايل في سيرها على الطريق الضيق قياساً بهيكلها العظمي العريض، وحتى تستمر في تقدمها لا بد لصاحبها من أن يَخزُها بضربةٍ خفيفةٍ من السَّوط الموجود في إحدى يديه، في حين يستخدم يده الأخرى كي يوازن على قمة رأسه حزمةَ الحطب التي قام بجمعها.

عندما ظهرت هذه الأشكال في الفرجة الخالية من الشجر في الأسفل، اندفعت الكلاب، التي تُمضي وقتَ ما بعد الظهر في حالة من الهجوع، ووقفت على أقدامها بمسحةٍ من الاعتداد بالنفس كي تُظهر أنها متأهبة للقيام بواجباتها، ثم أطلقتْ صيحات الترحيب الحادة إيذاناً بوصولها إلى العائلة التي تقطن هناك.

كان الأطفال قد شرعوا يلاحقون الدجاجات في محاولة منهم لإيوائها في خُمِّها طوال ساعات الليل، طلبت منهم الأم أن يُحضروا لها الحطب كي تضرم النار، وكانت خيوط الدخان تنحل من الثغرات الموجودة في السقف المصنوع من القش كما تنحل الخيوط من المكبّ الذي تلتفّ عليه، أما الماعز فقد تم اقتياده إلى حظيرةٍ مسيَّجة بالأشواك، حيث يوجد حوضٌ من الصفيح يحتوي على قطع صغيرة من الخبز المكسّر المنقوع في ماء دافئ، في حين تم اقتياد البقرة إلى سقيفتها، التي تفوح منها روائح الروث والقش التي تبعث الارتياح في نفسها، وذلك

من أجل أن يحلبوها.

بعد ذلك عمَّ الهدوء مع انتقال النشاط إلى داخل المبنى، حيث الحطب الذي يفرقع في النار، والقدر التي تغلي، والطعام الذي تنبعث منه الرائحة الزكية. تجمَّع الأطفال حول الموقد مقرفصين، وقد صُفَّت أمامهم أطباق الصفيح، ثم راحوا ينتظرون. جلس الأب على كرسيٍّ خفيض، أما الأم فقد أصبحت جاهزة أخيراً لتوزيع وجبة الطعام التي أعدّتها.

غير أن أحد الغلامين، وهو الأكبر سناً، ظل واقفاً إلى جانب الباب، لكونه يدرك المهمة المناطة به من ضمن واجبات النهار، تناول الصحن المطلي بالمينا من يدَي أمه بعدما ملأته بالأرز والضول[19]، ورشَّت عليه حفنة من مسحوق الفلفل الأخضر الحار، وأعطته غطاء من الصفيح ليغطي به الصحن، وبحركة طفيفة من ذقنها، التي يوجد عليها وشم صغير أزرق اللون، أشارت إليه بأن يأخذه ويمضي به.

أوما الغلام برأسه، وبعد ذلك شرع يصعد التل؛ كان يعرف جيداً أن عليه أن يسرع لئلّا يبرد الطعام ويَفْسُدَ طعمُه، فضلاً عن ذلك، كان يتحرق شوقاً للعودة إلى المنزل كي ينال حصته من الطعام، ولذلك راح يرتقي التل بأسرع ما يستطيع من دون أن يتعثر أو يريق الطعام على الأرض.

عندما ظهر الغلام وهو يحمل الطبق المغطّى، لم يكتفِ رافي بإيماءةٍ من رأسه كي يشير عليه بأن يضعه على الأرض، بل فاجأه بالتحدث إليه، كان صوت رافي أجشَّ لأنه قلما كان يستخدمه،

---

(19) الضول: طبق هندي يتم تحضيره من البقوليات والتوابل والبصل.

وبدا واضحاً جداً أنه بذل مجهوداً هائلاً كي يتكلم.

سأله بصوت خشن:

- هل غادروا؟

أجاب الغلام بـ (نعم) عبر إيماءةٍ برأسه.

- هل أنت متيقن من ذلك؟

(نعم)، أومأ الغلام برأسه ثانية.

بعد ذلك أخذ رافي الطبق منه، حتى إنه تمتم بضع كلمات تعبيراً عن شكره له، ثم أضاف:

- قل لأبيك إنني لن أنزل من التل الليلة.

(أجل)، أومأ الصبي برأسه ثالثة، مشيراً إلى أنه سيخبر أباه بذلك، وبعد انتهائه من الواجب المكلَّف به، استدار على عقبيه، وشرع ينزل التل بسرعةٍ هائلةٍ كي يلحق بوجبة طعامه، وأطلق صفيراً حاداً ثلاث مرات وهو يثب من صخرةٍ إلى أخرى، تعبيراً عن شعوره بالحرية، وأقبلت الكلابُ مهرولة للقاء به، وهي تنبح معبّرة عن توقها للطعام ورغبتها في أن تُشبع بطونها.

في المنزل المحترق الموجود على الهضبة، كان رافي قد انتهى من تناول طعامه، ووضع الطبق على العتبة التي إلى جواره، ثم تناول سيجارة من جيب قميصه، وأشعلها واتكأ إلى الخلف، مستنداً على أحد أعمدة الشرفة، مما لا يزال منتصباً هناك، وجعل ينتظر الأصوات المنبعثة من المنزل المأهول في الأسفل كي تخفت ويحلّ الصمت، وينسحب الضوء من الوادي ويصعد التلال، إلى أن تغدو قممها الشيء الوحيد الذي يغمره نور الشمس. بعد ذلك حلَّ الغسق في تلك التلال، لكنه ظل جالساً هناك يرهف

السمع للنداءات الأخيرة لطائر وقواق وحيد، منتظراً خفوتها، وينصت أيضاً إلى خشخشة سنجاب طائر يقطن تحت الإفريز، بينما كان يزحف خارجاً من جحره لينطلق في أجواء المساء، حيث الخفافيش تنقض على الحشرات، ملاحقة إياها بسرعة بالغة.

أطفأ عقب السيجارة، وبعد ذلك سحب علبة ثقاب من جيب قميصه، وشرع يلعب بها، مستغرقاً في أفكاره، كان أشبه براهب يحمل سبحة صلاة، وحين رفع بصره عن علبة الثقاب، وجد أن الغسق الكثيف قد حاكه مع خيوط مشهد المساء بصورة لا فكاك منها، خيَّم السكون على منزل الأسرة في الأسفل، وخفَّ الضوء المنبعث من ناره الصغيرة وتلاشى تماماً.

نهض رافي ووقف على قدميه، ثم شقَّ طريقه متجهاً صوب الشجيرات التي تطوّق البيت، أنزل سرواله، ثم سمع صوت بوله وهو يقطر على الحجارة التي بين قدميه، وبعد ذلك استدار وعاد من حيث أتى، التقط الطبق الفارغ، ومضى به مارّاً عبر الشرفة إلى المكان الوحيد الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم غرفة؛ فقد كان لها جدران، كما أنها مسقوفة، وتحتوي على سرير مصنوع من الحبال، كان بهولا قد أحضره من الكوخ الواقع في الأسفل، كما أن في الغرفة بعضَ البقايا التي نجت من الحريق، كانت هذه البقايا تستند إلى الحائط المسودّ. تلمَّس رافي طريقه نحو طاولة تحمل ندوب السكاكين والسواطير التي تشير إلى أنها كانت تُستخدم في المطبخ سابقاً، حيث يوجد عليها فانوسٌ يعمل بالكيروسين، قام بإشعاله، وهنا استخدم عود ثقاب آخر، ثم أخذ

يتأمل الحاجيات التي تدعو للأسى؛ كان هناك كرسي محشو أكثر من اللازم لم يجلس عليه أبداً، وحامل قبعات لم يكن يحمل قبعة ولا عصا للمشي، ورأى أن جميع تلك الحاجيات لا تزال في مكانها صامتة، لم يمسسها أحد، كما لو أنها تنتظر حلول اليوم الذي تُقطَّع فيه وتصبح حطباً.

كل ما كان يحتويه المنزل، ذات يوم، من حاجيات أخرى - وهناك عدد وفير منها- ضاع واختفى، مثل حقائب السفر الجلدية التي كانت تُصفُّ في الردهة - الردهة! - في انتظار أن تُحمل، والساعة الجدارية الخاصة بالجد، وبورتريهات الأسلاف، التي هي عبارة عن صور فوتوغرافية أُضيفت لها ألوان خفيفة، وتتكئ على الجدار بشكلٍ مائل، ما يجعلها تبدو وكأنها تنظر إلى الأسفل باتجاه أبيه، وهو يتجه إلى حامل القبعات ليأخذ منه عصاه الأثيرة وقبعة الأستراخان[20]، التي كان يفضِّل أن يعتمرها في أسفاره، ليبدأ بعد ذلك بإطلاق الصفير الناعم اللطيف الذي يقصد منه استدعاء زوجته عندما تتأخر في غرفة تبديل ملابسها - غرفة ملابسها! - لأنها تحرص على تعديل زينتها حتى اللحظة الأخيرة.

وبينما كانوا ينتظرون خروجها من الغرفة، التفتَ الأب لينظر إلى الغلام الواقف بشكلٍ يجعله شبه مختبئ خلف الباب المؤدي إلى غرفته، وقد التفَّتْ إحدى ساقيه بالأخرى، ثم مازحه بغمزةٍ من إحدى عينيه وهو يضع قبعة الأستراخان بمنتهى الرشاقة

(20) الأستراخان: قبعة مثلثية الشكل، تُصنع من فراء الأغنام التي تنتمي إلى سلالة «القراقول»، وغالبا ما تُستخدم في صناعتها فراء الأجنّة المجهضة من أرحام هذه الأغنام، وهذه القبعة جزء من اللباس التقليدي لسكان أفغانستان الأصليين، كما يعتمرها الأتراك وسواهم من شعوب جنوب آسيا ووسطها، رجالا ونساء.

على رأسه، قائلاً:

- هل تعجبك؟ لقد اشتريتُها من برلين، وتحديداً من جادة كورفورشتيندام، هل يمكنك أن تلفظها (كور.. فورشت.. ين.. دام)؟ كان الثلج قد بدأ يهطل، ودخلتُ إلى ذلك المحل الأنيق جداً، فأقبل رجل نبيل في غاية التهذيب من الخلف ليرى ما الذي أود شراءه، أشرتُ عليه أن يأتيني بالقبعة، وعندما خرجتُ من المخزن كنتُ أضعها على رأسي، هكذا بالضبط.

وأرسل إليه غمزة أخرى، ثم عرض عليه قائلاً:

- سأجعلك تعتمرها ذات يوم، عندما تستطيع أن تقول (كور.. فورشت.. ين.. دام).

كان الصبي يعلم أن هذا العرض سيتلاشى شأنه شأن جميع العروض الأخرى، ثم أشاح ببصره بسبب شعوره بالارتباك إزاء براعة والده في الكذب.

بعد ذلك خرجت أمه، تتضوع منها روائح أزهار قوية، روائح الورد وزنبق الوادي، وقد لبست فستانَ ساري أخضرَ كنبات الميرمية ذا حاشية ضيقة مطرزة.

- يجب علينا أن نسرع وإلا فسيفوتنا القطار.

هتفت أمه، كما لو أن الآخرين هم الذين جعلوها تنتظر.

أقبل هاري سنغ، الذي كان ينتظر في أسفل السلّم، وحمل حقيبة على رأسه وحقيبتين أخريين بيديه، ثم مضى بها إلى السيارة التي كانت في انتظارهم، وهي نفسها التي ستأخذهم إلى محطة القطار الرئيسة في ديهرا دون، ثم جاء سائق السيارة

ليحمل ما تبقى من أمتعة السفر.

في أسفل الدرج تذكَّر الأبوان، فالتفتا إلى الغلام ولوّحا له:

- نحن منطلقون الآن!

قال له الأب، ثم أضاف:

- كن لطيفاً!

وخاطبته أمه قائلة:

- سنحضر إليك عندما نعود..

لكنها نسيت الشيء الذي وعدتْ أن تحضره معها، وتركتْ وعدها معلقاً في الهواء. ليس الأمر مهمّاً، لأنه مهما كانت اللعبة التي سيحضرونها معهم مرتفعة الثمن أو متقنة الصنع، فإنه سيتم الاحتفاظ بها في مكانٍ آمن بعد إخراجها من علبتها وإظهارها له لمدة وجيزة كي يبدي إعجابه بها بحذر.

نزل درجات السلم بشكلٍ جانبي حتى وصل إلى الباب الأمامي، وشاهد السيارة وهي تنطلق ببطء على طريق المدخل المفروش بالحصى لتختفي بعد ذلك تحت أشجار السنديان التي تنسدل وراءها كما لو أنها ستائر مسرح داكنة اللون، وخلال برهة من الزمن، كان بمقدوره أن يسمع صوت المحرك بينما السيارة تصعد الهضبة في اتجاه الشارع الرئيس، وبعد ذلك توقف عن متابعة تقدمها. لو كان الوقت ليلاً لوَسِعَهُ أن يرى مصابيح السيارة وهي تهبط المنحدر ببطء متجهة صوب الوادي، لكنّ الوقت لا يزال بعد الظهر.

وهكذا أصبح بمقدوره أن يطلق النفَس الذي كان يحبسه داخل صدره إلى أن انتفخ وصار بالوناً، وبات يضغط على أضلاعه، كان يمسك بذلك البالون بإحكام بين إبهامه وسبابته، أما الآن فقد

أصبح بوسعه أن يطلق سراحه، وهكذا انطلق البالون محدثاً صفيراً، وبدأ يتقلب ويتلوى ويلتف إلى أن هبط فارغاً من الهواء وعاد إلى وضعه الطبيعي المطاطي الليّن.

ليس هو وحده وحسب، بل كل فرد وكل شيء حوله عاش تلك اللحظة، وبعدما استعاد هاري سنغ وضعه الطبيعي، رفع قبعته المصنوعة من القماش من فوق رأسه، وفجأة أصبحت قامته مستقيمة، ولم يعد يتحرك أو يتصرف على طريقة الخدم، بعد ذلك صعد درجات السلم المؤدي إلى الشرفة مجدداً وصاح:

- هلمّوا، هلمّوا! دعونا نذهب لاصطياد النمور، أنا وأنتم!

لكنهم لم يفعلوا ذلك، إذ لم يكن هاري سنغ يفي بوعوده، وهو في هذه المسألة لم يكن أفضل حالاً من أبوَي الصبيّ، لكن مجرد سماع تلك الدعوة، بصوتٍ عالٍ ونابع من القلب، كان كفيلاً بتغيير الجو، بعد ذلك ظهر ابن هاري، الذي يُدعى بهولا، حيث كان ينتظر وراء الشجيرات، وبيده منجنيق، ليرى ما إذا كان رافي سيخرج الآن للعب.

في الهواء الطلق توجد الحرية، في الهواء الطلق توجد الحياة، التي آثر أن ينتمي إليها، حياة الجداجد المنبثقة من بين الحشائش، وحياة الطيور التي تطير بهيئة دوائر في الوادي، الذي يقع على عمق مئات الأقدام إلى الأسفل، أو تحلق عالياً فوق الجبال؛ وحياة الحيوانات المختبئة تحت غطاء الشجيرات المنخفضة، والتي تكشف نفسها بين الحين والآخر عندما تخشخش أو تطلق وابلاً من الصيحات أو النداءات الوجلة؛ وحياة النباتات التي تتبع بشكلٍ غير محسوس تقريباً كل ما

من شأنه أن يحافظ على اخضرارها؛ وحياة الصخور والحجارة، التي تبدو جامدة ظاهرياً، لكنها بصورةٍ مبهمة جزءٌ لا يتجزأ من تغيُّر الأرض المستمر وحركتها المتواصلة، ليس على المرء إلا أن يصمت وينتبه ويراقب ويدرك، وهذه هي الموهبة الوحيدة التي كان يتمتع بها رافي في نظر الجميع.

في الهواء الطلق، راقبَ رافي مشهد أفعى وهي تنزع جلدها القديم وتظهر للعيان بطولٍ جديد ومنزلق، تاركة وراءها على الطريق كفناً شفافاً كالشاش وهشّاً كالزجاج، وذات مرة عثر على شجرة تحمل أزهاراً على هيئة أسطوانات طويلة ذات لون أصفر شاحب، كانت تلك الأزهار تتمتع بعصارة وحلاوة خرافية تجذب إليها النمل، الذي يغير بجيوشه عليها، وما كان ليثنيه عن فعل ذلك تدخل عصا أو غصن صغير، حيث يستمر في مسعاه حتى يبلغ الكنز الذي يبحث عنه ثم يغرق فيه.

في الهواء الطلق، كانت العناكب تنسج شباكها في الحشائش الطويلة النامية، وهي عملية لا يستطيع المرء مراقبتها ما لم يتوقف عن إصدار الأصوات والحركة، ويصبح شبه مقطوع الأنفاس وغير مرئي، مثلما حدث عندما رأى حشرة فرس النبي على ورقة نبات ذات اخضرار يطابق اخضرارها هي بالضبط، وكانت تحمل بين مخالبها الحذرة نحلة مستديرة الشكل ومخططة تصدر طنيناً حتى في الوقت الذي يتم التهامها فيه، ثم توقفت الحشرة عن التهام فريستها عندما أدارت عينيها في اتجاهه، وأدركت أنها قيد المراقبة.

هناك دوماً ما هو مفاجئ، مثلما يحدث عندما كان يرفع

حجراً مسطّحاً ويعثر تحته على عقرب غير متوقعة، فيجدها وقد استنفرت قواها على الفور وأصبحت مستعدة للهجوم؛ أو عندما كانت تنبثق فجأة من داخل العفن الداكن المتراكم على أوراق التبغ فصيلةٌ من الفطر الذي يمتاز بشحوبه الشبحي وقلنسواته متعددة الأشكال، والتي تبدو أشبه بلاجئين وصلوا أثناء الليل، أو عندما يلتقي بمجموعة من القردة ذات شعر فضي وأقنعة سوداء، تثب من شجرة إلى شجرة لتصل إلى مبتغاها، مطلقة صيحاتِ فرحِ المنتصرين في الحرب، أو تلهو مثل فناني الأراجيح في ألعابَ السيرك، لتختفي بعد ذلك خلف أشجار الغابة مثلما يفعل الممثلون عندما يغادرون خشبة المسرح.

أينما أدرت بصرك تجد هناك الحجارة، شظايا الأردواز الزرقاء المسطحة، وقطع الحصى التي بَلِيَتْ بفعل تقلبات الطقس حتى اكتسبت نعومة لا تُقاوم، والتي بالإمكان جمعُها وتصنيفُها وفق الحجم واللون ضمن أشكال وتصاميم لا حصر لها، حيث لم يكن أيٌّ منها متكرراً أو ثابتاً.

لا حصر لها إلا إذا كنتَ مثل بهولا الذي يُحضر معه دوماً منجنيقاً، يرفعه بصورة آلية كلما رأى حمامة أو سنجاباً يمكنه اصطيادهما. أما رافي فلم يكن يمارس هذه الهواية؛ فقد مثّل كوم الريش الميت أو كوم الفراء بالنسبة له شيئاً شاذاً شأنه شأن الكائن المذبوح، كان رافي مهتماً فقط بالتغيرات والطفرات الوراثية التي تطرأ على الكائنات الحية، واحتمالاتها التي لا تُعد ولا تُحصى.

بدا كما لو أن الستائر قد أُسدلت على هذه الأشياء كلها، هذا

إن لم تمحُها تماماً، عندما هبَّت الريح الموسمية وارتفعت بهيئة سحب رعدية من الوادي المتعطش للمطر في الأسفل، لتبتلع الهضاب وتغزوها بضباب معتم، لم تكن تظهر من خلاله أشجار الصنوبر أو قمم الجبال إلا بصورة متقطعة، وبعد ذلك يهطل مطر غزير يرغم رافي على التوقف عن التجوال، ويجعله حبيس المنزل أياماً عدة بلا انقطاع، وقد أصابه الصمم من جراء المطر الذي يقرع سطح المنزل وينهمر كالشلال على القنوات المائية في جوانب الطرقات، ويندفع متدفقاً في سيول جارفة تنحدر من أعالي التلال إلى أسافلها.

أضحت جميع حاجيات المنزل رطبة؛ وزحف الفراء الأزرق للعفن الفطري خلسة على كل الأشياء التي تُركتْ في مكانها حتى ولو لبرهةٍ وجيزة من الزمن؛ الأحذية والحقائب والصناديق، لقد أتلفها جميعها بلا استثناء، كانت ملاءات السرير نديّة عندما اندسَّ تحتها ليلاً، ودوَّى الظلام بالصرير المتنافر والحاد للجداجد الشجرية الضخمة التي تنتظر هذا الموسم، إنه موسمها. ومن البِرْكة الكائنة في الأسفل ضمن البقعة الخالية من الشجر، ينبعث النقيق المبتهج للضفادع الأمريكية الكبيرة. كان رافي يودُّ، وهو يستلقي يقظاً ومرهفاً السمع، أن يتسلل إلى الخارج حاملاً مصباح هاري سنغ ليسلِّط عليها أشعته، لكن ربما كان الوميض المنبعث من اليراعات، التي تمر بالآلاف بين الأشجار، كافياً للإضاءة، ارتعدت أوصاله من البرد والترقب.

لكن هاري سنغ كان يحبسه بعناية في الداخل ليلاً، وفي

النهار يملأ مسامعه بحكايات النمور التي تخرج من الغابة لتفترس الماعز والعجول المسكينة التي تُترك في الهواء الطلق، كما عُرف عنها بأنها تختطف حتى كلاب بهوتيا[21] الضارية التي يربيها الناس لحراسة منازلهم وماشيتهم، فأي فرصة في النجاة كانت أمام غلام صغير ونحيل العود مثل رافي في مواجهة حيوانات كهذه؟ هذا هو السؤال الذي وجهه هاري سنغ لرافي، وهو يضع له عشاءه على أحد طرفي المائدة، ثم يقف إلى جانبه وعلى كتفه قطعة القماش التي يمسح بها الأطباق. وبينما ينشغل رافي بتناول طعامه كان هاري سنغ يحدثه عن أيام مجده، عندما كان جد رافي يأخذه في حملات الصيد التي يقوم بها، ويسمح له بحمل البنادق التي يطلق منها الرصاص على الدببة والغزلان والنمور، التي كانت جلودها غير المدبوغة وقرونها ورؤوسها ذات العيون الزجاجية تراقب رافي وهو يزدرد طعامه. بالطبع لم يأكل الغلام إلا القليل من الطعام، حيث كان فاغراً فاه من الدهشة وهو يصغي للحكايات التي يرويها له هاري سنغ، ولذلك توقف الأخير عن تجهيز مائدة الطعام بالأواني الزجاجية والفضية الضرورية، وبدأ يسمح لرافي بتناول وجباته على طاولة صغيرة موجودة على الشرفة، لكي لا يكون معزولاً عن عالم الهواء الطلق الذي يوفر له كل الغذاء مما يحتاج إليه، وعندما يهطل المطر، كان هاري سنغ يقدم لرافي طعامه على طبق، ويُجلسه على كرسي خفيض في زاوية المطبخ، بجوار النار التي ينبعث منها السخام، في حين يقوم هو بتدخين سيجارة،

(21) بهوتيا: منطقة في التيبت.

وهو أمرٌ ممنوع عليه تماماً القيام به بحضور الأبوين.

الشخص الوحيد الذي زار المنزل خلال فترات الصيف الطويلة، التي يسافر فيها الأبوان، هو المدرّس الذي كانا طلباه لديهما ليشرف على واجبات رافي، ويُدعى السيد بينجامين، وهو يدرّس في إحدى المدارس الداخلية العديدة المنتشرة على امتداد سلسلة التلال، حيث يزيد من دخله عبر إعطاء الدروس الخصوصية كعمل إضافي، وقد وافق عليه الأبوان لأنه كان دائماً يرتدي بذلة وربطة عنق، ويتكلم بلغة قريبة من «اللغة الإنجليزية الجيدة»، ولذلك لم يستفسرا كثيراً عن مؤهلاته كي يعلّم ابنهما مادة الرياضيات التي لم تكن مادة محبَّبة بالنسبة له (مثلما لم تكن أيضاً بالنسبة للسيد بينجامين). كان رافي يتمنى أن يكون موضوع الدرس شيئاً آخر مثل علم الطيور أو الجيولوجيا، لكن السيد بينجامين كان يعتبر نفسه أعلى منزلة من هذه المسائل التافهة، وعندما يصل إلى المنزل كان يتنحنح ويعلق عصا المشي الخاصة به ومظلته، ويدعك فردتي حذائه بقوة بممسحة الأرجل كي يزيل القذارة التي علقت بهما خلال مسيره باتجاه البيت الواقع على قمة التل، متسائلاً بصوتٍ عالٍ عن الشيء الذي جذب والدَي رافي كي يسكنا بعيداً عن وسط ميسوري المتحضر، مع أنه يعلم تماماً أن والد رافي ورث المنزل من أبيه الذي كان يملك مصنعاً للبيرة في هذه الأنحاء، والذي كان يأتي من بومباي، كما يزعم، ليشرف على مصنع البيرة، لكنه، في حقيقة الأمر، يأتي من أجل الصيد وغنائمه. بعد ذلك كان السيد بينجامين يطلب من رافي أن

يفتح كتبه ليبدأ بالدراسة.

وبينما يمرّ وقت ما بعد الظهر ببطء وملل، كان رافي ينحني أكثر فأكثر على دفتره الملطَّخ والمبقَّع، ويلوك قلم الرصاص إلى أن يتشظى ويصبح مضطراً لأن يبصق ما علق بفمه، الأمر الذي يجعله يتلقى ضربة شديدة ومؤلمة على رأسه من مسطرة السيد بينجامين. كان يستطيع سماع أصوات أطفال هاري سنغ وهم يلعبون في الفرجة الخالية من الشجر الواقعة في الأسفل، كما يستطيع سماع صياح ديكهم وثغاء ماعزهم، ويصيبه الحزن عندما يدرك أن ضوء ما بعد الظهيرة، خلال تلك الفترة، يضمحل رويداً رويداً.

بيد أن السيد بينجامين كان يمكث هناك إلى أن يُحضر له هاري سنغ في تمام الساعة الرابعة كوباً من الشاي الساخن الذي تعلوه رغوة الحليب، ويتسم قوامه بالسماكة من كثرة السكر المُضاف إليه. آآه، كان المدرس يتنهد، ثم يتخلى عن قدرٍ من لياقته المهنية ليسكب مقداراً ضئيلاً من الكوب في الصحن الصغير، وينفخ عليه، ثم يرتشفه بصوت مسموع وبغبطة، وهو يتنهد: آآه، آآه. لم يكن ليفعل ذلك أمام الأشخاص الذين استخدموه لهذه المهمة، لكن رافي بالطبع ليس واحداً منهم، إذ إن كل ما يدور بخلد رافي هو أنه يجب إقناع هاري سنغ بطريقة أو بأخرى كي يُحضر كوب الشاي في وقت أبكر، وعندما كان ينتهي السيد بينجامين على مضض من ذلك الكوب الذي هو مصدر لذة بالنسبة له، كان يوجِّه لرافي المزيد من الضربات الخفيفة بالمسطرة ليذكِّره بأنه ليس سوى طالب مدرسة بائس، وأنه يتعين

عليه الاهتمام بدروسه بدلاً من أن يحدق إليه فاغراً فاه، وبعد ذلك كان يتناول عصا المشي الخاصة به ومظلته، ويتوارى بين الضباب العائم الذي تحدثه الرياح الموسمية.

لماذا لم يكن أبواه يأخذانه معهما عندما يسافران إلى الخارج؟ لم يطرح الغلام هذا السؤال من قبل، وهما بدورهما لم يشرحا له السبب، يبدو أنهما كانا يؤمنان بأن المكان الطبيعي له هو المنزل، أما هما فمكانهما الطبيعي هو العالم الأرحب، الذي لا يوجد لديهما فيه بالطبع وقتٌ كافٍ للاهتمام به أو خادمٌ ليلبي له احتياجاته، وقد قالا إنه سيكبر ذات يوم، وسيتمكن من مرافقتهما في أسفارهما، ولم يخطر ببال أحد أنه ما من سبب يحول دون اصطحابه معهما الآن، لكن ما لم يتم قوله، أو حتى التنويه إليه، هو أنهما كانا زوجين بلا أطفال، وأن رافي هو الطفل الذي تبنياه، بناء على اقتراح من عمّة بعيدة ومُحبة للخير والعمل الإنساني، ومع ذلك، لم يكن وجوده بينهما، كما هو واضح للجميع، يشير إلى أنهم أسرة واحدة. وبالطبع، كان غيابهما يمثل، إلى حدٍّ ما، إجازته التي تنتهي برجوعهما إلى المنزل.

كانت عودتهما من السفر تتزامن مع بدء السنة الدراسية، وهو الوقت الذي يحين فيه إخراجُ الفانيلات الرمادية وارتداؤها، إلى جانب السترة الفضفاضة قرمزية اللون التي تحمل على جيبها شارة تُظهر حرف H مكتوباً باللاتينية، لا أحد يفهم المقصود منه، وأيضاً عَقْدُ ربطة العنق على شكل أنشوطة تحت ياقة القميص؛ حيث تأخذ الخُطا بالتباطؤ والحماسة بالتراجع

يوماً بعد يوم أثناء صعود التل للتوجه نحو ذلك السجن المتمثّل في المباني المدرسية المحتشدة حول فناءٍ تنبعث منه الضوضاء التي تُصدر أصواتَ بقبقةٍ قوية مثل غلايةٍ تواصل الغليان إلى أن يدق جرس التنبيه، فتُرفع الغلاية بغتة من فوق النار. كانت طوابير الأولاد تسير وفق نظام الدروس الذي يديره معلمون سريعو الغضب اعتادوا معاقبة التلاميذ عبر رمي قطعة طباشير على هذا أو لـيٍّ أُذن ذاك، حيث يقع اختيارهم على أكثر أولئك التلاميذ بؤساً ليعاقبوهم بطرائق مبتكرة وشيطانية، وكانت هذه تُعتبر الطريقة الوحيدة للمحافظة على الشعار المكتوب باللاتينية، والذي لا أحد يفهم المقصود منه.

بعد هذه المعاملة القاسية -وكان رافي يخجل من أن يروي لأي شخص، أو حتى أن يعترف لنفسه بأنه الهدف المفضل لمحققي المدرسة- لم يستطع أن يتفاعل بمرح مع مجازفات زملائه الضحايا الذين يتسكعون حول بوابات المدرسة بعد انتهاء الدروس كي ينظروا إلى البنات، بتنوراتهن القصيرة ذات الطيات وبلوزاتهن الصوفية الخضراء السميكة، اللاتي كن ينصرفن من المدرسة المتاخمة، ويحاولون إغواءهنّ أحياناً، وأحياناً كانوا يفلحون في محاولاتهم تلك بعدما يعدُونهنّ بشراء الآيس كريم لهنّ من متجر مانوليا أو باصطحابهنّ لمشاهدة عرض سينمائي في سينما (بيكتشر بالاس). كان اليوم المدرسي يولّد شعوراً بالغاً بالخيبة لدى رافي، لدرجة أنه لم يكن يحتمل تعريض نفسه لخطر خيبةٍ أخرى، لذلك كان يحمل حقيبته المدرسية على ظهره وينسل خلسة إلى المنزل على أمل ألا يلاحظه أحد، وهذا

ما يحدث في أغلب الأحيان.

بالنسبة له لا يعني الانصراف من المدرسة سوى الذهاب إلى المنزل الذي يسيطر عليه الأبوان، وإذا لم يكن أبواه يستخدمان مسطرة ليشجّا بها رأسه، أو يرميان أشياء معينة عليه وهما في سَوْرة غضب، فإنّ لديهما طرائق أخرى كفيلة بجعل ابنهما يغرق في مستنقع من البؤس. كانت للمنزل في ظل وجودهما مجموعة من القوانين الصارمة، فالجرس يُقرع على فترات منتظمة وبمنتهى الدقة، حيث إن دقة التوقيت إحدى العلامات الجوهرية لأسلوبهما الغربي في الحياة، أما قواعد الجلوس إلى مائدة الطعام فتنبغي مراعاتها بدقة شديدة، وهي علامة أخرى من تلك العلامات الجوهرية التي يمتلكان ترسانة منها، وكل مخالفة لهذه القوانين كانت تتم مهاجمتها ويجري تصحيحها. لقد تربّيا على أن وضع العصا جانباً يفسد الولد، ولذلك يعتبران نفسيهما متساهلين، وكانت تمر أوقات طويلة وهما جالسان إلى المائدة، إذ إن الطبق الرئيس من وجبة الطعام يأتي بعد الحساء الذي تعقبه الحلوى، وبعد ذلك يتم تقديم أحد المقبلات التي يحمل بعضها أسماء جذابة، من مثل «ملائكة على صهوات الجياد»، علماً أن المقبلات ذاتها ليست جذابة على الإطلاق.

ثم كانت هناك ضروب التسلية التي ينخرطان بها، والتي تتطلب منه الاختفاء التام والتزام الصمت المطبق، مثلما يحصل عندما يلعب الأبوان بالورق لعبتي البريدج والكناستة، ويحتسيان الشاي أو الكوكتيل. كان يشعر بقدر من السعادة

عندما يختبئ في المطبخ ويراقب هاري سنغ وهو يرتب صينية شاي أو يقوم بخفق زلال البياض من أجل إعداد الحلوى، حيث يمرِّر له خلسة قطعة من الحلوى أو لقمة من طبق شهي، لكنّ هناك أيضاً ساعاتٍ معينةً يتوجّب عليه فيها أن يجلس شبه مقيَّد بكرسيه وهو يؤرجح قدميه، إلى أن يحين وقت تناول العشاء أو الإيواء إلى الفراش، وهذان لا يقررهما إلا هاري سنغ.

كانت الأمور تتحسن بالنسبة له عندما يلبس أبواه ثيابهما ويرشان على نفسيهما العطور الباريسية الغريبة ثم يستقلان سيارتهما ويمضيان، لكن هذا الأمر لا يتكرر بالقدر الكافي بالنسبة لرافي، لأن أبويه يسافران إلى الخارج خلال ما كان يُعرف بـ «الموسم» في منطقة ميسوري، عندما يأتي البريطانيون إلى التلال «هرباً» من «السهول»، ويحضرون معهم مسرحياتهم وحفلاتهم الراقصة وحزوراتهم التمثيلية والحفلات التي يقيمونها في الحدائق.

كان والد رافي يقول أحياناً بنبرةٍ كئيبة:

- لمَ لا نمضي الصيف هنا ولو مرة واحدة يا تيهمي؟ قيل لي إنه فصل حافل بالبشاشة والمرح.

لكن تيهمي، التي ترعرعت في بومباي وفي مدرسة تكميلية في سويسرا، كانت تعتقد بأن الإجازات الصيفية يجب أن تُمضى في نيس أو مونترو، حيث العديد من أفراد أسرتها يعيشون هناك، وأحياناً تصل به الأمور إلى حد التذمر فيقول:

- إن تكاليف السفر باهظة جداً كما تعلمين يا تيهمي.

فكانت تقطِّب وجهها، وتظهر عليه ملامح النفور والاشمئزاز

لكونه تحدّث عن شيء لا يستحق الذكر على الإطلاق.

من حسن حظه أن هذه الرحلات انتهت عندما اندلعت الحرب، ومع أن تجارة المشروبات الكحولية التي تمتهنها الأسرة كانت مزدهرة بصورة لا سابق لها، فإن من غير المعقول المخاطرة بالقيام برحلة بحرية، لأن السفن كانت هدفاً دائماً للطوربيدات، أما ميسوري فإنها لم تكن يوماً مبهجة كما هي عليه الآن، وكذلك الأمر بالنسبة لمناخها الصحي الذي كان ضرورياً جداً لصحة واستجمام الجنود البريطانيين الذين يأتون في إجازة من جبهات القتال في بورما وجزر الملايو وسنغافورة، كما كان لزاماً على سيدات ميسوري أن يوفرن لهم المتعة والاسترخاء اللذين كانوا بأمسّ الحاجة إليهما.

وفي نهاية المطاف تمكّن الأب من العثور على مصدر للمتعة في ميسوري، التي هي بمثابة منفى بالنسبة له ولزوجته، وذلك من خلال «مأوى الصيد» الذي كان يملكه والده، وكان أشقاؤه وأعمامه قد اكتشفوا ذات يوم حجم الكوارث التي قد يجلبها على تجارتهم، فرأوا أنه لا بد من إبعاده. أصبح بإمكانه الآن أن يذهب إلى حفلات الرقص في نادي هاكمان في أي ليلة يشاء، لابساً ثياب السهرة الخاصة به، بالإضافة إلى الوشاح الحريري المُلقى على كتفيه وقبعة الأستراخان التي اشتراها من برلين، والتي كانت تستقر بصورة لا تتقيد بالعرف والرسميات على شعر رأسه الذي يومض بمرهم عطري. لقد جعله إدمانه على الرقص يستهلك الكثير من الأحذية الجلدية اللماعة، وكان يأتي إلى البيت وهو يتنهد بقوة كما لو أنه تنين، وتصدر من فمه

رائحة نتنة كرائحة فم النمر، كما كان يدندن ببعض الأغاني وهو في طريقه إلى السرير، في حين كان رافي في الغرفة المجاورة منكمشاً تحت بطانيات فراشه، لعله بذلك يبعد شبح الرعب عنه.

كانت صحة والدته بدأت تتدهور خلال تلك السنوات، حيث تذهب مع زوجها إلى الحفلات ونوادي الرقص، لكن كان جلياً أن تلك البيئة وذلك الأسلوب في الحياة لم يكونا يناسبانها، تنطلق في رحلتها وهي متأنّقة في ملابسها كعادتها، لكنها تلف شالها الصيفي الخفيف حول جسمها كما لو أنها تحتاج أن تلوذ به من شيء ما، أما ملامح وجهها فلا تتسم بالإشراق أو الترقب، بل تبدو وكأنها على وشك أن تبتلع جرعة من سائل غير مستساغ. لم تكن تراقص الضباط الإنجليز، وكانت تراقب، وهي جالسة بين مجموعة من الزوجات المصدومات والمطيعات في الوقت نفسه، كيف كان زوجها حسني يمضي بابتهاج إلى الضابطات في سلاح الجو الإنجليزي الاحتياطي ويدعوهن إلى الرقص، كانت غالبيتهن يتسلين بسلوك هذا الرجل ضئيل البدن الذي لا يبدو أنه يعي مكانته، حيث وافق عددٌ منهن على مراقصته؛ إنه راقص بارع مع أنه كان يتباهى بنفسه إلى حدٍّ ما.

وقد نال العقاب الذي يمكن أن يتوقعه أي شخص؛ فقد كان بين الحاضرين ضابطٌ في الجيش البريطاني خرج مؤخراً من ميادين القتال، ويبدو أنه كان أكثر تأثراً بما خاضه من تجارب مما يمكن أن يتصوره أي إنسان، فضلاً عن أنه كان ثملاً للغاية، لم يحبِّذ هذا الضابط رؤية ذلك الرجل ضئيل البدن داكن البشرة

وهو يراقص زوجته، كما لو أنه واحد من تلك القرود التي ترافق عازفي الأرغن في الشوارع، لذلك تبعه إلى الخارج حيث تقف سيارته بانتظاره. لو كنا في زمن آخر، ربما كان سيتحدّاه ويدعوه إلى المبارزة، لكن زمننا هذا أكثر وقاحة، وبكل بساطة رفع هراوته وراح يهوي بها على رأس ذلك المغرور وكتفيه وظهره، إلى أن تمكّن سائق حسني من أن يبعده عنه ويدخله إلى السيارة ثم يهرب به.

لم تعد والدة رافي بعد ذلك إلى ما كان يُعرف بـ«مجتمع ميسوري»، وبعدما استرجع الأب عافيته، رفع ذقنه، التي كانت مضمَّدة، وأصر على الخروج من المنزل بنوع من التباهي، ربما كان تباهياً قومياً أو مجرد نوع من العناد، لكنه لم يقصد نادي هاكمان ثانية، ولم يحاولَ الدخول مجدداً إلى المجتمع البريطاني، واكتفى بالمشهد الهندي الأكثر ألفة، مثل ممارسة ألعاب البريدج وحضور الاحتفالات السنوية الرزينة بشتى صنوفها وقضاء عدة ساعات في حانة النادي. كانت زوجته في معظم الأوقات ملازمة لغرفتها، بل حتى لفراشها، لم تكن هي التي لحق بها الأذى، فهي لم تتأذَّ جسدياً، لكنّ كل من لديه الاهتمام الكافي لتحليل حالتها كان سيقول إن «روحها» تلقت صدمة، كل ما كانوا يقولونه في حقيقة الأمر هو أن مرض الربو الذي ابتُليت به المسكينة تيهمي بدأ يستفحل لديها.

لم تكن تيهمي تدعو ابنها رافي إلى غرفة نومها إلا لماماً، إذ إن أعصابها لا تتحمل ذلك، إنما في هذا الوقت دخل شخص رابع إلى منزل الأسرة، وعلى غرار العَجَلة الرابعة التي تُضاف إلى عربة متمايلة، فقد وفَّر وجود هذا الشخص شيئاً من التوازن

إلى ما كان قد أصبح عديم التوازن بصورة خطيرة جداً.

لم يدُر بخلد أحد أن الآنسة دورا ويلكنسون ستكون قادرة على أداء مثل هذا العمل الهندسي الفذ، فقد تم اختيارها من مأوى خاص بالسيدات البريطانيات المُعْوِزات، مع أنها لا تمتلك الكثير من المهارات التي يمكنها أن تتباهى بها. كانت كبيرة السن بصورة لا يمكن إنكارها، فقد غزا الشيب شعرها الذي كان يوماً ما أشقر، كما بهت لون عينيها اللتين كانتا زرقاوين، وقد ارتسمت على وجه حسني علامات واضحة تنم عن خيبة الأمل، عندما قرر العدول عن إجراء مقابلة معها لاستخدامها كرفيقة محتملة لزوجته، ولكن لهذا السبب تحديداً خطر له فيما بعد أنها قد تكون ملائمة بشكلٍ بارز لهذا المنصب؛ فهي بالتأكيد لن تطلب إجازة للذهاب إلى حفلة رقص خلال فترة ما بعد الظهر، وحتى إنها لن تتمكن من الانضمام إلى مستخدميها وهم يلعبون الويست[22]، لكنها بذلت كل ما بوسعها لتوفر للسيدة تيهمي شكلاً من أشكال الرعاية التمريضية المتمثلة بوضع لمسة من ماء الكولونيا من نوع 4711، أو إعداد كوب من الشاي، كما أنها تستطيع أن تقرأ لها بصوت عالٍ ومرتعش إلى حدٍّ ما قصائد إليزابيث باريت براوننغ وكريستينا روزيتي، لهذا السبب كان لحضورها أثرٌ بالغ في إعادة الهدوء والطمأنينة إلى السيدة تيهمي؛ ليس هذا وحسب، بل هناك أيضاً سببٌ آخر غير معلَن، وربما يتخطى عتبة الوعي، حيث وجدت السيدة تيهمي في البشرة الشاحبة للآنسة ويلكنسون وفي عينيها الفاتحتين

(22) الويست: أحد أنواع لعبة الورق.

وطريقة حديثها باللغة الإنجليزية ما يعوِّض زوجها، بصورة عصيّة على التفسير، عن المعاملة القاسية التي تلقاها، وما نجم عنها من إذلال له. كانت الآنسة ويلكنسون تحمِّم حاجبي تيهمي بماء الكولونيا، وتساعدها على ارتشاف مرق اللحم من كوب مصنوع من الخزف الصيني الهش، وكان من المفيد، بل من المُطَمئن، معرفة أن أشياء كهذه قد تساهم أيضاً في إعادة الهدوء والطمأنينة إلى حياة السيدة تيهمي.

عيبها الوحيد، بمعزل عن عمرها، هو أنها تملك قطّة، وكان ممنوعاً على القطة أن تدنو من حجرة نوم المرأة المصابة بمرض الربو، ومن المفترض أن تبقى في المكان الخاص بالآنسة ويلكنسون. كان رافي يسأل بوجل ما إذا كان بوسعه أن يدخل الحجرة كي يتأمل القطة، وهي تجربته الأولى في التعامل مع الحيوانات «الأليفة». هو ليس متيقناً من حبه لهذه الحيوانات، أو ما إذا كان ذلك مجرد حب استطلاع لا غير، ولا صلة له بالعالم البرّي الذي تنتمي إليه تلك القطة، غير أنه يفضِّل الجلوس على كرسي خفيض، واضعاً ذقنه بين راحتي يديه وهو يحدق بها، وحتى القطة نفسها بدت غير متأكدة مما إذا كانت تستحسنه، حيث إنها تتكئ واضعة كفَّيها الأماميتين تحت ذقنها، بينما تقوم بإغماض عينيها الخضراوين تدريجياً حتى تتحولان إلى شقين صغيرين كي تراقبه بحذر، وذلك من دون أن تلمِّح له أبداً أنها تفعل ذلك، لكنّها تجفل حالما يقوم بأدنى حركة، كان يجمعهما افتتان مشترك وخوف مصحوب بتوتر وانجذاب لا يقاوم.

كانت الآنسة ويلكنسون وحدها التي تبتسم وتبتسم

بلا انقطاع، لأنها متيقّنة من أنه ما من مجتمع آخر يتمتع بهذه الدرجة العالية من التناغم والانسجام، وهذا ما جعل رافي يستحق منها شعوراً بالامتنان لا حدود له، كانت تطلب منه أن يسدي لها بعض الخدمات الصغيرة، وقد كان ذلك من أجله هو كمراهق خجول بقدر ما هو من أجلها هي، كأن يجد لها ريشة لتضعها مؤشراً في الكتاب الذي تطالعه، أو أن يحضر لها بعض الأزهار كي تضعها في المزهرية. كان وجهه يحمر زهواً عندما تطلب منه ذلك، ويرتبك في مشيته عندما يذهب ليقطف لها بعض الأزهار من نبتة الباشن فروت المتسلقة على درابزين الشرفة، أو لينتف لها ريشة زرقاء من ذيل طائر عقعق وجده على منحدر التل، علماً أنه يعتبر ذلك الطائر من مقتنياته الثمينة، وكانت تتلقى هذه الأشياء منه بكثير من المديح والشكر.

أما الأب، الذي بدا وكأنه أدرك أن ليس ثمة دور آخر ليلعبه، فقد طلب أن تقلّه السيارة، بعدما أمضى أمسيته في النادي يلعب البريدج، وسط المطر المنهمر مدراراً، والذي أزال أجزاء كبيرة من الطريق شديد الانعطاف، لتدخل السيارة وسط انهيار أرضي لم تتمكن مصابيحها الأمامية من كشفه بسبب المطر الغزير، وفي منتصف الطريق المؤدي إلى الوهد اصطدمت السيارة بشجرة صنوبر بقوة شديدة، بحيث كادت تنشطر إلى نصفين. عثر القرويون عليه وعلى سائق السيارة، وحملوهما إلى المستشفى الكائن فوق سلسلة التلال، وبعثوا برسالة إلى الأسرة، أخبروها فيها أن إصابته ليست بليغة جداً، وأنه سيتماثل للشفاء، أما بشأن السائق فلم يكن بمقدورهم إطلاق مثل هذا

التنبؤ المتفائل لأنه كان أصلاً قد فارق الحياة، لكن تبيَّن فيما بعد أنهم كانوا مخطئين؛ فقد توفي الأب في تلك الليلة بسبب إصابات باطنية لحقت به بعد طلبه مشروب البراندي، إنما قبل أن يتمكن من شربه.

لم يعتبر رافي أن السنوات التي أعقبت تلك الفترة جزءٌ من عمره، وذلك لأنه لم يعترف بها على أنها مُلْكٌ له؛ فهي لا تنتمي إلى حياته، لأنها لا تنتمي إلى الغابة والتلال، بل هي تنتمي إلى تلك الأسرة المقيمة في بومباي، وإلى مكتب العمل، وإلى واجباته التي كان مطلوباً منه أن يقوم بها هناك، وإلى علاقاته بتلك الأسرة، وإلى الكلية التي أمضى فيها بعض السنوات يدرس «علم الإدارة»، مع أنهم لم يوضحوا له، وهو كذلك لم يفهم أبداً، الشيءَ الذي يتعين عليه أن «يديره». قد يتبادر إلى ذهن المرء أن تلك السنوات قد تحتاج إلى مجلدٍ كاملٍ لسرد الأحداث والوقائع التي شهدتها، لكن رافي بدا وكأنه موضوع خلالها داخل كتلة من الإسمنت الرمادي، إذ إنه لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً أو يسمع شيئاً أو يقول شيئاً.

أصبح رافي يعلم أن أسرته تعتبره متخلفاً بصورة غريبة، بل إنها تنظر إليه كمخلوق برّي ينتمي إلى الجبال، وفي بعض الأحيان كان أبناء خالاته يضحكون عليه بسخرية عندما يمر بهم، وكانت إحدى خالاته ترفع إصبعها نحو رأسها وتلويه كالبرغي المرتخي، عندما تعتقد أنه لا ينظر إليها.

ذات يوم قاموا بنزهة إلى شاطئ البحر، كانت تلك المرة الوحيدة التي يتذكر أنه شاهد فيها المحيط الهندي، بطبيعة

الحال، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، نظراً لأن مدينة بومباي عبارة عن جزيرة، ويحيط بها البحر من كافة الجهات، لكنه لم يسبق له أن اقترب من البحر بهذا الشكل إلا إذا مرّ بجواره وهو داخل سيارة، وفي هذه المناسبة تمكّن فعلاً من الإفلات من القيود المفروضة عليه ليتسلق بعض الصخور المكشوفة بفعل انحسار المدّ، ويستنشق ملء رئتيه هواء البحر المشبع بالماء كما لو أنه يستنشق أوكسجين الحياة، وفي كل الأنحاء هناك برك ماء منتشرة وسط الصخور النديّة والمبللة، وكان يمشي بصورة عمياء في وسطها وهو يلبس جواربه وحذاءه، حيث كان مبهوراً بذلك العالم المائي المتلألئ الذي لم يعلم أنه موجود من قبل. كان يجثو على ركبتيه في الرمل الندي ليحدق في إحدى تلك البرك، مُدنياً وجهه منها رويداً رويداً حتى تكاد تغمره، يشعر أنه يحتاج إلى قضاء حياة كاملة ليتأمل الحياة الاستثنائية والغريبة التي تعجُّ في داخلها، حياة شديدة الصغر والتنوع وتختلف كثيراً عن أي حياة مماثلة مرتبطة باليابسة، لكن الأسرة كانت ترسل خلفه الصبي الخادم، الذي أحضرته معها ليخفف عنها أعباء هذه النزهة، كي يمسك به من كُمّه ويسحبه حتى ينهض على قدميه، ثم يعود به وهو يشعر بمنتهى الصدمة إلى حيث يجلسون على حصيرة مفروشة بعيداً عن المجال الذي يمكن أن تصل إليه مياه البحر.

إنه أشبه بسجين لديهم، فقد كان يتعرض، كأي سجين، للاحتقار وسوء المعاملة، لكن ذلك لا يتجاوز الحد الذي يمكن أن تلفت عنده تلك المعاملة السيئة أنظار الناس. كانت الغرفة

التي خصصوها له مخزناً فيما مضى، وهي لا تزال تعجُّ بقطع الأثاث المكسرة والصناديق المرزومة، نافذة الغرفة الوحيدة تطل على مظلة القمامة الخاصة بالمبنى، والجيران يرمون بأكياس النفايات إلى داخل المظلة من نوافذ مطابخهم وحماماتهم؛ وكانت جدرانها مخططة بالأسود والأصفر والأخضر، والرائحة النتنة تصعد بقوة إلى نافذته، وبات مقتنعاً أنه سيموت هنا ليوضع بعد ذلك في كيس قمامة، ثم يُرمى وسط هذا البخار العَفِن. ليس هناك أحدٌ يستطيع أن يشرح له أنه لكي يبقى على قيد الحياة، فإنه يحتاج للإقامة في مكان مرتفع مثل جبال الهملايا حتى يستطيع أن يتنفس، ربما كان سيختنق بكل معنى الكلمة لو أنه لبث هناك مدة أطول.

في تلك الظروف لم يكن يعلم حقيقة كم طالت إقامته هناك.. شهوراً عدة؟ بضع سنوات؟ قبل أن يصله خبرٌ يفيد بأن والدته نُقلت إلى حجرة العناية المركَّزة في المستشفى، ليعقبه بعد ذلك خبر وفاتها، وهذا كان بمثابة الخلاص، خلاصها هي الذي أعقبه خلاصه.

ربما ثرثر وقهقه كالمجنون خلال رحلة عودته، وربما لا، لكنه تذكَّر كيف وثب على رصيف المحطة قبل أن يتوقف القطار نهائياً في محطة ديهرا دون، وكاد يهوي على ركبتيه من جراء ذلك، ومن ثم شقَّ طريقه بصعوبة إلى داخل الحافلة التي أقلّته إلى ميسوري. ما كان أقاربه المقيمون في بومباي ليصدقوا أنه بتلك الشراسة، وخلال برهةٍ من الزمن واصل طريقه باستماتة؛ لم يكن يبدو أن الحافلة ستتمكن من تخليص نفسها من حركة

المرور لا في المدينة ولا في الريف، فقد كانت هناك حافلات أخرى وشاحنات ضخمة تسير ببطء وتثاقل ومحمَّلة بالصخور والأخشاب والأكياس والرزم والرجال الجاثمين فوق تلك الأشياء، حيث يغطون وجوههم وأفواههم بأوشحة للوقاية من الغبار والأدخنة المتصاعدة من عوادم السيارات، أين ذلك السكون الذي لا يزال عالقاً في ذاكرته؟ أو أين تلك العزلة؟ سأل نفسه في نوبة من نوبات نفاد الصبر، إلى أن أدرك أن كل انعطافة في ذلك الطريق الملتوي تنتقل به من مكان عالٍ إلى آخر أعلى، وأن الهواء الذي يهبُّ عليه من النافذة المفتوحة يصبح أكثر برودة وإنعاشاً وجفافاً، إنه الهواء الذي يستطيع أن يستنشقه إلى داخل رئتيه في جرعات طويلة لأنه يهبُّ، على ما يعتقد، من الثلوج، التي كان نصفها متخيَّلاً ونصفها الآخر محسوساً، كما لو أنها خربشة شاحبة على صفحة السماء الشاحبة.

من هنا كانت تبدأ الغابة، هنا تستطيع قبيلة من القرود أن تجلس على قطعة من جدار، وأن تنظُّف فراء بعضها وتراقب الحافلات المارة، منتظرة حفنة من حبات الفستق أو موزة يرميها الركاب وهم يضحكون، وهنا يتدفق فوق الصخور نُهيرٌ صغير يمتد فوق ضفتيه ملجأٌ غير متقن البناء تم تشييده من الحجارة والعيدان، وهنا شجرة صنوبر تتكئ بصورة غير ثابتة على جرف صخري، وقد شطر البرق جذعها إلى نصفين، وهنا بستان برتقال نما داخل فُرجةٍ خضراء من الغابة، وثماره التي تتوهج بلونها المتألق. وبعدما تم تجاوز الغبار والروائح الكريهة التي تتميز بها المدينة والمناطق السهلية، واصلت الحافلة صعودها

بين الجبال، ليتم استبدال تلك الروائح وذلك الغبار بالرائحة شديدة العذوبة لغابات الصنوبر ودخان مواقد الحطب والهواء الجبلي الذي يتمتع بصفاء يضاهي صفاء الزجاج.

قطع المرحلة الأخيرة من رحلته سيراً على الأقدام، واكتشف مجدداً الطرقات المؤدية إلى خارج المدينة والمتجهة نزولاً صوب الغابة، التي يمر عبرها الطريق المؤدي إلى منزله، كان سطح المنزل يظهر جلياً فوق قمم الأشجار، والطيور ترسل صيحاتها الطويلة والشبيهة بصوت الناي عبر إيقاعات لولبية، ويرد عليها، مستخدماً نفس الإيقاعات، بأصوات صفير طويلة، هي الأخرى شبيهة بصوت الناي، يتردد صداها عبر السكون المخيم على المكان.

كان سكوناً وليس عزلة؛ فالآنسة ويلكنسون باقية في المنزل، وسيبدو تصرفاً قاسياً أن تتم إعادتها، بعد وفاة والدته، إلى مأوى السيدات البريطانيات المُعوزات الذي شارف وقتذاك على الانهيار، حيث ليس هناك موارد مالية تمكّن البريطانيين من ترميمه أو تزويده بالموظفين، لذلك فإن جميع اللواتي كنَّ ما يزلن يعشن هناك، ولم يتم إرسالهن أو نقلهن إلى مكان آخر، كنَّ يعشن في مبنى متهالك، بل حالتهن تصبح يوماً بعد يوم أشبه بحالة المأوى ذاته.

لكن رافي، بعدما وجدها في حالة من اليأس لأنها اعتقدت أنه يجب عليها أن تفارق عائلة القطط التي كوَّنتها خلسة بمرور الزمن، طمأنها أنه لا داعي للقلق من ذلك، وأن بوسعها البقاء و«إدارة المنزل» من أجله، هذا ما خطر في ذهنه أن يقوله لها في

لحظة إلهام، وكان جلياً أن الآنسة ويلكنسون لم تكن قادرة على إدارة أي شيء، لا المنزل ولا حتى حياتها هي، فهي لم تعترف لأي شخص بأن بصرها كان يتدهور شيئاً فشيئاً مع مرور الأعوام، وأن النظارات الطبية التي تضعها باتت عديمة النفع، وأنها على مدى سنوات كانت تتظاهر بأنها تقرأ قصائد كريستينا روزيتي من الكتاب، بينما هي في الحقيقة ترددها من ذاكرتها على مسامع ربة عملها، التي لا تنتبه عندما يتم حذف بيت من الشعر أو نسيان إحدى الكلمات. وعندما عاد رافي، ساوره شك بأنها عمياء تماماً، وأنها فقط تتظاهر بغير كذلك، فالأسلوب الذي اتبعته في تلمُّس وتحسُّس طريقها في أنحاء الغرفة هو الذي فضحها، ولذلك لم تعد تجرؤ على الخروج من تلك الغرفة، مع أن قطعها كانت تنسل إلى الداخل والخارج بحريّة تامة، كما لو أن المنزل أصبح ملكاً لها.

كان هاري سنغ قد أُحيل على التقاعد، حيث ذهب للعيش في قريته الواقعة في تيهري، تاركاً المسؤولية لابنه بهولا، الذي كان يحضّر لها وجبات الطعام التي تطهوها زوجته في الكوخ القائم في الأسفل، كما زوَّدها بموقد بارافين صغير لتعد الشاي لنفسها في حال ودّت شرب كوب منه إن أصابها الأرق أثناء الليل.

لم يعد رافي يعتقد، بعد المدة الزمنية التي أمضاها في بومباي، أنه يستطيع العيش مجدداً بجوار أي شخص، وكان سيجد متعة بالغة في مكانٍ خالٍ لا يستوطنه سوى سرب من النمل يدبّ على الأرض أثناء النهار في بحثه المتواصل عن الطعام، وسنجاب طائر يستقر في حافة الإفريز، وعند حلول

الغسق ينطلق نحو الفضاء كي يبدأ رحلة صيده أثناء الليل، وأفعى هنا أو عقرب هناك ضلّتا طريقهما ودخلتا منزله عن طريق الخطأ. وشعر بالارتياح عندما وجد أن الآنسة ويلكنسون، في غرفتها الكائنة في الطابق العلوي والمتاخمة لغرفة والديه الخالية، ليست بحاجة هي الأخرى إلى أي شخص، لم يكن يشوب ملامحها الشاحبة شيءٌ أكثر وضوحاً، سواء للعين أم للأذن، من العرفان بالجميل، لم تتعلم اللغة الهندية مطلقاً، وليس بمقدورها تجاذب أطراف الحديث مع بهولا عندما يحضر لها طاس العصيدة صباحاً أو كوب حساء العدس ليلاً، لكنها تتمتم بكلمات الشكر باللغة الإنجليزية. كان صوت الهسهسة الذي تطلقه إحدى قططها عندما تتعارك أو تتنافس مع قطةٍ أخرى، هو وحده الذي يحفّزها على التكلّم، ووقتذاك تتمتم قائلة:

- آه بوسكينز، هل هذه أنت ثانية؟ هل هذه أنت أيتها القطة المشاكسة؟ وأين هي بيلي العجوز إذن؟ إنك لا تقاتلين بيلي المسكينة، أليس كذلك؟

ثم تأتي القطط إليها وتتمسح بساقيها إلى أن تطلق هي نفسها نوعاً من القرقرة بصوتٍ خفيض تعبيراً عن ابتهاجها.

عندما كان يدخل رافي إلى المنزل في وقت الغسق، حيث في هذه المرحلة تحديداً نمت لديه عادة البقاء في الهواء الطلق طوال اليوم، لأنه منشغل بصورةٍ خفية في فنٍّ لم يشهده أحد، وهو نفسه بالكاد اعترف به، يجد نفسه يصعد درجات السلم المؤدي إليها، والدهشة تعتريه من كونه يسعى للبقاء بصحبة

شخص ما. إنها الوحيدة التي لم يكن حضورها يجعله ينعطف إلى جهة أخرى ويلوذ بالفرار، فهي لا تريد منه شيئاً، كما أنها لم تطلب منه شيئاً، كانت تنصت إلى وقع قدميه، وترفع عينيها قليلاً إلى الأعلى دون أن ترى شيئاً، حيث كانت القطط تنهض على أقدامها أو تنزل من مجاثمها وتأتي إليه، وكلها ثقة بأنه لن يقوم بأي حركة صاخبة أو مفاجئة، بل كان ببساطة يغطس في كرسي ذي ذراعين إلى جوار الكرسي الذي تجلس عليه الآنسة ويلكنسون، حيث بمقدور القطط الاختيار بين أن تقترب من ركبتيه كي يربّتَ عليها، أو أن تلف جذعها لتعود وتتابع نومها، وكان رافي، بعد سؤاله الآنسة ويلكنسون عن صحتها خلال ذلك اليوم، يمد يده إلى ذلك الصف الصغير من الكتب الموضوعة على منصب نحيل من الخيزران يقع بينهما، ويسألها:

- أترغبين بأن أقرأ لك شيئاً يا آنسة ويلكنسون؟

تومئ برأسها دون أن تقترح شيئاً معيناً، فيقوم بانتقاء كتاب بشكلٍ عشوائي، لم يسبق لأحد سواها أن اكتشف موهبته في القراءة جهاراً بصوت خفيض مترنّم لم يكد يخترق السكون الذي يخيم على المكان، ووجد أنه ليس باستطاعته أن يكيِّف قراءته مع الوقفات الدرامية، ولا مع النغمات الشعرية الصاعدة والنازلة، وهو ما يُشعره بالإحراج، لذلك يقرأ لها من الكتب التي أحضرها من حجرة أبويه، التي كان من بينها روايات للكاتبين ترولوب والسير والتر سكوت، وهي تصغي إليه مطأطئة رأسها، إلى أن يبدأ النعاس بمغالبتها، فينخفض رأسها تلقائياً وتغفر فاها، ويصبح شهيقها وزفيرها مسموعين، وكان أحياناً يتركها

على تلك الحال، حيث يعيد الكتاب إلى مكانه ثم يغادر من دون أن يوقظها من النوم. إن وجودها في البيت يشبه وجود قطة أليفة هرمة جداً تمضي ما تبقى من سنوات عمرها في نوم خفيف، ولا تسبب له أي إزعاج، باستثناء ذلك الشعور الضمني بالقلق حيال نهايتها المحتومة.

لا أحد يستطيع تخيُّل النهاية التي سترسمها لنفسها، سواء بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، فهل استيقظت ذات صباح وبدأت تلقائياً تتلمس مكان موقد البارافين الصغير لتعد الشاي لنفسها؟ أم أنها أشعلته كي تحدث انفجاراً أو حريقاً هائلاً يخلِّصها من عالمها المظلم؟ هل يمكن لهذه الإنسانة الأثيرية وغير المؤذية أن تتعمد إشعاله ومن ثم الاصطدام به وإسقاطه، وهي التي تحرص أشد الحرص على ألا تصطدم بأي شيء، ما أدى إلى اشتعال النار في الستائر؟ هل كانت تعي كيف يتشعب اللهب الواحد إلى ألسنة لهب عديدة خلال ثوان معدودات، ثم إلى جيش من النيران الزاحفة التي تندفع في أرجاء الغرفة كما لو أنها مصنوعة من الورق لتُغرق المنزل بعد ذلك في محيطٍ من الدخان، مطلقة الشرر إلى الأعلى، ليتغلغل بين عوارض السقف الخشبية، وإلى الأسفل لينتشر على امتداد قضبان الدرابزين والسلالم؟

ربما أدرك رافي ما يحدث تقريباً في اللحظة نفسها التي أدركت فيها هي ذلك، حيث فتح باب غرفته ليجد الدخان المندفع باتجاهه، مسبوقاً بقطط الآنسة ويلكنسون التي تقفز بجنون، وقد وجد نفسه مضطراً لمكافحة الحريق على درجات السلم

التي تحولت إلى نهر من النيران.

ما من أحد يستطيع أن يشرح كيف تمكن من الوصول إلى حجرة الآنسة ويلكنسون أو كيف حملها بين يديه، عندما وجدها جاثية على ركبتيها وهي تحاول أن تزحف إلى خارج الحجرة، كانت أشبة بدمية من الورق أو مزقة قماش بين ذراعيه، ثم نزل بها عبر درجات السلم قبل ثوانٍ من تصدُّعها وانهيارها، الأمر الذي أحدث شلالاً هائلاً من النيران.

كان بهولا عند الباب الأمامي يحاول أن يكسره، أما القرويون الذين استيقظوا مبكراً وشاهدوا ذلك الحريق الضخم يندفع إلى الأعلى كموجةٍ عارمة، مرتفعاً فوق مستوى أشجار السنديان مثل شمس الألفية، فكانوا يركضون إلى الأمام عندما ظهر الاثنان، وقد اصطبغا باللون الأسود والنيران تشتعل بهما، فأمسكوا بهما ورموهما في القذارة ليطفئوا ألسنة اللهب، وأخيراً عندما وصل رجال الإطفاء كانا يجلسان على العشب، وقد غطاهما الرماد، كانت النار قد بلغت ذروتها، أما ما تبقى من المنزل الموجود في أتونها فقد تحوَّل إلى هيكلٍ مسودّ غائص حتى الركب في السخام والدخان، ويتلوَّى ويتمعَّج بفعل الحرارة. كانت الآنسة ويلكنسون تطالب بقططها، بوسكينز وبيليكينز، وتمد أصابعها المسودّة والمقشّرة، كما لو أن بوسعها أن تلتقي بها وتسحبها إليها:

- رافي، رافي، أين قططي؟ هل تراها؟ هل هي موجودة هنا؟

- لا تبالي، يا آنسة ويلكنسون، لا تقلقي، سوف تعود.

قال لها ذلك مرات عدة، لأنها إما هلكت وسط ألسنة اللهب

وإما فرّت إلى الغابة، وهذا ما لم يستطع أن يعرفه، وعندما وصلت سيارة الإسعاف، حيث ساعدهم في حملها إلى السيارة، بدأت تنوح قائلة:

- لا أستطيع الذهاب، لا يمكنني أن أذهب من دونها، لا أقدر.

لكنها فعلت، كان ينبغي عليها أن تفعل ذلك، حيث ذهبت وهي تنوح:

- بوسكينز، بيليكينز، يا عزيزتيّ!

نواحها أشبه بصفارة إنذار شبحية، وقد أقسم بعض الذين كانوا موجودين هناك فيما بعد أنهم سمعوا قططها وهي تنوح.

علم رافي أنه لا يستطيع مغادرة ذلك المكان، مع أنه ودّ أن يفعل ذلك، وعلم أنه يتعين عليه الانتظار ريثما يتمكن رجال الإطفاء من إخماد النيران، ومن ثم يدخل إلى وسط الحطام برفقة بهولا ليرى ما الذي يمكن إنقاذه. في ذلك الوقت بدا وكأن نصف سكان المدينة قد وصلوا إلى ذلك المكان، لكن الحقيقة غير ذلك؛ إذ إن المنزل كانت تفصله عن المدينة مسافةٌ تجعل من المستحيل أن تصل الأنباء إليهم بتلك السرعة، لكن الناس المقيمين في القرى المجاورة الواقعة في أعلى وأسفل منحدر التل أقبلوا يركضون ليروا ذلك الحريق الهائل، الذي لم يكن مألوفاً في هذا الوقت من السنة، وبخاصة بعد هطول الأمطار، مع أنه مألوف للغاية في فصل الصيف، حيث تكون الغابة جافة وسريعة الاشتعال لدرجة أن ومضة برق قد تضرم النار فيها، ثم إن منظر النار دائماً يسر العين ويجذب الناس لمشاهدتها، ولذلك تجمعوا حول المنزل وراحوا يصيحون، محاولين مد يد

العون وإلقاء نظرة خاطفة على الناسك الذي كان يشغله:

- انظروا.. إنه هناك، لقد رأيته!

صاح غلام كان يقود قطيعاً من القنافذ، فردَّ عليه آخر:

- ذلك الرجل ليس هو، إنه بهولا الحارس.

وصاح آخر:

- لكن انظروا ماذا وجدت، ملعقة، انظروا، إنها ملعقة!

وكان على رجال الإطفاء إبعادهم إلى مسافة آمنة يستطيعون منها مشاهدة البيت وهو يتصدع ويتداعى.

لذلك انسحب رافي إلى الغابة التي لم يعد منها إلى أن غادر الجميع، وجاء بهولا ليبحث عنه، حاملاً مصباحاً كبيراً يرسل حزماً ضوئية عريضة تخترق ظلمة الغابة، ما أدى إلى إفزاع طيور البوم والضوع[23]. بعد ذلك عبَّر عن رغبته في الاستمرار بالبقاء في ذلك المنزل، ثم دخل وسط الحطام، ووجد أن جدران إحدى الغرف وسقفها شبه سليمة، وبعد المكوث في الجوار برهة من الزمن في حالة من عدم التصديق والاستهجان، ذهب بهولا أخيراً إلى كوخه الواقع أسفل التل، وأحضر له سرير نوم مصنوعاً من الحبال المشدودة، ثم جلب له الطعام، عندما رأى أن رافي لم يعر ذلك أدنى اهتمام، كما أحضر له فانوساً يعمل بالكيروسين، حيث بدا ذلك أشبه بمحاكاة ساخرة لما حدث في ذلك المنزل المحترق، ثم أشعله، محوِّلاً رافي إلى ظلٍّ يقفز على الجدران ويخدشها.

وذات مرة ذهب لزيارة الآنسة ويلكنسون في المستشفى،

---

(23) الضوع: طائر ليلي متوسط الحجم، له جناحان طويلان وساقان قصيرتان ومنقار قصير جدا، يبني عشه عادة في الأرض.

لكنها كانت في الجناح العام، جناح صغير ونظيف، وهناك حتماً مرضى آخرون إلى جانب زوارهم أيضاً، وجد رافي أنه لا يستطيع الجلوس والتحدث وجميعهم ينظرون وينصتون إليه، فقد انتشر خبر الحريق بين الناس الذين بات يعتريهم الكثير من الفضول لمعرفة المزيد عنه، ولا بد أن رافي يعلم تفاصيل ذلك، وطوال الطريق المؤدي إلى المستشفى كان الناس يخرجون من منازلهم ويقفون عند مداخلها ليراقبوه وهو ذاهب لزيارة الآنسة ويلكنسون، لقد شعر بأنهم يتعقبونه كالطريدة، وأنهم تمكنوا أخيراً من اصطياده وإيقاعه في الفخ.

على الرغم من سكوته فإن الآنسة ويلكنسون، التي كان يصعب التعرف إليها من جراء ما لحق بها من تشوه وأذى، تدرك وجوده إلى جانبها، لذلك باعدت بين شفتيها المحترقتين لتقول له بصوتٍ خفيضٍ وأجش:

- رافي، لا حاجة لك بالبقاء، لا تمكث هنا.

لم يستطع رافي أن يتحامل على نفسه ليزورها مرة أخرى، كان أمراً مؤلماً جداً بالنسبة له، لعلمه بأنه تنبغي عليه زيارتها، وبأنه الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفعل ذلك ويتعين عليه القيام به، لكنه لم يفعل.

وقد تكبَّد مجهوداً لا يطاق كي يظهر على الملأ عندما سمع بنبأ وفاتها، فبدلاً من أن يتبع موكب جنازتها الذي تكوَّن من قسٍّ سبق له زيارة مأوى السيدات المُعْوِزات، الذي مُحيت من اسمه كلمة «البريطانيات» منذ أمد طويل جداً، بالإضافة إلى عددٍ

من السيدات قويات البنية اللاتي كنَّ لا يزلن مقيمات في ذلك المأوى، فقد تسلَّل من حول منحدر التل وانتظرهم عند أسفل المقبرة البريطانية.

تم حفر قبر في الطرف المنخفض من المقبرة، حيث توقفت الجنازة وسط أجمة من أشجار السنديان وتلالٍ صغيرة من الطحالب، في المنحدر البارز من المقبرة كانت هناك شاهدات قبور مقلوبة، حيث كان معظمها مكسوّاً بالأشنيات، التي لم تترك سوى القليل من الكلمات التي يسهل حلُّ رموزها، هي الكلمات نفسها دوماً، مثل «المحب» أو «المخلص»، وهنا وهناك يوجد تمثال بلا رأس لأحد «الملائكة»، أو صليب محطَّم بين نباتات السرخس، أما الهواء في الجزء المنخفض من المقبرة فكان دائم البرودة والرطوبة بسبب الظل المخيِّم بشكلٍ مستمر فوق ذلك المكان.

وبينما كان يقف في جهة محايدة خلف جذع شجرة منخفضة الأغصان، حيث كان أشبه بقاتل موجود في موقع الجريمة، هذا ما قاله كل من لمحه في ذلك الوضع، شاهد مراسم جرجرة الخُطا والتمتمات قبل أن يتم إنزال تابوت الآنسة ويلكنسون المصنوع من خشب الصنوبر غير المزخرف إلى جوف الأرض، كان يأمل بأن يكونوا قد حفروا لها حفرة عميقة في باطن الأرض حتى لا تأتي الذئاب إليه ليلاً وتنبشه، ولا يصل إليه المطر الغزير المنهمر، ولا يدخل إليه الصقيع خلال فصل الشتاء، كان يأمل بأن يكونوا قد لفّوها بشال يمنحها الدفء، ووضعوا وسادة تحت رأسها، فقد بدا له أن أقسى نهاية للآنسة ويلكنسون أن توضع في حفرة في باطن الأرض ويُحكم إغلاقها عليها بشكلٍ يحجب

عنها الضوء، وأن يتم عزلها عن عالم القطط والكتب والشاي واللمس، وعندما سمع صوت التراب وهم يهيلونه على النعش ويسقط عليه بهيئة كتل من الطين، اختفى من المكان.

قال الأطفال في القرى المجاورة إنه دفن القطط التي قيل إن المرأة العجوز كانت تملكها، وإنه دفن بعضها وهي حية، وزعم آخرون أن القطط فرّت صوب الغابة، وتحوّلت إلى قطط سمينة شرهة[24]، وأنه يمكنك أن تصادف عيونها الكهرمانية المتلألئة في الظلام إذا كنتَ تتنزه في وقتٍ متأخر، وقال بعضهم إنه كان بالإمكان سماع تلك القطط تنوح وهي تطوف بين بقايا المنزل خلسة خلال ساعات الليل، وزعم بعضهم الآخر أن شبح المرأة العجوز كان يسكن المنزل، كما قالوا إن الناسك يمتلك قدرة على أن يحوِّل نفسه إلى شبح أثناء الليل كي يبقى ملازماً لشبحها ولأشباح القطط، وبعد ذلك يعود مجدداً إلى هيئة ذلك الرجل غليظ الشعر، الذي يلبس مِزَقاً بالية، والذي يخرج أحياناً من المنزل خلال النهار، لكنه يختفي على الفور إذا ما التقى به أحد، تاركاً وراءه نفخة من الدخان، فقد لاحظوا أنه يمتلك تلك القدرة على الاختفاء كما لو أنه يفعل ذلك بقوة السحر.

حاولوا استدراج بهولا لكي يروي لهم بعض القصص المفزعة والمثيرة حول ما يجري بين حطام المنزل، لكن بهولا أصبح صموتاً مثل ربّ عمله، وكان يكتفي بالغمغمة تعبيراً عن رفضه، أما بالنسبة للأطفال الذين أنجبهم بعد زواجه من مانجو راني التي تنحدر من مدينة تيهري، فإنهم كذلك لم يسمعوا بمثل

(24) استخدمت الكاتبة عنوان قصيدة لشاعر مجهول، وهي حكاية مرحة مكتوبة بالهندية عن قطة سمينة شرهة، روى هذه الحكاية أديتي كوماري.

هـذه الحكايـات على الإطـلاق، وكان رافي في نظرهـم رجلاً غير مـؤذٍ يسـكن في المنـزل المحترق، حيـث كانوا يحملـون له صحناً مملوءاً بالطعام أو صفيحة من الكيروسـين لفانوسه، فيشكرهم من دون أن يرفع بصره إليهم.

وفـي بعـض الأحيان، يلتقـي براعي ماعز أو برجال يفتشـون عـن حطـب في الغابة أو بقـرويٍّ يحمل صرّة على رأسـه ومفتاح تشـغيل بيـده، وذلك علـى الطريق المؤدي إلى أسـفل التل، إنما ليـس علـى الطريق المتجه صعـوداً نحو المدينة. كانت شـجيرات التوت الشوكي البرية تطبق على جانبي الطريق، وهناك جلمودٌ صخري ضخم يبدو وكأنه سيسـقط ويسـد المنحدر تماماً خلال الريح الموسـمية المقبلة؛ من هنـاك كان الطريق يواصل التفافه، ويسـتمر فـي الانحـدار إلى الأسـفل عبـر شـجيرات اللنتانة[25] وأعشـاب الفتيـة[26] ذات الأزهـار الزرقاء في الجزء السـفلي من المنحـدر حتـى يصـل إلـى أكـواخ حجريـة مبعثـرة تُجفـف على أسـطحها حـزم الـذرة واليقطـين. وثمـة جـدول يتدفـق مـاؤه، وتستقر فوقه طاحونة مائية، حيث بالإمكان سماع صوت أحجار الرحـى الضخمة وهـي تطحن محصولي الـذرة والقمح اللذين يُحضران إليها، وبين الحين والآخر يشاهدون رافي على الطريق، لكـن ذلـك يحصل دائماً فـي الجزء الكائن فوق مسـتوى جلمود الصخـر، وكانـوا يتمتمون بتحية لـه بينما هم يَغُـذُّون خُطاهم وراء ماعزهـم أو يوازنـون الصـرر الثقيلـة التـي يحملونها على

(25) اللنتانة: جنبة استوائية ذات سيقان شوكية وأزهار صغيرة صفراء أو حمراء.
(26) الفتيَّة: عشبة أمريكية من المركبات.

رؤوسهم، غير أنه لم يكن يرد عليهم إلا بهمهمة.

بيد أنه في اللحظة التي يقف فيها عند جلمود الصخر، يختفي من الطريق، ربما كان جلمود الصخر ساحراً ضخم البدن ينتظر ظهوره ليُلقي بظلاله فوقه على شكل عباءة، ثم يختطفه سرّاً.

شكّل جلمود الصخر سداً بالنسبة للآخرين، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لرافي؛ فقد كان ينسل من حوله، ويمرر جسمه عبر الأخدود الموجود بين الجلمود ومنحدر التل، وهكذا حتى يصل إلى الحفرة الواقعة في الأسفل، حيث لم يكن هناك سوى مجرى خفيف جداً من الماء المتدفق من حافة الجرف الواقع في الأعلى، هذا إذا لم يحُلْ جفاف المناخ دون ذلك، وبعدها ليس عليه إلا أن يباعد بين أغصان شجرة الكستناء التي تتدلى فوق الفتحة المؤدية إلى الفرجة الخالية من الأشجار في الغابة، كما لو أنها ستارة، ثم يدعها تتقارب ثانية كي تخفيه عن الأنظار، أما انسيابية الطريق فكانت تلتقي بالبركة الخفية الكائنة في فرجة الغابة، والتي لا أحدَ سواه يعلم بوجودها.

جميع علامات العالم الخارجي تختفي في هذا المكان، بدءاً من الهالات البعيدة التي كانت تتشابك مع الحقول المُدرَّجة في الوادي الواقع في الأسفل، مروراً بصوت نباح الكلاب في القرية الكائنة على الضفة الأخرى من الجدول، وصولاً إلى صوت طحن أحجار الرحى في الطاحونة المائية، لم يكن هناك سوى طائر يغرد بعذوبة طاغية، وعندما انتبه لوجود رافي، حلّق مبتعداً

عن المكان.

بعد ذلك كان رافي يطوف خلسة مثل حيوان يعود إلى مأواه؛ في ذلك الوقت ستكون بعض السراخس قد فكّت عُقدها محكمة الإغلاق من الفراء البني، وحوّلت نفسها إلى مراوح خضراء متماوجة؛ أما مجموعة الفطر الشاحب التي شوهدت بالأمس فإنها ستكون في هذا الوقت مبعثرة ومرمية على شكل قصاصات طويلة ورفيعة من الشامواه المائل للبنفسجي والمصنوع من جلد الخشف[27]. كان بالإمكان دراسة أوراق شجرة الكستناء بوصفها علامات على تبدل الألوان، لذلك كان رافي يراقب وينتظر حتى تكتسب تلك الأوراق الدرجة الدقيقة للون العسل الداكن، وهو اللون الذي يريد الحصول عليه قبل أن يجمع الأوراق ويملأ بها الفرجة التي يقوم بتجهيزها حول الحجر المخروطي الغريب في مركز الحفرة، أما الغصن المكسور، الذي عثر عليه في طريقه وسحبه معه إلى ذلك المكان، فيمكن إضافته إلى ذلك التصميم، وذلك بعد تجفيفه وتحويل لونه بشكلٍ يوحي بأنه هيكل عظمي، كما كان بالإمكان استخدام ثمار العلّيق، التي جمعها طوال الطريق، لتزيين الأخاديد الموجودة في الصخرة، وذلك لجعلها تبدو مرصّعة بجدائل من الأحجار الكريمة المتلألئة، أو كما لو أنها انبجست بعروق معدن خام نفيس.

فكّر في تكبير التصميم عبر الإتيان بكمية كافية من الحصى، أو ربما عبر إحضار كمية من الرمل من قاع الجدول الواقع في الأسفل، ليرى كيف يمكن ترتيبها للإيحاء بوجود بركة ماء تكون

---

(27) الخشف: صغير الظبي.

الصخرة فيها عبارة عن جزيرة.

وشرع رافي يعمل كالعنكبوت، وراح يغزل شبكة رؤيته على الفرجة الخفية في الغابة، وكان يتعين عليه القيام بهذا العمل يومياً قبل حلول الليل.

كان الظلام قد حلَّ عندما توقَّف الزائرون عند كشك بيع الشاي الواقع على سلسلة التلال؛ كانوا مرهقين وجائعين، وليسوا في مزاج رائق، أشعل بالرام فانوس البيتروماكس، فأصدر صوتاً إيذاناً باشتغاله، وتوهَّج لهبه الأزرق وهسهس بقوةٍ جعلتهم يجفلون من شدتها.

بدت علامات الانزعاج والضيق على وجه الفتاة، التي ظللت عينيها من الضوء،

قهقه تشاند وهزّ كتفيه باستخفاف، كما لو أنه لم يكن بالإمكان تحاشي ذلك، ثم قام بصبّ البيرة التي أحضرها بالرام لهم:

- هل أنتم مستعدون لتناول الطعام؟

سألهم تشاند، لأنه هو نفسه كان مستعداً لذلك.

- أتعتقد أنه يوجد لديهم ما يؤكل؟

- لنسألهم.

استدعوا بالرام الذي كان يتظاهر بمسح طاولة الحساب، وسألوه:

- هل تقدمون الطعام؟

بالطبع، إنه يقدم الطعام، ماذا حسبه هؤلاء المتمدنون القادمون من السهول، الذين يرتدون سترات سميكة وأحذية

جديدة؟ ماذا حسبوه، وماذا حسبوا مؤسسته ومدينته؟ في شعور بالامتعاض كشف لهم أنه بإمكانه أن يقدم لهم السمبوسة[28] والبهاجيا[29] وأومليت البيضتين وأومليت البيضات الثلاث والأربع، وذلك بالكمية التي يريدون وبأسرع مما يتوقعون.

- وهل هناك روتي[30]؟

- بالطبع هناك روتي، وهو أفضل روتي يمكن أن تتناولوه في حياتكم.

قال لهم، وقد بدا فخوراً بنفسه وفظّاً في آن معاً.

- نريد منه كمية كبيرة، كما نريد المزيد من البيرة.

جلسوا إلى منضدة سطحها من الصفيح، وتناولوا أطباق الطعام إلى جانب أقداح البيرة بشراهة وصمت، كانت تلك هي وجبة الطعام الأولى التي يأكلونها خلال ذلك اليوم، وهم يسافرون من المدينة المشبعة بالغبار المنبعث من السهل الواسع، حيث تعطلت سيارة الجيب التي كانوا يستقلونها مرات عدة في أماكن غير مناسبة على الإطلاق، لكونها بعيدة عن أي منطقة مأهولة بالبشر، وهو ما أرغم كلا الرجلين على السير مسافات طويلة، إلى جانب التذمر وكَيْلِ الشتائم، بحثاً عن ورش لتصليح المركبات وعن قطع غيار ليتمكنا من تشغيل السيارة مجدداً

---

(28) السمبوسة: نوع من المعجنات المقلية أو المخبوزة، المحشوة بالبطاطا والبصل والبازلاء والعدس، وهذه كلها متبلة بالبهارات، ومحشوة أيضا بلحم الدجاج أو لحم البقر أو لحم الحمل المفروم، ترافقها دوما صلصة من التوابل والأعشاب، وهي شائعة في شبه القارة الهندية وآسيا الوسطى والشرق الأوسط وأفريقيا.

(29) البهاجيا: فطيرة مقلية محشوة بالخضار.

(30) الروتي: خبز هندي من الطحين الأسمر.

ومواصلة الرحلة. كانا قد قطعا المرحلة الأخيرة من الطريق الذي يصعد إلى أعلى التل بشكلٍ التفافي وشديد الانحدار، عندما خيَّم الظلام على المكان.

هل هي فعلاً فكرة سديدة أن يأتوا إلى هنا ليصوروا فيلماً عن تردي الوضع البيئي في جبال الهملايا؟ لقد بدا الأمر كذلك، لكنهم الآن وجدوا أنفسهم يشعرون بالهزيمة بكل معنى الكلمة وهم لا يزالون في بداية مشروعهم، حيث بدأ يراودهم الشك بإمكانية إنجاز هذا المشروع.

- انتظروا حتى الغد، فنحن لم نرَ شيئاً بعد، لقد وصلتنا معلومات عن مقالع الحجارة والانهيارات الأرضية وحفر الأنفاق وقطع الأشجار لاتخاذها خشباً، لا بد أن هناك الكثير من هذه الأمور.

- وأين سنجد هذه الأمور كلها؟ أنجدها في منتجع لقضاء العطلات؟ لا بد لنا من دليل.

قال ذلك تشاند، ثم استدعى صاحب كشك الشاي أو مديره أو كائناً من يكون، لكن كيف يشرحون له ماذا يريدون؟ تآكل التربة، رعي الماشية، تدمير الغابات؛ هل سبق له أن سمع بهذه المصطلحات أو اهتم بمثل هذه القضايا في عالمه المكوَّن من دكان الشاي وما يحتويه من بيرة وأومليت؟

جاء الرجل على مضض، وقد رمى قطعة القماش التي يمسح بها الأطباق على كتفه:

- اسمي بالرام.

قال لهم، وقد شعر بأنه قد تكون له تعاملات أخرى معهم

تتعدى مجرد تقديم وجبة طعام لهم، فأمثال هؤلاء الأشخاص الذي ينتمون إلى السهول يصبحون بحاجة إلى قدر كبير من المساعدة عندما يأتون إلى هذا المكان المرتفع، وبخاصة إذا جاؤوا في غير موسم السياحة، إذ إنهم خلال هذا الموسم يتحركون عادة على هيئة مجموعات؛ لذلك يمكن أن يُتركوا وحدهم كي يتنزهوا في المتنزَّه ويمتِّعوا أنظارهم بمشاهدة النسوة المتبهرجات، ويفتشوا عن الحانات والفنادق والأشياء التي اعتادوا عليها في مدنهم، لكنهم عندما يقصدون هذا المكان خارج الموسم فإنهم يقصدونه لأسباب أخرى.

لقد شاهد بالرام سيارة الجيب التي كانوا يقودونها، والتي تحمل لوحة ترخيص خاصة بمدينة دلهي، حيث كانوا مزودين بالكثير من الأمتعة التي تبدو غالية الثمن، والتي أدخلوها معهم ولم يكونوا يريدون تركها تغيب عن أنظارهم، وكان معهم فتاة ترتدي بنطلوناً، وتضع على عينيها نظارات داكنة وشعرها قصير، لم يكن بالرام متأكداً تماماً من أنه استساغ مظهر تلك الفتاة؛ إذ لو أن أي واحدة من بناته ظهرت بتلك الصورة، وراحت تتجول هنا وهناك، فإنها ستتلقى صفعة قوية منه. الناس يُقْبِلون من السهول، معتقدين بأنهم يستطيعون القيام بتلك التصرفات دون عواقب، وكان يجدر به أن يثبت لهم أنهم لا يستطيعون أن يسخروا منه، فقد رأى الكثير من تلك الأشياء في هذا المكان، كما أنه يعرف الكثير عنها، ولديه أيضا شاربان رائعان، صحيح أنهما صغيران، لكنهما مشذبان بعناية دوماً، وقد وضع يده عليهما تعبيراً عن ثقته بنفسه.

كان الرجلان يتمتعان باللياقة الكافية كي ينهضا من

كرسييهما قليلاً ليصافحاه، وعندما علم أنهم كانوا يحتاجون إليه فعلاً، شعر بالارتياح وقال:

- أي خدمة يمكنني أن أقدمها لكم؟

- لقد أتينا إلى هنا لبضعة أيام من أجل التقاط..

قال الرجل الأكبر سنّاً، الذي كان يخلّل أسنانه، وهو لا يزال يمضغ عود الخلال، وعندما رأى شارب بالرام يهتز قليلاً تعبيراً عن فضوله:

- التقاط ماذا؟ الخنزير البري أم الغزال أم النمر أم طائر الحجل؟

تابع قائلاً:

- التقاط الصور كي نصنع فيلماً.

- آه، فيلـ.. ـم.

قال بالرام، الذي لم يبدِ إعجاباً بذلك بالقدر الذي كانا يتوقعان منه، فقد سبق لميسوري أن كانت مسرحاً للعديد من الأفلام، حيث يأتي الممثلون والممثلات من بومباي بأجسامهم الممتلئة وأسمائهم اللامعة، كي يرقصوا في المتنزَّه ويلتقطوا الصور أمام المناظر الجبلية، وكانت الحشود الغفيرة تتجمع من حولهم مشدوهة لتطلق التعليقات الفاحشة والضحكات الصاخبة، وتستمتع بمسرحيات التاماشا، وكان ذلك يؤدي إلى تعطل حركة المرور واستدعاء رجال الشرطة.

- إذن أنتم من بومباي، أليس كذلك؟

- كلا، كلا.

صحّح له تشاند، الرجل الأصغر سنّاً والأكثر رشاقة.

- إننا نقوم بعمل أفلام وثائقية لمصلحة التلفزيون.

- التلفزيون، هه؟

كان بالرام ينوي شراء جهاز تلفزيون من أجل محله، ولو كان التيار الكهربائي أكثر استقراراً لفعل ذلك، فما فائدة جهاز تلفزيون من دون تيار كهربائي؟ هذا ما قاله لابنه الذي أثار ضجة من أجل الحصول عليه.

- والفيلم الوثائقي الذي جئنا لنصنعه هو عن هذه المرتفعات.

أطلق بالرام ضحكة نصف مكبوتة:

الكثير من المخرجين يأتون إلى هنا من أجل ذلك، إنها المناظر الطبيعية، جميعهم يحبون المناظر الطبيعية.

- لا، نحن غير مهتمين بهذا الأمر، لقد سمعنا أن هذه المناظر الطبيعية يتم إفسادها وتدميرها، فشركات الخشب تقطع الأشجار، ومقالع الأحجار الكلسية ومناجم الفوسفات تجعل الهضاب غير مستقرة، كما أن التربة تعاني التآكل، وهناك الكثير من الانهيارات الأرضية التي تحدث، هذا هو ما جئنا لنصنع عنه فيلماً.

لم يظن بالرام أن هناك شيئاً أكثر بلادة وأقل فائدة من ذلك، ثم لمس شاربه بإصبعه في إشارةٍ واضحة منه إلى تشكيكه بهذا الأمر، إن لم يكن سخريته منه.

- ولهذا السبب نحن نحتاج للذهاب إلى المواقع التي تجري فيها هذه الأمور.

عندما رأى بالرام أنهم كانوا يحتاجون إلى المساعدة، قرر أن يكون شهماً، ولوّح بيده ليبيِّن لهم أن هذا الأمر تافه بالنسبة له:

- يمكنكم أن تذهبوا.

قال ذلك كما لو أنهم كانوا ينتظرون تصريحاً منه:

- يمكنكم أن تروا ذلك بأم أعينكم.

غير أن هذا الأمر بدا لهما شديد الغموض وغير مؤكد على الإطلاق، لقد أدركا أن فكرته عن الأفلام مختلفة، فهذا الفيلم لم يكن يُعنى بالمناظر الطبيعية، كما لم يكن له هدف تجاري.

- أيمكنك أن تساعدنا في الحصول على دليل بوسعه أن يأخذنا إلى مواقع من هذا النوع؟

(همهم)، كانت هذه المسألة تحتاج إلى التروي والتفكير، وينبغي ألا تُرفض بعجالة، فقد كان بالرام من طراز الرجال الذين يتصرفون بحكمة ولا يتسرعون في اتخاذ قراراتهم، وهنا برزت احتمالات عدة؛ أومأ برأسه قائلاً:

- سوف أرى.

- لكن هل سيتم ذلك على الفور؟

قال تشاند، الذي كان واضحاً أنه رجلٌ عَجول، لكن ما من شيء يمكن أن يحدث بالسرعة المطلوبة، وعندما لم يحدث شيء، كان يهزهز ساقيه إلى الأعلى والأسفل وإلى الداخل والخارج:

- لدينا ثلاثة أيام أو أربعة لا غير.

- أخبرني بمكان إقامتكم، سأحضر لكم دليلاً.

- يلزمنا أن نعثر على فندق.

شعَّ الآن ضوءٌ من وجه بالرام بهيئة لمعان هادئ، كان هذا أقرب شيء إلى مجال اهتمامه، وجعلهم ينتظرون في حالةٍ من القلق، بينما راح يقلِّب الاقتراحات في ذهنه ثم يرفضها، وفي

نهاية المطاف وقع اختياره على أحدها، وأكّد لهما أنه يستطيع وبكل ثقة أن ينصحهما بفندق شهر العسل لأن ابن عمه يعمل مديراً هناك، حيث يمكنهم أن ينعموا بكل وسائل الراحة والأمان، وجعلهم يكتبون العنوان والاتجاهات المؤدية إليه على قصاصة ورق.

- وغداً سأحضر لكم دليلاً إلى هناك.

لقد رأى أن الآفاق مفتوحة أمامه، وفكّر في جميع أقاربه الذين يمكن أن يقدم لهم معروفاً، والذين سيصبحون مدينين له بالفضل بعد ذلك، ثم راح يبتسم، فهذه النماذج من أبناء المدينة يمكنه أن يقولبها بين يديه كما يقولب المعجون.

عندما حملوا حقائبهم ودخلوا إلى سيارة الجيب، نظّف طاولتهم بعجالة، مستخدماً قطعة القماش التي ينظف بها الأطباق، والتي أصبحت شديدة الاسوداد، ثم أخذ الأطباق إلى ما وراء الكوخ، حيث كانت هناك حنفية ماء تتدفق على الحجارة. أصبح بإمكانه أن يغلق محله الآن وهو يشعر بالرضا عما أنجزه خلال ذلك اليوم.

اعترضت الفتاة المدعوة شاليني لدى رؤيتها فندق شهر العسل، ولم تكن تريد أن تترجل من سيارة الجيب، لكنهما أشارا إلى أن الوقت متأخر جداً، ويصعب الحصول على مكان للإقامة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ودخلت إلى غرفتها وهي متجهمة الوجه، ما ولّد شعوراً بالإثم لدى تشاند، إنما ليس لدى بهاتيا، فقد علت وجه هذا الأخير ابتسامة غريبة وخبيثة، وكان بوسع تشاند تقريباً أن يدرك ما وراءها من أفكار بذيئة، وشرع

يخلع حذاءه وثيابه على مضض، بينما تمدد بهاتيا على سريره الكائن تحت المصباح المتدلي من السقف، وكان الذباب قد التصق به من جميع الجوانب.

في الناحية الأخرى من الجدار الفاصل، الذي بالكاد يعدو كونه ستارة سميكة، كان بوسعهما أن يسمعا الفتاة، وهي تخلع ملابسها قطعة قطعة، كان بوسع تشاند أن يرى بهاتيا وهو يتخيل ماذا كانت قطع الملابس تلك، أطلق شخيراً ينم عن اشمئزازه، لكنه لا يستطيع قول شيء؛ إذ إن الستارة، التي لم توفر خصوصية للحركة، أعجز من أن توفِّر خصوصية للكلام، وارتمى على سريره بشكلٍ جعل أسلاكه تصدر صوت صرير، ثم شبك ذراعيه فوق صدره: «بالرام اللعين!» تمتم قبل أن يغمض عينيه على منغِّصات تلك الليلة، التي يتعين عليه تحمُّلها بطريقة أو بأخرى.

في الصباح جاء بالرام إلى فندق شهر العسل، بينما كان أفراد طاقم الفيلم يحتسون الشاي، ويحاولون أن يأكلوا البيض المقلي بالدهن مع خبز أكثر دسامة، حيث ليس بوسع أي واحد منهم التحدث مع الآخر بسبب الغضب الذي استبدَّ بهم بعد ليلة عانوا فيها من لسعات البراغيث. كان بالرام قد أحضر معه غلاماً، من يكون هذا الغلام؟ إنه خليط من الصفات الحميدة! وقد أكَّد لهم بالرام أنه يمتلك النزاهة والاجتهاد والخبرة..

- أي نوع من الخبرة؟

قاطعه بهاتيا، تاركاً ذلك الفطور التعيس ومفضِّلاً تدخين سيجارة بدلاً منه:

- خبرة في أي مجال؟ ما عمله؟

تراجع بالرام خطوة إلى الوراء، ناشراً ذراعيه لدى سماعه هذا السؤال الذي بدا غير ضروري وهجومياً بصورة جلية:

- خبرة في جميع المجالات.

أجاب بقناعة تامة، مردفاً:

- فما الشيء المطلوب منه أكثر من ذلك؟

- اذكر لنا أحد هذه المجالات.

تلقَّفت الفتاة ارتياب تشاند مع أنه لم يكن مطلوباً منها أن تتفوَّه بذلك، فهي لا تعدو كونها مساعِدة، وليست المنتجة أو المصوِّرة، ومع ذلك، لم تستطع منع نفسها من إبداء رأيها، وقد نتج ذلك عن الحماسة التي بثَّتها ضمن فريق تشاند الذي كانت مهمته الأولى تتمثل في الخروج إلى العالم الواسع.

وقف الغلام منتظراً بقامته المتهدِّلة ونظراته المُسبَلة، وهو يتأمل أظافر يده، كان بعضها مغطى ببقع قرمزية، تاركاً المجال لبالرام كي يتكلم نيابة عنه، بالطبع من الصعب أن نتوقع ذلك من غلام كانت أمه قد أطعمته بيديها في صباح ذلك اليوم وزيَّنت شعره ومشَّطته، كما اختارت له قميصه النظيف، والآن كانت مسؤولية بالرام، شقيق والدته، أن يقوم بما تبقى ويؤمِّن له العمل، إن كان هذا ما يرغبون به. لم يكشف له أحد عن نوع العمل المطلوب، لكنه سمع الكلمة التي يسيل لها اللعاب (فيلم) خلال الحوار الذي دار بين خاله ووالدته الليلة الماضية.

فيلم! أصبح الآن خبيراً بالأفلام، فقد كان يشتري مرة في الأسبوع تذكرة دخول إلى سينما بيكتشر بالاس ليشاهد أي فيلم

سينمائي تعرضه، كانت ثقته بأنه يستطيع الدخول إلى عالم السينما قد نمت وتطورت خلال استعداده صبيحة ذلك اليوم، لكن هذه الثقة تضاءلت إلى حدٍّ ما بحضور هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يبدون أناساً عاديين وهم يقيمون في هذا الفندق الوضيع، وبالإضافة إلى ذلك، ثمة وضعٌ مُحرج بالنسبة له في هذا المكان؛ ففي هذا الفندق كان قد عمل في غسل الأطباق ذات مرة، حيث صرفوه من الخدمة فيه لأنه لم ينجز عمله بصورةٍ مقنعة، فماذا كانوا يتوقعون غير ذلك؟

- قل له، قل له فقط ما الذي تريده منه.

كان بالرام يتكلم بصوت مرتفع، كما لو أنه يريد التشويش على أي اعتراضات تصدر منهم، حتى تلك التي لم يتم التفوه بها.

- وهو سيقوم به.

ونظراً لعدم وجود خيار آخر أمامهم، اصطحبوا الغلام معهم في سيارة الجيب، وتوجهوا إلى البقعة التي اختارها لهم بالرام بوصفها موقع الدخول إلى أحد مناجم الفوسفات غير القانونية. كان اسم الغلام ناكهو، بدا غير مصدق أن هذا الأمر يحدث له، وكان لا يزال من المبكر الحكم حول ما إذا سيكون ذلك جيداً أم سيئاً، فهل يمكن أن تؤدي الأمور إلى أن يرقص على الشاشة مع حسناء من بومباي مرصعة بالجواهر؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه..

وعلى حين غرة وصل الجواب؛ فقد بلغوا النقطة المهمة التي اقترحها بالرام، وكانت تحت حافة هضبةٍ ناتئة تغص بشجيرات

السنديان، تقع عند حافة جرف شديد الانحدار ليس باستطاعتهم أن يروا قراره، وتبيَّن على الفور أن الغلام لم يسبق له أن وصل إلى هذا المكان من قبل، ليس هذا فحسب، بل كان غير مصدِّق بأنهم كانوا يعتقدون أنه فعل ذلك، وأنهم كانوا يتوقعون منه أن يترجل من السيارة، ويدلّي نفسه على الدرب الحجري، الذي لم تكن لتحسن التعامل معه إلا معزاة، ثم يزحف نحو الأسفل وسط انهيارات من كسارة الحجارة، معرِّضاً نفسه لشتى أنواع المخاطر وهو يرتدي سرواله الجينز شبه الجديد وحذاءه الرسمي.

وقف متردداً ومترنِّحاً، عندما صاح بهاتيا قائلاً:

- هذا هو المكان الذي قال بالرام إننا سنجد فيه المدخل إلى المنجم، حسناً، خذنا إليه حالاً.

تبادل تشاند وشاليني النظر إلى بعضهما، وقرّرا السير في المقدِّمة، وطلبا من الآخرين أن يتبعوهما بينما كانوا يتعثرون ويزحفون شاقين طريقهم نحو الأسفل متجهين إلى المكان الموعود، الذي يشهد التدهور البيئي الذي سيقومون بتصويره.

لقد تبدى لهم مشهد تردي الوضع البيئي حتى من دون مساعدة الغلام ناكهو.

- انظروا، انظروا.

هتفت شاليني عندما وصلوا إلى كومة من الأخشاب المرمية على الأرض وبقايا جذوع الأشجار المتفحِّمة.

- قاطعو الأخشاب كانوا هنا!

- لماذا يتعين علينا، إذن، أن نمضي أبعد من هذا؟

قال بهاتيا لاهثاً بعدما توقف عن ملاحقتهم؛ فهذا المجهود

الشاق لم يكن يناسبه:

- انسوا أمر منجم الفوسفات، ودعونا نصور الفيلم هنا وننتهي منه حالاً.

تبادل تشاند وشاليني نظرات الاشمئزاز، كان المجهود الشاق بالنسبة لهما جزءاً جوهرياً من عملهما، ولو أنهما كانا يودان القيام بشيء سهل لأنجزا الفيلم في أستوديو وأقاما الحوارات وعملا المونتاج معاً، لكنهما صمما على تصوير مواقع حقيقية، وكان لا بد من العثور على هذه المواقع وتعقب المجرمين والإمساك بهم بالجرم المشهود إن أمكن. تركا وراءهما بهاتيا وناكهو واستمرا في هبوط المنحدر الزلق المرصوف بالحصى، حيث كانا يتمسَّكان بأي شجرة تبدو لهما راسخة الجذور، ويتحاشيان نباتات الصبار الأمريكي التي كانت تتفرع منها جذوع مزودة بأشواك خطيرة، ثم تابعا تقدمهما أو بالأحرى هبوطهما المنحدر. كان الغبار يتصاعد وهما يمشيان حذرين، وكلاهما يلهث.

- إلى أين نحن متجهون؟

سألت شاليني أخيراً، وقد توقفت لتمسح وجهها من العرق، حيث بدا واضحاً أن نظّارتيها السوداوين تشكلان عائقاً أمامهما:

- ما المسافة التي قال بالرام إنه يجب علينا أن نقطعها لنصل إلى منجم الفوسفات؟

هزّ تشاند رأسه في إشارة إلى أنه لا يعلم، لكنه توقف هو الآخر عن التقدم لدى سماعه صوتها وقد تخللته مسحةٌ من الشك، فقد خطر في باله أنهما كلما هبطا التل أكثر ازدادت

مسافة الصعود التي سيتحتم عليهما اجتيازها في طريق العودة، وحتى إذا تمكنا من تدبّر الأمر، فإنه من غير المؤكد على الإطلاق أن حاملي المعدات سيتمكنون من ذلك.

- بالرام اللعين!

قال تشاند، وتابع:

- أيُّ دليلٍ هذا الذي جلبه إلينا؟

- أين هو الآن؟ وأين بهاتيا؟

- مع ناكهو.

- أيجب علينا أن ننتظرهما؟

وقفا وراحا ينصتان، ومن مكان يقع إلى الأسفل منهما حجبته الشجيرات، كان بوسعهما أن يسمعا تدفق ماء جدول ونباح كلب وشخصاً ما ينادي، وفي الأعلى حيث الطريق الذي غادراه، كانت هناك عربة تسير ببطء.

قالت شالايني:

- كان يلزمنا أن نسأل أشخاصاً آخرين كي نتأكد من الاتجاهات.

ألقى عليها تشاند نظرة ملؤها المرارة؛ لم يكن بحاجة إلى نصيحة من مساعِدته، فقد كان هو المسؤول عن المشروع، وقد آن الأوان كي يتولى أمره:

- سأنزل إلى النهر، أخبروني بأن هناك نهراً، أما أنتِ فاسلكي اتجاهاً آخر، وبعد ذلك نعود معاً، سنلتقي عند سيارة الجيب، أخبري بهاتيا بأن ينتظرنا، أخبريه بأن يتحاشى خطر جلب المعدات معه ريثما نعثر على الموقع.

بدت شاليني وكأنها تريد الاحتجاج على ذلك، إذ ليست متيقنة مما إذا كانت تود أن تُترك بمفردها، لكنها تذكرت أن تشاند هو رئيسها، إنه هو الذي منحها هذه الفرصة المناسبة كي تُظهر حماستها، لذلك أومأت برأسها موافقة، وراحت تمشي على امتداد طريق ضيق يمر في جانب التل، كان روث الماعز الملقى على الأحجار يدل على أن هذا الطريق سلكه أناس آخرون، لا بد أنه يؤدي إلى مكان ما.

وبعد برهة أدركت مبلغ الارتياح الذي أحسّت به عندما أصبحت وحدها، لكونها لم تعد تشعر بأن نظرات الرجلين مسلَّطةٌ عليها، حيث كانت نظراتهما تشي بالانتقاد وإصدار الأحكام. توقفت شاليني لتقطف ثمار العليق من شجيرة توت عليق برية، وراحت تأكلها بتلذذ مع أنها كانت حامضة الطعم وجافة وخشنة، وعندما سحقتها بين أسنانها، اكتشفت أنها أحيت لديها ذكرى طفولتها، حيث أمضت عطلة في ركوب الأحصنة الصغيرة وتناول الآيس كريم والاستماع إلى فرقة موسيقية تعزف ألحانها في شرفة المراقبة الموجودة في المتنزَّه. لم تكن أسرتها من النوع الذي يستطيع أن يغطي عادة تكاليف قضاء عطلةٍ ما، ومع أن تلك العطلة كانت نادرة وتستحق أن تُخلَّد في ذاكرتها، فإنها حتى تلك اللحظة غائصة في سراديب لاوعيها، لدرجة أنها نسيَتْها تماماً، أما الآن فقد استنشقت الهواء المشبع برائحة نُسغ الصنوبر بسعادةٍ ناجمة عن تجدد تلك الذكرى.

كادت تنسى أنه من المفترض بها أن تفتش عن مدخل يفضي إلى منجم الفوسفات، أو تبحث عن أدلةٍ على قطع الأشجار غير

القانوني، وركّزت انتباهها في شق طريقها على طول الدرب، تارة تقبض على الحشائش وطوراً تراقب الطيور الصفراء الصغيرة التي تحلق على ارتفاع منخفض فوق شجيرات اللنتانة التي تتشابك حول ساقيها، وعندما مسَّتْ يدها مساً خفيفاً نبتة قراص[31] بدت وكأنها قد أضرمت فيها النار، كان عليها أن تتوقف لتطبق بشفاهها على مكان اللسعة، حيث وقفتْ تحت حافة جلمود صخر برز من جانب التل وسد عليها الطريق.

بدا ذلك الجلمود حاجزاً طبيعياً، وعلى الأرجح كان من الصعب أن يستمر الدرب بعده، لكن فضولها جعلها تتساءل: «هل هو فعلاً كذلك؟»، لم يكن هذا الشك ينم عن الفضول وحسب، بل كان ينم عن الخوف أيضاً، ليس الخوف بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن مما لا شك فيه أنها أحست بقشعريرة أو بشيء ينبئ بالخطر.

فكّرتْ بالالتفاف حول تلك الصخرة الهائلة فقط لترى ما إذا كان الدرب سيستمر، ومن ثم تعود، وبينما كانت تتمسك بها، وهي تسير حولها بحذر، خطرت في بالها عدة احتمالات على هيئة أطياف عابرة؛ كاحتمال وجود أفعى في جحرها أو رجل يضمر نوايا سيئة، أو احتمال أن تضيع بكل بساطة في ذلك المكان الغريب، فهي في النهاية فتاة مدينة.

الشيء الذي عثرت عليه كان نوعاً من الفُرجة الخالية من الشجر، حيث بدت شديدة الانعزال، لدرجة أنها ربما لم تُكتشف بعد أو لم تطأها قدم إنسان، كانت عبارة عن مكان بري مخفيّ

---

(31) القراص: نبات ذو وبر شائك – م.

جزئياً عن الأنظار بوساطة شجرة كستناء ضخمة، لعله كان مأوى حيوان بري، أو ربما حتى صومعة سرّية.

لكنها وبينما هي تحدق من خلال الأغصان المتدلية للشجرة، رأت شيئاً مختلفاً تماماً؛ مكاناً منظماً لا بد أن يداً بشرية قامت بتصميمه، وليس الطبيعة، ليس بوسع الطبيعة أن تخلق تلك الدوائر داخل الدوائر، والتي تكونت من أحجار متماثلة كلياً مرتَّبة ضمن حلقات تحمل الألوان الخاصة بطائر الحمام، وهي الرمادي والأزرق والبنفسجي الزاهي، كما لم يكن بمقدور الطبيعة رفع الأغصان الملقاة على الأرض وتحويلها إلى أشكال منحوتة، أو سد الشقوق الموجودة في صخور الجرانيت والأردواز بما بدا وكأنه أكاليل من الخرز وتويجات الأزهار، كان أشبه بكوخ ريفي، لكن أهو لطائر أم لحيوان أم لإنسان؟ بالكاد يمكن للعقل أن يقبل بأي من تلك الاحتمالات.

بدا مهجوراً كلياً، كان هادئاً وساكناً كعملٍ فني، أو كعمل من صنع الطبيعة، أو الاثنين معاً في تناغم غريب، كان المكان يضج بالمعنى، لكن ما ذلك المعنى؟ هل هو مكان للعبادة؟ لكن لعبادة ماذا؟ ليس هناك أي صنم، إلا إذا كانت تلك الصخرة أو ذلك النسق من الحصى أو ذلك الغصن المجرد من أوراقه بمثابة صنم! في الواقع، بدا المكان متناقضاً كلياً مع أي شكلٍ أو مفهوم.

من المؤكد أن الأمر ينطوي على سرٍّ ما، ارتعدت أوصال شالايني لدى عثورها عليه، وأحسَّت برغبة مفاجئة في أن تطلق صرخةً تعبيراً عن ابتهاجها بهذا الاكتشاف، عندما أدركت أنّ شخصاً ما كان مختفياً خلف بعض الصخور قد خرج إلى الفرجة الخالية

من الشجر، لمحتْ شاليني رأساً منحنياً وكُمّاً ويداً تستخدم.. ماذا؟ ماذا؟ دارت على عقبيها ولاذت بالفرار.

عندما قذفت نفسها على حافة التل، ساحبة جسدها باستخدام يديها اللتين خُدشتا وبدأتا تنزفان، ومُنشبة الجزء الأمامي من حذائها في الأرض المكسوة بالحصى، حيث كانت تتنفس بصعوبة من جراء الخوف والمجهود الشاق معاً، وجدت سيارة الجيب في الموضع الذي تركوها فيه، وكان يتملكها خوفٌ شديد من ألّا تجدَها هناك. بعد ذلك، عندما شاهدت بهاتيا وناكهو جالسين هناك في سكون تام، تحوَّل ارتياحها بسرعة إلى انزعاج بسبب النظرات الفظة التي صوَّباها إليها.

- أين تشاند؟ كنا في انتظاركما لتأتيا وتخبرانا ما إذا وجدتما شيئاً، إننا ننتظر هنا منذ ساعات.

لم يكن هذا عادلاً، إن كان ما يقوله صحيحاً. ردّت عليه شاليني بغضب واحتدام:

- كنا نعتقد أنكما ستلحقان بنا!

- بوجود كل هذه الأشياء التي ينبغي حملها؟ هل تعتقدين أن باستطاعتي أن أتخلى عنها وأجعلها تتهشم؟ أو أن تُسرق من سيارة الجيب؟

بالطبع كان كلامه منطقياً. صعدت إلى سيارة الجيب وجلست هناك، ثم فتحت غطاء الترمس لتشرب الماء، ومن ثم مسحت وجهها بكمّها. راقبها ناكهو خلسة، وقد رفعت الآن نظارتيها الداكنتين، رمقته بنظرةٍ غاضبة، ثم لبست نظارتيها ثانية، وثبَّتتهما في موضعهما.

مرّت فترة انتظارٍ طويلة ريثما وصل تشاند أخيراً كي يبلغهم بالمواقع التي تُقطع فيها الأشجار بصورة غير قانونية، لكن لم تكن هناك طريقة يستطيعون من خلالها أن ينقلوا معداتهم إلى هناك؛ لسوء الحظ أن ناكهو كان «حماراً» بصورة جزئية وليس كلية.

- إذن دعونا نعدْ إلى المدينة لنفتش عن مكتب شركة الخشب أو شركة التعدين، ونجري معهم مقابلات هناك.

قال بهاتيا مستنداً إلى سلطة المنطق والعقل، ولم يكن باستطاعة شالايني ولا تشاند الاعتراض على ذلك.

أخبرهم بهاتيا عن مطعم التندوري[32] الذي رآه بالقرب من فندقهم، وقد بدا له مطعماً واعداً، ثم في وقت متأخر من ذلك اليوم، وبعدما اغتسلوا وغيَّروا ملابسهم، مضوا إليه لتناول طعام العشاء، لكن بهاتيا كان أبرز المشتكين عندما اكتشف أن الطعام متبّل بالبهارات بإفراط وكثير الدسم، ثم أعلن أنه سيؤوي إلى فراشه مبكراً، تاركاً شالايني وتشاند جالسَين على وهج قنديل البيتروماكس، الذي يصاحبه الصفير، لينهيا ما تبقى لديهما من البيرة الدافئة الخالية من الطعم التي قُدمت إليهما، حيث لم تكن لديهما رغبة في العودة إلى غرفتيهما اللتين تغزوهما البراغيث في فندق شهر العسل.

- إذن، لم نحقق الشيء الذي جئنا من أجله.

قال تشاند متنهداً، عندما رأى أن أعضاء بعثته باتوا على شفير الانهيار.

---

(32) التندوري: طبق هندي شائع يتألف من الدجاج المحمَّص المُعدّ مع اللبن الخاثر والبهارات.

دفعت شـالـيني نظارتيها إلى الأعلى فوق قصبة أنفها وأيدته قائلة:

- كلّا، لم نحقق ما نصبو إليه.

ثم تابعت بجرأة:

- ربما يمكننا أن نلقي نظرة على شيء آخر، طالما أننا هنا.

- ماذا؟

قالها تشاند بشخرة ازدراء كشفت عن نظرته إلى تلك الجبال التـي كانت ذات يوم سـاحرة ومغرية، ولكنهـا الآن أصبحت بالية ومتهالكة.

- رأيتُ مكاناً غريباً هناك في الأسفل، خلال نزولي المنحدر.

أعلنتْ شالـيني بنبرةٍ تنمّ عن ارتياب غير معتاد.

- يمكنني أن أدلَّكَ عليه.

- لماذا؟

يلزمهـا أن تفسـر لـه الأمـر، كان مكانـاً غريبـاً عثـرت عليـه بالمصادفـة، إنـه مصنوع كليـاً من الطبيعة، ومـع ذلك لم تصنعه الطبيعة نفسـها، بل صنعه شـخص ما، أو لا يزال يصنعه، فنانٌ من طراز ما، على الأرجح.

بالنسبة لفئة الفنانين، لم يكن تشاند يبوح بتقديره لهم، مع أنـه يكنُّ لهـم احتراماً عميقـاً، فما كانوا يفعلونـه هو ما يطمح إليه، أو طمح إليه ذات يوم. بعد ذلك تخيّل أن جلسـات التدريب التـي خضع لها في تلك السـنة التي أمضاها في كلية السـينما بمدينـة بونـا كانت سـتؤدي به إلـى أن يصبح فنّانـاً، تلك أفضل أيام عمره، بيد أنه أدرك أيضاً، وبمرارة، حجم المسـافة التي باتت

تفصل بينه وبين سائر المُثل الفنية.

- وأي صنف من الفنانين هو ذاك الفنان؟

قال بصوتٍ خفيض.

- لا أعلم، لكنك سمعتَ حتماً عن ذلك الرجل في تشانديغاره، الذي كان يعمل مهندسَ طرقٍ أو شيئاً من هذا القبيل، والذي جمع كل الخردة من مشاريع الطرق التي أنجزها وصنع منها حديقة منحوتات، لقد أبقاها مخفية عن الأنظار، لأن قطعة الأرض التي شيّد عليها تلك الحديقة لم تكن تعود إليه، وبعد ذلك عُثر عليها، وأصبح ذائع الصيت، ماذا كان اسمه؟ هل تعرف اسمه؟

ألقى عليها تشاند نظرة اندهاش وتساؤل رغماً عنه.

رأت شاليني في ذلك مؤشراً إلى أن هذا الأمر أثار اهتمامه وفضوله:

- يمكننا أن ننزل غداً، ونلقي نظرة على ذلك المكان، من دون بهاتيا وناكهو.

استحسن تشاند ذلك أيضاً، فقد عرف ما يكفي من ذينك الشخصين، كما افتقد صديقته في دلهي، والتي جمعته بها علاقة مريحة وهادئة، فهي امرأة مطلّقة تعمل في الصحافة المكتوبة، حيث كان بإمكانه أن يحتسي معها بعض المشروبات في نادي الصحافة خلال أي أمسية يشاء، ويبدو أنها لم تكن تريد أكثر من ذلك؛ أي أن يرافقها رجل ما. نظر إلى شاليني وقرر أن ليس ثمة ما يمنعه من مرافقتها عصر يوم ما للبحث عن ذلك الفنان، أو ذلك الفن، أياً يكن.

لـم يكن بهاتيا يرغب بمرافقتهما فـي جولةٍ عبثية أخرى في سيارة الجيب، التي كان ركوبها يسبِّب له ارتجاجاً في العظام. في الحقيقة، توسـل إليهما أن يتـركاه، فقد كان يعاني من اضطراب في معدته، وكان متأكداً من أن السـبب هو دجاج طبق التندوري الذي تناوله، ولم يكن يسـتطيع التفكير بالذهاب إلى أي مكان، بل سـيقوم عوضـاً عن ذلـك بالبحث عـن «مصـادر للمعلومات» هناك في المدينة.

وفـي اسـتوديو التصويـر الفوتوغرافـي، الـذي كان محطتـه الأولـى بمـا أنه كان يحتـاج إلى بعض الأفلام وبعض العدسـات، وجـد أن المدينـة كانت على درايةٍ بوجودهم وبمشـروعهم، سـأله المصـور باهتمام شـديد، وهـو يمضغ بين خديه حشـوة من أوراق التنبول[33]:

- سمعت أنك تصوِّر فيلماً سينمائياً، هل هذا صحيح؟

ردّ عليه بهاتيا، الذي سـئم من شـرح الاختلاف بين السـينما والتلفزيون، بحدّة وغضب قائلاً:

- ماذا سمعت عنه؟

هزَّ المصور كتفيه باستخفاف، ثم قهقه قائلاً:

- كثيرون يأتون إلى هنا لتصوير الأفلام.

وهي ملاحظة باتت شديدة الابتذال، ثم أضاف:

- الجميع يحبون المناظر الطبيعية هنا.

- نحن غير مهتمين بالمناظر الطبيعية.

أكد له بهاتيا، وعندما رأى أنّ هذا الرجل قد يصبح فيما بعد

---

(33) التنبول: نبات متسلق.

«مصدراً للمعلومات»، توسع في كلامه قائلاً:

- نحن نبحث في قضية المناجم غير القانونية وقطع الأخشاب غير القانوني، وهي أسباب تؤدي إلى إفساد مناظركم الطبيعية.

تبيَّن أن إحساسه كان في محله، لم يكن المصور الوحيد الذي أسند مرفقيه على المنضدة الزجاجية، وراح يسرد له تفاصيل القصة السرية للفساد والاحتيال المستشري في المدينة، بل إنّ العديد من الرجال الذين كانوا يتسكعون عند مدخل الاستوديو ويراقبون الشارع، منتظرين حدوث شيء مثير للاهتمام، وهذا أمرٌ نادر في موسم العطل، بدؤوا بالانتقال تدريجياً إلى داخل المحل، وراحوا يروون قصصهم الشخصية واقتراحاتهم. ارتاح بهاتيا أكثر فأكثر؛ فقد كان هذا هو المشهد الذي يريده، وهذه هي الطريقة التي كان على يقين دائماً بأنها ستجعل مشروعه ينجح، وبعدما قدَّم له معارفه الجدد أوراق التنبول ووزّع هو عليهم السجائر، سألهم ما إذا كان بإمكانهم أن يرتِّبوا له بعض المقابلات.

قاد تشاند سيارة الجيب عائداً إلى المَعلَم الذي توقفوا عنده في البداية، لكن شالييني لم تستطع أن تعثر على الدرب الذي سلكتْه أمس، وكان عليهما بالطبع أن ينزلا التل، لكن هذه المرة كان الدرب الذي اختارته بالخطأ يمرّ عبر أشجار الصنوبر الكثيفة، وبدلاً من أن يصلا إلى الفرجة الواقعة في الغابة من المنطقة المحيطة بجلمود الصخر، وصلا إليها من الأعلى، حتى من دون أن ينتبها إليها، لدرجة أنهما كادا يدفعان رفّاً صخرياً إلى داخلها، فقد كانت مخفية بشكلٍ جيد في الطيّة الواقعة بين

التلال بسبب السراخس والظلال الناجمة عنها.

مدّت شاليني يدها لتلفت انتباه تشاند إلى ذلك المكان، كان الأخير واقفاً ويداه على وركيه، يتطلع من حوله، وما رآه وما استطاع أن يكتشفه عبر حجاب أوراق الشجر وظلالها أثّر فيه بعمق، لدرجة أنه لزم الصمت، وأخرج علبة السجائر وعلبة الثقاب من جيبه، ومن ثم أعادهما إلى مكانهما، من دون أن يشعل سيجارة.

- أهو جيد؟

همست شاليني، محاولةً ألا تبتسم.

جيّد، سيّئ.. بالكاد كانت تلك الكلمات مناسبة، وحتى إنه لم يكن متأكداً من أن هذه الحديقة أو هذا التصميم، أياً يكن، هو من صنع إنسان ما، فكيف يمكن أن يتفوق شيء من صنع الإنسان على جبال الهملايا نفسها، أو على تلك التلال التي تمتد بشكلٍ انسيابي من السهول إلى الثلوج، متجاوزة الضوء وصولاً إلى السحب، لتتغلغل بعد ذلك في عمق السماء؟ أو على النسور التي تدور ببطء محمولة على تيارات الهواء في الأودية الذهبية الكائنة في الأسفل، أو على خرير الماء الذي يتدفق من منابع غير مرئية في الأعلى؟

مع ذلك كان ما شاهده هنا يضم كافة هذه العناصر أو خلاصتها في شكل مقطّر ومكثّف، مثلما تضم نحلةٌ متألقة أو خنفساء أو نغمة واحدة من أنشودة طائر موسماً بأكمله.

أطلق صفيراً خفيضاً، والتفت ليومئ إلى شاليني:

- أجل.

عادا بالسيارة عبر الطريق الدائري المحيط بقمة التل إلى كشك الشاي الذي توقفوا عنده في ليلتهم الأولى لتناول الأومليت.

من الواضح أن ناكهو كان يخبر خاله بما يقوم به طاقم التلفزيون، رحَّب بالرام بهم كما لو أنهم من أفراد العائلة، وهو ينظِّف لهم إحدى الطاولات ليبعد عنها الذباب، ثم سألهم:

- شاي؟ قهوة؟ أومليت؟

أنزلت شاليني الحقيبة عن ظهرها، وحذا تشاند حذوها، ثم تبادلا النظرات التي كانت تقول: هل نستطيع طرح الأسئلة؟ فعل تشاند ذلك بحذر.

- هناك حديقة في وسط ذلك التل. لمن تعود؟ من الذي صمَّمها؟ هل تعلم؟

لم يكن هناك شيءٌ لا يعرفه بالرام؛ تلك هي السمعة التي آثر المحافظة عليها. لكنه هنا واجه شيئاً من الريبة، فتَّشتْ أصابعه عن إجابة في ثنايا شاربه:

- على ذلك التل؟

سألهما أخيراً:

- ذلك التل الذي يقوم في أعلاه بيت محترق؟

- لم نَرَ بيتاً محترقاً.

أصبح بإمكانه الآن أن يخبرهما عن ذلك البيت المحترق وعن سمعته وأسراره، غير أنه بينما كان يروي لهما تلك القصة، خطر بباله أنه لا يستطيع أن يخبرهما بشيء عن الناجين من ذلك الحريق سوى أن هناك شخصاً واحداً نجا منه، وما أسمياه

بـ «الحديقة» ربما تعود إليه، ثم قال في نهاية حديثه:

- اسألا بهولا .. بهولا هو المشرف المسؤول عن المنزل، إنه يعرف الجواب.

- أين نجده؟ أين يقع منزله؟

- ناكهو معكما .. ناكهو سيرشدكما إلى الطريق المؤدي إلى بيته.

كانا قد حسما أمرهما تقريباً بشأن عدم الاستعانة بناكهو، فهو قليل الفائدة، لكنهما يحتاجان إليه الآن في هذه المهمة الجديدة، كما يحتاجان إلى بهاتيا.

وخلال الغداء أنصتا صامتين إلى بهاتيا، وهو يمتدح إنجازاته التي حققها في ذلك اليوم:

- لقد حصلتُ على بعض المقابلات الجيدة، وعلى كثير من المعلومات، يجب أن ترَوا أولئك الرجال وهم يتدبرون أمر هذه الأعمال، لن تصدِّقوا ما يقوم به قطاع الطرق هؤلاء، كانوا يتحدثون، ولا يهمهم من يملك المعلومات، لقد وضعوا الجميع في جيوبهم، المدينة كلها تكسب الثروة بطريقة أو بأخرى، لذلك يمكننا أن نختم التصوير هنا، ثم نتوقف على الطريق المؤدي إلى ديهرا دون، عند بعض مقالع الحجارة تلك، الواقعة مباشرة في الهواء الطلق، لاتخاذها كخلفية، ثم ننتهي من الموضوع برمّته.

- انتظرا!

هتفتْ شالايني باهتياج بما أن تشاند لم يتدخل.

- لماذا؟

التفتَ بهاتيا إليها، ملقياً عليها نظرة انزعاج.

التفتتْ إلى تشاند لتشرح له الأمر، لذلك تدخَّل تشاند، وقال له:

- نعتقد أنه يوجد لدينا شيء آخر يستحق التصوير، لقد أرتني إياه شاليني؛ إنه حديقة من نوع ما؛ حديقة خاصة جداً؛ لا أحد يعرف عنها شيئاً، لكننا إذا ما استطعنا أن نتعرف على الشخص الذي صمَّمها، أو يقوم بتصميمها، فربما سيشكل ذلك خاتمة جميلة للفيلم يا بهاتيا، فهو شخص مختلف عن الناس الآخرين، شخص لا يدمّر الأرض، بل يصنع منها شيئاً ما، شيئاً جميلاً، وعندئذ يمكنك أن ترى من الذي يفهم هذه المناظر الطبيعية حقاً ويمنحها التقدير الذي تستحقه، نحن بحاجة للتحدث إليه لنرى ما إذا كان سيسمح لنا بتصوير حديقته.

خفض بهاتيا رأسه ووضعه في راحة يده، ثم فركه وشرع يئنّ، وفجأة ضاق ذرعاً بالمشروع كله وسئم منه، وأصبح كل ما يتعلق به خاطئاً وميئوساً منه، بات مشتاقاً لبيته وللطعام الذي تطهوه زوجته ولاهتمامها به، فقد نال ما يكفي من الإزعاج، وأصبح يتوق لمغادرة المكان.

قطعت شاليني صمتها، وقالت بإلحاح:

- هذا صحيح، سيشكل ذلك اللقاء النهاية المثالية للفيلم، ففي البداية يسلط الفيلم الضوء على كل الأشياء السيئة التي تحدث هنا، وبعد ذلك ينتهي الفيلم بشيء جميل، شيء زاخر بالأمل.

- إنه لأمرٌ يستحق المحاولة يا بهاتيا.

قال تشاند بإصرار، فقد كان ذلك يشكل في نهاية المطاف

المحطة التي كان فيها أكثر اقتراباً من الفن خلال مسيرته المهنية.

- وكيف ستقدمون هذا الساحر في فيلمكم؟ وهل رأيتموه أصلاً؟

- سوف نفعل، سوف نفعل.

طمأناه:

- امنحنا بعض الوقت.

ثم أرسلا في طلب ناكهو، الذي كان سيرشدهم إلى المنزل المحترق، وإلى الساحر.

كان رافي جالساً على درجات الشرفة تحت الضوء في ساعة متأخرة من المساء، منتظراً أن يستعيد المنزل الكائن في الأسفل شكله المألوف، وأن يتصاعد الدخان من سقفه المصنوع من القش، وأن يتم إحضار وجبة طعامه كالعادة، لكن بهولا صعد التل هذه المرة خالي اليدين، وكان يعتريه تردّدٌ غريب، وعلاوة على ذلك، فقد تنحنح كي ينبّه رافي إلى أن لديه شيئاً يود أن يقوله له، وأنه كان محقاً عندما أحسَّ بأن هناك بعضَ القلق في الجو، شيئاً ما ليس قادراً على تحديده بالضبط.

بدأ بهولا حديثه قائلاً:

- يوجد هنا بعض الأشخاص القادمين من دلهي، وقد جاؤوا لزيارتي، كان الناس يتحدثون عنهم، لقد جاؤوا إلى هنا كي يصوِّروا فيلماً.

أدرك رافي أنه يحتاج إلى بعض الوقت كي يستوعب تلك المعلومة، قدم سيجارة إلى بهولا مع أن هذا الأخير لم يسبق له

أن أخذ سيجارة منه، ثم أشعل سيجارة لنفسه.

- جاؤوا إلى هنا كي يصوِّروا فيلماً.

كرر رافي كلام بهولا، متسائلاً عن السبب الذي يمكن أن يجعله يخبره بمثل هذا الأمر، من المؤكد أن بهولا يعرف حق المعرفة أنه غير مهتمّ على الإطلاق بأي شيء يحدث في المدينة.

- ويريدون أن يأتوا إلى هنا كي يتحدثوا معك.

كان المكان معتماً جداً إلى درجة أنه ليس من السهل أن يرى كل واحد منهما التعابير الظاهرة على وجه الآخر، ولكنه لم يكن معتماً بشكلٍ يمنع بهولا من رؤية يد رافي وهي تحمل السيجارة المشتعلة، ثم تمكث في منتصف الهواء ويتجمد جسده بالكامل.

- لا!

خرج الجواب أخيراً من رافي، كما لو أن شيئاً كان يتهشم في أعماقه:

- لا!

أحسَّ بهولا أنه مرغم على أن يعرب عن تفهمه ومساندته له:

- سأخبرهم بذلك، سأخبرهم بأنك لن تتكلم معهم.

- نعم.

قال رافي من بين شفتيه المزمومتين بإحكام وحنجرته المتقلصة بشدة:

- قل لهم.. قل لهم ذلك.

- سأخبر الغلام ناكهو الذي يعمل معهم، إنني أعرف ناكهو، وناكهو سيخبرهم بردِّك.

قصد بهولا أن تكون كلماته مُطَمئِنة، لكن يبدو أنها لم تطمئن

رافي، كان هذا واضحاً من الطريقة التي نهض فيها على قدميه، وباضطراب راح يصعد درجات السلّم المؤدية إلى حجرته، انتظر بهولا ليرى ما إذا كان رافي سيشعل فانوسه، لكنه لم يفعل، وبقيت الحجرة مظلمة.

لم يخرج رافي في صباح اليوم التالي، وبقي المنزل مغلقاً وساكناً، لكن عند الغسق، بعدما أحضر بهولا الماعز والبقرة إلى البيت وجلب أيضاً حزمة من الحطب لزوجته، صعد الطريق، وعندما لم يرَ رافي، صعد درجات السلم وفتح باب غرفته. كان ذلك أمراً غير مسبوق؛ فهو لم يسبق له أن تطفل على رافي لأي سبب من الأسباب، لكنه وقف الآن في عتبة الغرفة بصمت، وهو ينظر إلى الداخل، لكي يدرك رافي أنه يقف هناك.

- لقد عثروا على حديقتك.

قال له بهولا، وقد شعر بنفس القدر من الانزعاج الذي يعلم أن رافي سيشعر به لدى سماعه بهذا التعدي:

- لقد صوروها، وغداً يريدون أن يأتوا إلى هنا، ناكهو هو الذي سيأتي بهم، إنهم يدفعون له أجراً.

كان بوسع بهولا أن يكتشف أن رافي كان جالساً إلى الطاولة من خلال الحركة المفاجئة التي قام بها الآن، وهو ينهض قليلاً من كرسيه.

- تعال معي.

قال له بهولا، ثم دنا منه وأخذه من ذراعه وقاده إلى خارج الغرفة ونزل به السلم. وعندما وصلا إلى الطريق أرخى قبضته قليلاً لكنه ظل ممسكاً بكمه، بينما كانا يتبعان بعضهما، وهما

ينزلان الدرب الحجري غير المستوي.

هُرعت نحوهما مجموعة من الكلاب، وراحت تثير جلبة، أسكتها بهولا بفظاظة، حيث استدارت على أعقابها وسارت أمامهما باتجاه الكوخ. كانت مانجو، زوجة بهولا، في السقيفة تحلب البقرة التي عاد بها بهولا من المرعى. الهواء مشبع برائحة القش والحليب الذي جعلته مانجو يتدفق في دلو الصفيح، والأطفال يطلقون أصوات المرح هنا وهناك، وهم يقودون الدجاجات إلى خمُّها، لكنهم الآن لزموا الصمت وأخذوا يحدقون.

أخذ بهولا رافي إلى داخل الكوخ، حيث كانت زوجته قد أضرمت النار توّاً لتعد وجبة العشاء، وفي شبه العتمة، أنزل بهولا بعض الملابس المعلقة على حبل في زاوية الغرفة، وسلمها إلى رافي:

- ارتدِ هذه الملابس.

قال له:

- حتى إذا شاهدوك فلن يتعرف أحدٌ إليك، سأخبرهم أنك أخي، وأنك جئت إلى هنا في زيارة.

ثم غادر الغرفة، تاركاً رافي ليتبع تعليماته، حيث خلع سرواله الخاكي وقميصه الأبيض ولبس منامة بهولا القديمة الممزقة وقميصاً طويلاً يصل إلى ركبتيه، بعد ذلك نزع حذاءه وانتعل بدلاً منه صندلاً يابساً متشققَ الجلد.

وبعد هنيهة، أقبلت مانجو راني ومعها دلو الحليب، وعندما رأته أشاحت وجهها، حيث أشعرت رافي بأنها تعلم بوجوده عبر

قيامها بسحب ثنية من منديل رأسها إلى الأسفل، فغطى جبينها، وخرج رافي إلى الفناء حيث الحيوانات. بحث عن زاوية كي يبقى بعيداً عن الأنظار، كان هناك زند خشب إلى جوار سقيفة البقرة، حيث مضى وجلس عليه بصمت ريثما تخف الجلبة التي تسبَّب بها قدومه، كان الأطفال يقفون هناك ويحدقون فيه بتركيز، غير مدركين مغزى كل هذا الذي يجري أمام أعينهم؛ هل سيقيم هذا الرجل معهم؟ ألن يعود إلى مكانه في أعلى التل؟

وعندما نادت عليهم أمهم، دخلوا إلى المنزل، ثم خرج بهولا ليحضر رافي، وأوضح لهم أنه سيجلس إلى جانبهم على الأرض الطينية المكنوسة بالقرب من النار، ثم مرَّر إليه طبقاً ملأته مانجو راني بالبطاطا المخلوطة بالكاري الهندي وعدداً من أرغفة الروتي السميكة التي تفوح منها رائحة القمح المُحمَّص، وكانت الأرغفة مفخَّمة بطريقة مبهجة. تناول طعامه، كما تناول الجميع طعامهم، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة، لم تكن هناك أصوات باستثناء أصوات الأكل وطقطقة نار الحطب بين الحين والآخر، والتي كان دخانها قد كثَّف الظلام وجعله مرئياً، لا أحدَ منهم يشعر بالارتياح.

بعد ذلك أخذه بهولا إلى الخارج ودلَّه على المكان الذي يمكنه أن يغسل فيه يديه عند مضخة الماء، وعندما فعل ذلك، تناثر رشاش الماء على صندله، محوِّلاً المكان الذي يقف فيه إلى بركة من الوحل، ومن ثم أخذه إلى بيت خارجي كانت تُخزَّن في النصف السفلي منه أكداسٌ من الحطب وبعض الأدوات، كما أن هناك سلماً يؤدي إلى رفٍّ يوجد عليه تبن وقش مخصصان

للبقـرة، كان بهـولا قد دخل هذا المكان من قبل وجهَّز بطانية من الصوف الخشـن لتكون بمنزلة سـرير نوم لضيفه. من الجلي أن رافي شـعر بالارتياح عندما اكتشف أنه ليس مطلوباً منه أن ينام مـع أفراد الأسـرة في الكـوخ الرئيـس، ولذلك التفـتَ إلى بهولا ليشـكره، أو ليعبـر بطريقة مـا عن امتنانه له، لكنه لم يسـتطع التغلب على تحفظه، وببساطة أومأ برأسه معبِّراً عن تقبله لكل مـا قُـدِّم له. لم يكن بهولا ينتظـر منه أي كلام، كما أنه لا يحتاج إلى كلامه، ثم تركه هناك.

كان أولاد بهـولا يجلبون لأبيهم أخبار تحركات طاقم الفيلم، سـواء في فرجة رافـي الخـالية من الشـجر أو في أعلى التل أو حول البيت المحترق، يتعقبون أفراد الطاقم في كل مكان، وهم منبهـرون ومسـتعدون لإطـلاق الصفير والقهقهة، إلـى أن يقوم بهـولا بإبعادهـم بفظاظة، من دون أن ينقل أي معلومة إلى رافي باستثناء القول له:

- من الأفضل لك أن تمكث هنا إلى أن يذهبوا.

وعثـر لرافي على قبعة هيماجـال[34] كتلك التي يعتمرها هو نفسه كي يضعها على رأسه، وهي ذات شريط من المخمل الأحمر المركَّـب علـى لبَّـاد رمادي اللـون، وقد كانـت تلك القبعـة بمثابة المكمِّل للباسه التنكري.

طوال سـاعات النهار، وبينما كان بهولا برفقة الحيوانات، في حين إن الأولاد على التل مع أن المُفترض أن يكونوا في مدارسهم، لـم يكـن أمام رافي مـكانٌ يقصـده أو عملٌ يقوم به، بقي جالسـاً

(34) قبعة هيماجال: قبعة يعتمرها سـكان ولاية هيماجال براديش الهندية، رجالا ونساء، وهي من الصناعات المحلية لهذه الولاية التي تمتاز بتعدد لغاتها وأديانها وثقافاتها وحرفها اليدوية.

على زند الخشب إلى جوار سقيفة البقرة، ينظر إلى الدجاجات وهي تلتقط الحبوب والحشرات التي تجدها بين الأحجار، أو ترتفع إلى الأعلى في نوبات مفاجئة من اصطفاق الأجنحة وإطلاق الوقوقات المذعورة، عندما ترى ظل نسرٍ يعبر منطقتها، وإلى مانجو راني، زوجة بهولا، وهي تتحرك جيئة وذهاباً مؤدية أعمالها المنزلية، ورأسها معصوب بوشاح هيماجال طويل، وذلك دون أن تنظر إليه. كان بهولا قد جاء بها من تيهري كعروس له، واضعاً بذلك نهاية لعهد الصبا وما رافقه من منجنيقات صيد وألعاب كريكيت، بعد ذلك أصبح رب أسرة وصاحب مسؤوليات جمّة، ومن الجلي أن مانجو راني كان لديها مسؤوليات أيضاً. لم يكن رافي ينظر إليها مباشرة، بيد أنه يعي تحركاتها عندما تقوم بملء الدلو من المضخة أو تصعد منحدر التل لتجز الحشائش من أجل الماعز بمنجلها المعقوف وترميها في السلة المشدودة إلى ظهرها. كانت طفلتها الصغرى، التي لم تتجاوز الرابعة، تتبعها في كل مكان، حيث قدما الطفلة حافيتان دوماً وأنفها ينزّ مخاطاً بشكلٍ متواصل، أما ثوبها المزيَّن بالرسوم الزهرية فكان متسخاً وكذلك شعرها، غير أن وجهها مستدير ومتألق كالوردة المتفتحة، في أغلب الأحيان كانت تتشبث بقميص أمها الطويل وتتبعها أينما ذهبت، لكنها أحياناً تنفصل عنها وتأتي لتتأمل الرجل الجالس على زند الخشب، متعجبة من جموده وصمته وسط هذا الضجيج المستمر وهذه الحركة المتواصلة، وعندما تستدعيها أمها بحدة، تهرب ضاحكة.

منذ زمن طويل لم يتواصل رافي مع امرأة، في البداية كانت

هنـاك والدتـه، وبعد ذلك قريباته في بومبـاي، وآخر امرأة كانت الآنسـة ويلكنسـون، لم تكـن ثمة طريقة يسـتطيع مـن خلالها التواصـل مع النسـوة فـي عائلة بهولا، بيد أنه يعلـم أنه لا يريد ذلك؛ فهنَّ ما كنَّ ليعوِّضنه عما فقده؛ فضاءه، حظيرته، الشـكل والتصميم الذي ابتدعه، والأشكال التي كان يبتكرها في داخله، هـل داس هـؤلاء البرابرة القادمون من المدينة عليه؟ وهل لمسـوه وكسـروه وحطموه؟ كانت نظراتهم الفاحصـة بحد ذاتها انتهاكاً لقدسـية المكان، ثم كانت هناك كل تلك التغيرات الطبيعية التي يحدثها كل نهار وكل ليلة نسـيمٌ عابر أو تسـاقط أوراق الشـجر أو اضمحلال واحتضار ما كان جديداً وحديثاً في اليوم السـابق أو انبعـاث مـا هو متجـدد وغير متوقع، فهو ليـس حاضراً هناك ليلاحظ تلك الأشـياء ويسـجِّلها ويحتفل بها، كان يعلم أنه لن يذهب إلى هناك ثانية، سوف يصبح فضاؤه قفراً مثلما كان عليه مـن قبل، أما اشـتياقه إلى اسـتئناف ما يُعتبـر حياته الحقيقية فقد ظل يسـتعر ببطء في داخله مثل عود ثقاب نُفخ عليه لكنه لـم ينطفـئ. جلس مستسـلماً للكآبـة، وراح يتأمل يديـه كما لو أنهما كل ما تبقى لديه، وهو الذي لم يعد لديه ما يشتغل به.

ذات صباح، وبعدما شرب كأساً من الشاي وتناول بعض الخبز فـي كـوخ بهـولا، وبعدما ذهب أفراد الأسـرة كلٌّ منهـم في طريق مختلـف، وجـد أن مانجو راني قد تركت علبـة أعواد ثقاب فارغة علـى الموقد المصنوع من الطـين، التقط رافي تلك العلبة ومضى بهـا إلى الهـواء الطلق، كانـت تلك طريقته في مراقبة الأشـياء وتأملهـا، جلـس علـى زند الخشـب فـي زاويتـه المألوفـة ثم فتح

تلك العلبة المُهلهَلَة وتفحص فراغها بتركيزه المعهود، ربما كانت سريراً أو مهداً.. إنما لمن؟ تطلَّع من حوله باحثاً عن شيء يكون حجمه صغيراً بشكلٍ كافٍ ليتناسب معها، فوجد شظية من لحاء الشجر وقطعة صغيرة من الطحلب، لكنهما تركتا حيزاً لمزيد من الأشياء، وعلى الأرض عند قدميه، لمح قطعة صغيرة جداً من الكوارتز يُمكن إضافتها إلى محتويات العلبة، أغلق العلبة ووضعها في جيب قميصه العميق. طوال النهار كان يمد يده إليها ليتلمسها، وقد وجد فيها مصدراً لراحة البال والتساؤل حول أنواع المجموعات الأخرى التي يمكن تشكيلها.

شرع يبحث عن علب أعواد الثقاب الفارغة، كانت كل علبة توفر له عالماً من الإمكانات الخاصة بالأشياء الدقيقة والأشكال التي يستطيع أن يصنعها منها، تلك الأشكال التي يمكنه أن يُدخل عليها تغييرات لا نهاية لها، مثلما يمكن تغيير قطع الزجاج الملوَّن داخل مشكال، وكانت تلك العلب، عندما تُترك مفتوحة، أشبه بمجموعات من النجوم التي تسطع في عتمة الليل، أما عندما يغلق عليها العلبة فكانت تصبح غير مرئية، ثم كان بإمكانه أن يحملها معه وأن يحتفظ بها لنفسه دون أن يعرف أحد بها.

هناك في المنزل المحترق الكائن في أعلى التل، كان أفراد طاقم الفيلم يتجولون في أرجاء المكان، حاملين آلة التصوير الخاصة بهم، وذلك بحثاً عن الناسك، كان بوسعهم أن ينظروا من الشرفة إلى الأسفل ليشاهدوا الفرجة الخالية من الشجر، وكوخ بهولا، والدجاجات التي تطوف حوله لتلتقط الحبوب،

ومانجو راني التي تتحرك جيئة وذهاباً، وهي تحمل الحشيش بين ذراعيها، وطفلتها التي تلبس ثوباً ورديا وتتبعها كظلها، بالإضافة إلى رجلٍ يجلس مسترخياً بجوار سقيفة البقرة، وكلبٍ نائم تحت أشعة الشمس.

- ما من أحد هناك.

أعلن بهاتيا بنبرة سلطوية، ثم أضاف:

- لقد رحل من هنا.

وفي وقتٍ لاحق، جثموا حول جهاز العرض الكائن في الغرفة الخلفية من استوديو التصوير، وشاهدوا الفيلم الذي صوروه «في الحديقة»، كما أسمتها شالیني، كان مشهداً يفتقر إلى الحياة، بلا لون ولا رائحة ولا حتى حركة، فالأشجار والصخور وأوراق الشجر والحجارة كانت كلها، مجتمعة أو منفصلة، عديمة الحياة، بل أشبه بالستارة الخلفية لخشبة مسرح لا يحدث عليها شيء.

انحلَّتْ بكرة الفيلم، مطلقة أزيزاً طويلاً وخشناً، وتلاشت ومضاتها الأخيرة ورموزها وسط العتمة، ظلوا جاثمين، حيث لم يكونوا يرغبون بإشعال المصابيح كي لا يواجه بعضُهم بعضاً.

في النهاية قال بهاتيا:

- لا يمكننا أن نعرض هذا الفيلم، فمن ذا الذي يرغب بمشاهدته؟ يجب أن نرميه، إنه فيلم ميت وفاشل ومضيعة للوقت.

التفتت شالیني لتنظر إليه وعلامات الاحتجاج واضحة على وجهها، أما تشاند فلم يفعل شيئاً سوى أنه تنهَّد، متقبلاً مرارة الهزيمة، أدركتْ شالیني أنه لن يتشاجر معهم.

وعندما مضوا إلى حجراتهم المنفصلة في فندق شهر العسل، جأر بهاتيا بصوت مرتفع:

- يمكننا المغادرة في الصباح! دون أي تأجيل! انتهى التصوير!

أما شاليني فقالت لتشاند بصوتٍ خفيض:

- كان باستطاعتي أن أجعل الفيلم يظهر بصورة أفضل، لو أننا فقط عثرنا على الفنان الذي صمَّم تلك الحديقة كي يأخذنا في جولة بأرجائها ويحدثنا عنها، تلك هي الخاتمة التي كنا نحتاج إليها.

- لكننا لم نعثر عليه.

قال تشاند، وهو يهز كتفيه تعبيراً عن استسلامه، ثم أضاف:

- لعله غير موجود أصلاً.

هبطت سيارة الجيب التلال البنية المائلة للصفرة، منعطفاً إثر منعطف، في أعقاب الغبار المتصاعد من رتل طويل من الحافلات والشاحنات التي سبقتهم. الهواء يصبح أكثر دفئاً مع كل انعطافة، في حين أشجار الصنوبر تغدو أقل عدداً، بينما الأعشاب تزداد ذبولاً.

كانت حركة المرور بطيئة، ثم توقفت بشكل مباغت، ضغط تشاند على المكابح بقوة كي يتفادى الاصطدام بالشاحنة التي تسير أمامه، وعند المنعطف ظهر رجلان أو ثلاثة يلوحون بأعلام حمراء، أعقب ظهورهم سلسلة من الأصوات المكتومة وغير الواضحة، التي بدا وكأنها جاءت من داخل التل، ما أدى إلى تأرجح سيارة الجيب بالكامل، وانبجس غبار أبيض إلى الجو، وانتشر بهيئة بالونات، ثم راح يهبط على شكل مظلات،

كان الغبار كثيفاً لدرجة أن الجميع بدؤوا يسعلون ويشعرون بالاختناق.

توقفت حركة المرور بالكامل، ما أدى إلى انبعاث أدخنة عوادم السيارات التي اختلطت مع سحابة الغبار، وثب بهاتيا من مقعده، بما أنهم الآن في طريق عودتهم، فقد بدا ممتلئاً بالطاقة والتصميم، وانضم إلى بعض السائقين الذين أوقفوا سياراتهم على حافة الطريق، وبينما كانت شالیني وتشاند ينظران، وهما لا يزالان شبه أعميين بسبب الانفجار، سمعاه يطلق صرخة، ثم رأوه يمد ذراعه، مشيراً إلى الأسفل كما لو أنه مستكشفٌ توصَّل للتو إلى اكتشاف ما.

نزل الاثنان بتردد وامتعاض لينضما إليه وينظرا في الاتجاه الذي كانت تشير إليه إصبعه، بدا الرف الصخري الذي كانا يقفان عليه متقلقلاً على نحو خطير؛ إذ كان يمكنهما أن يشاهدا تحته مباشرة شقوقاً عميقة وطويلة تتوسع شيئاً فشيئاً متحوِّلة إلى كهوف من الحجر الكلسي الأبيض، حتى وهم يقفون محدِّقين، حدث انفجارٌ آخر وتصاعد المزيد من الغبار الأبيض في اتجاههم، في حين استمر صدى صوت انفجار الديناميت في التردد.

وما إن خمدت تلك الانفجارات، حتى شوهد الرجال وهم يبتعدون عن منحدر التل الذي كانوا جاثمين عليه، وقد اكتسى شعرهم وثيابهم بطبقة كثيفة من الغبار الأبيض، إلى درجة أنهم بدوا أشبه بأشكال شبحية ضمن صور فوتوغرافية سالبة، وباستخدام المعاول والرفوش بدؤوا يحفرون ويطرقون وينقبون.

أشاحت شاليني نظرها جانباً، مُغمضة عينيها بسبب الحبيبات الرملية الخشنة والغبار، في حين أحنى تشاند جذعه وراح يتلوى ويسعل، غير أن بهاتيا كان يشعر بالانتصار، حيث هتف قائلاً:

- هذا ما كنا نحتاج إليه كنهاية للفيلم! أحضروا آلة التصوير، دعونا نصور المشهد.

قعقع رتلٌ من الشاحنات على الطريق الذي شُقَّ للتو، حيث كانت متجهة نحو الأخدود، ثم بدأ الرجال، الذين كانوا يتحركون كالأشباح في الأسفل، بتحميل تلك الشاحنات لكي تتوجه نحو المناطق السهلية.

المترجم في سطور

علي عبدالأمير صالح

- قاص وروائي وناقد ومترجم من الإنجليزية.
- من مواليد الكوت – العراق العام 1955.
- خريج كلية طب الأسنان من جامعة بغداد العام 1978.
- نشر أول قصة قصيرة في مجلة «الطليعة الأدبية» في العام 1975 بعنوان «أجساد الشهداء».
- عمل عضوا في المجلس المركزي للاتحاد العام للأدباء والكُتّاب في العراق بعد العام 2003.
- نال عدة جوائز في المجال الأدبي، منها جائزة وزارة الثقافة العراقية العام 2000 عن ترجمته لرواية «طبل من صفيح».
- له عدة ترجمات منها:

1 – «حفلة القنبلة» (رواية) للكاتب غراهام غرين (بغداد 1989).
2 – «طبل من صفيح» (رواية) للكاتب غونتر غراس (بغداد 2000).
3 – «قل لي كم مضى على رحيل القطار» (رواية) للكاتب جيمس بولدوين (القاهرة 2003).
4 – «بريدا» (رواية) للكاتب باولو كويلو (دمشق 2009).
5 – «المليونير المتشرد» (رواية) للكاتب فيكاس سواراب (بيروت 2010).
6 – «قوانين الحب الأربعون» (رواية) للكاتب إليف شفق (دمشق 2013).

وغيرها من الترجمات الكثيرة بالإضافة إلى مجموعة قصص وروايات من تأليفه.

- شارك في العديد من مهرجانات المربد والمتنبي والمدى (في كردستان) وملتقيات القصة والرواية في العراق، كما شارك في مؤتمر أبوظبي الدولي الثاني للترجمة في العام 2013.
- نشر في عدد من الصحف والمجلات العربية منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي وحتى الآن.

المراجعة في سطور

مالك أحمد عسّاف

- من مواليد الجديدة – لبنان العام 1970.
- سوري الجنسية.
- مترجم في ا لإدارة السياسية للجيش السوري (1993 – 1995).
- مترجم في صحيفتي «الوسط» و«أوان» الكويتيتين (2007 – 2010).
- عمل في مجال تدريس اللغة الإنجليزية بدءا من العام 1996 حتى الآن لمصلحة وزارة التربية في الكويت.
- ترجم عشرات المقالات لمصلحة مجلة «الثقافة العالمية» التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- يمارس حاليا أعمال الترجمة بشكل مستقل لمصلحة عدد من المؤسسات.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون والقلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب

فَنَّان الاخْتفاء

يشتمل هذا العدد على ثلاث روايات قصيرة من أفضل ما ألفت الكاتبة الهندية أنيتا ديساي، وهي: «متحف الرحلات الأخيرة»، «المترجِمة مترجَمة»، والأخيرة «فنان الاختفاء»، وهي عنوان العدد.

وقد تخلل رواياتها هذه المسعى السردي التخيلي الخاص بجغرافية بلدها الهند متعدد القوميات والثقافات والأديان واللغات، والذي اشتهر بملحمتي الـ «ماهابهارتا» والـ «رامايا» وبجبال الهمالايا ومبنى تاج محل وغيرها من الصروح المعمارية الرائعة.

نلاحظ في مضمون الروايات الثلاث قاسما مشتركا يربطها ببعضها، وهو التعلق بالفنون، كما أن شخصيات روايات ديساي التي ترسمها بأسلوبها المألوف مع المزج بين السخرية والعاطفة هم أناس ينظرون إلى الصور واللوحات ويقرؤون الكتب.

تقدم لنا الكاتبة في روايتها الأخيرة (فنان الاختفاء) هدية